



هذا العمل إلى أمي

هناك من الغيب ما أخفي عن البشر رحمة بهم

- لافكرافت

لم تكن هناك

هل أسقط؟

هل تركت يدي؟ أم أنك لم تكن هنا من قبل؟

أفتقدك.. في كل الأغاني، وفي الأمكنة،

حتى في وجوه الآخرين.

لم يعد أي شيء يشبه ما كان عليه.

توقف النور عن تحدي الظلام.

أصبح النور مجرد ضوء عابر،

والظلام في عيني أنا.

أنتظر، وهل حمل الانتظار يوماً

أي وعود حقيقية؟

الثلاثاء.

10 سبتمبر/ 2019

10:12 مساء / العاصمة

استلقى جسد المرأة على الرصيف الحجري الذي كان يستبدل برودته التي استمدتها من رطوبة الهواء، بحرارة جسدها. لم يرها أحد، فليالي الخريف الباكر، لا تأتي بالمارة، وتكفي وحشتها فوق مصابيح الطريق، لأن تقتل أي رغبة في السير على جانب الطريق المجاور للبحر. وفي هذه الواجهة السكنية، لا يكون هناك عادة أي أشخاص يعبرون في المساء، إلا من عادوا إلى منازلهم بعد قضاء يوم متعب. وفي الدقائق الأولى لهذه الساعة، ترمش نافذات المباني المتجاورة للسماء، معلنة استسلام الأفراد خلف الجدران، واحد تلو الآخر، للنوم. مرت دقائق تكاد أن تشكل ساعة كاملة، ولم ير أحد جسد المرأة المستلقي بشكل صريح تحت ظل الشجرة الذي منع وهج المصابيح الليلية من الوصول إليها. سار خيط رفيع من الدم بين خصلات شعرها، وبفعل الرطوبة استغرق الأمر وقتاً أطول حتى يتحول الدم إلى كتلة رقيقة تثبت خصلة شعرها البني الفاتح. وجد السائل الدافئ طريقه عبر فروة رأسها، ليصل من الجرح الموجود في مؤخرة رأسها، إلى الأرض المستوية الملساء. تلاشت حرارة

السائل واتحدت مع برودة الأرض فتحول إلى بقعة صغيرة، بدت أثرية بسبب لونها الأسود.

ما الذي يصنع المعجزات؟ هل يكون اليأس؟ لا بد أن يكون هناك مَنْ يأس من الحلول المرتبطة بطبيعة الحياة، وحاول الوصول إلى الجدران المرتفعة عن القدرة العادية، فصنع معجزة أولى ليثبت للعالم قدرة الإنسان على الوصول. بعد أن يتجاوز الإنسان حقيقة وجود المعجزات من عدمها، يصبح التفكير في شكل هذا الخلاص هو الجزء الأكبر من القصة. الإنسان يبحث عن المفاتيح في قلب اللامنتطق لو تطلب الأمر، ولو كان نسيان الواقع موجودا في قلب هذه الفجوة الغامضة، فإنه سيفرد ذراعه، ويحاول الوصول للجواب. نحن نبحث دائما عن الحلول الأسهل، ولا نبذل المجهود في قطع الطرقات المملة، والتي تشبه ما نخوضه عبر هذه الحياة؛ لأننا نؤمن أحيانا، بأن الوقت أقصر من الوقوع في معضلة واحدة، أو ربما هو أقصر من إيجاد الحلول الطويلة التي من شأنها أن تغلق هذا الباب، بصورة أبدية.

نحن نصنع المعجزات، أو نتخيلها لنرفض الواقع الذي لا يشبهنا. هذا يعيدنا إلى نقطة البداية، أي أننا نبني الواقع في النهاية، ولا نضع احتمالات التغيير، وعندما نصاب بالاختلاف الأول فإننا نصنع الخيال لبنى جدراننا تشبه ما فقدناه ونعتقد أن هذه هي المعجزة. أما الوهم فهو كل ما لم يكن موجودا ويرتسم لنا فوق رقعة الواقع على أنه سبيل آخر علينا أن نسلكه، فنجد أن لا أرض تحته، فيما

الخيال هو امتداد كاذب للحقائق التي نفقدها. وفي هذه الحياة نحن معرضون للفقد، والمنعطفات المفاجئة التي تغير شكل الطريق فجأة دون إنذار مسبق، يحذرنا من أن الحياة ستختلف بعد قليل. هذا يولد سؤالاً آخر لا يقل أهمية عن فكرة الخيال والوهم والحقيقة: كم يكسب الإنسان في رحلة الحياة؟ وكم يفقد قبل أن يصل إلى النهاية؟ قد لا يحصل المرء على إجابة واضحة، قبل أن يبلغ خط النهاية.

يعتقد بعضهم بأنك حين تخلد إلى النوم فإن آخر ما يبقى في ذهنك، هو ذاته الأمر الذي كنت تفكر فيه في آخر لحظة يقظة. أما الأحلام، فهي امتداد تصوري لما كنت تفكر فيه، أو انعكاس يترجمه العقل لكل الصور الدفينة في طيات عقلك الباطن، وتكاد تتبخر، فيرسلها العقل لك على هيئة تصور لا إرادة لك في تطويره أو تسييره. هذه النظرية تثبت أحياناً أن في داخلك جزءاً لا يمكنك السيطرة عليه، يصنع لك القصص، ويتخلص من حكايات قد لا تعجبه. هذا الجانب المتحكم في داخلك، لا يمكن لأحد، بمن في ذلك أنت، أن يحدد ما إذا كان هو شريف، أم جيد، هو يتحكم بطريقة تسيير جزء من حياتك، ويرسم لك الذكريات والقصص، الخيالات، وكذلك الأوهام. وحين تمكن الحياة بصخبها عن سماع صوته الداخلي، فإنه يخاطبك بأحلامك. هذا الجانب هو أنت، يشبهك تماماً، ولا يختلف عنك، يتخذ قراراتك معك أحياناً، لكنه يتفرد في طريقة تحكمه بالأمور.

ارتجف ضوء المصباح المتسرب بين الأغصان، فبدت المرأة كما لو أنها ترتجف فوق الأرض، لكنها كانت ساكنة كالموتى تماماً. لكن قلبها لم يتوقف بعد، وفي داخلها كانت تحلم بلحظات عالقة في الذاكرة. كانت ترى أحلامها الشرر يتطاير من أطراف الشمعات القليلة، فيما كانت الكعكة البيضاء تهبط على الطاولة. هناك أياد كثيرة تصفق وقد فقدت لونها، واكتست بلون أسود بسبب انعكاس ضوء الشموع. أما الوجوه العديدة فكانت تضيئها بقع ضوء حمراء بلون اللهب. كانوا يبتسمون، وأصواتهم تبتعد. وبين ذراعي المرأة، كانت هناك طفلة صغيرة، ترتدي فستاناً مزيّناً بمثلجات ملونة. تبتسم الطفلة كاشفة عن أسنان بيضاء صغيرة، بينها فراغات ضئيلة. بكفيها الصغيرين كانت تقلد الحشد المحيط بها، لكن لم يكن لحركة يديها أي صوت، فالهتاف الصادر من حناجر الكبار، غطى على ضحكاتها وضربات يدها.

بدا الجميع سعيداً في تلك اللحظة، التي تثبت أن السعادة شعور مباغت كالحنن تماماً لا تعلم متى يأتي تأثيره، وإلى متى يبقى عالقا في ذاكرتك ليضفي معنى واضحاً للذكرى. تلك اللحظة تخبرها بأن السعادة ليست دائماً اختياراً، ولا تستند على جدار الحظ حتى. إنها تركيبة معقدة، تعتمد على الحظ أحياناً، وعلى قرارات الإنسان، واختياراته، وعلى لحظات تقع على لوح الحياة فتكمل جزءاً صغيراً من صورة ستحتفظ بها في خيالك.

تتخيل المرأة تلك اللحظة كمشهد بطيء مليء بالوهج والأضواء الصغيرة البراقة التي تتطاير بين وجوه محبطة تحيط بها. وهناك

خلف هذا المشهد يوجد ألم. أحاطت كتفي ابنتها بلطف حتى لا تمنعها من الرقص بحرية أمام كعكتها، ولم تكن قلقة إلا من تطاير الشرر المضيء أمام ابنتها.

لم يعكر تلك الذكرى أي شيء، سوى شعور بالألم موجود خلف الكاميرا التي كانت تصور لها ذلك المشهد. أدركت فجأة أن هذا الألم مصدره رأسها. أرادت أن تلمس مصدر الألم بأطراف أصابعها، ولكن في الذكريات لا نستطيع تغيير المشهد، لأنه قد طبع بطريقة غير قابلة للتغير، أو التجديد. لكن هذا الألم فظيع، وهو يشوش عليها رؤية الذكرى السعيدة التي مضى على ولادتها بضع ساعات.

هتف الجميع بصوت واحد:

- سنة حلوة يا حبيبة. ثم تردد الصدى في كل الأرجاء.

سبق الكلب صاحبه بخطوات قافزة أقرب للهرولة من المشي. لم يتحرك الرجل بالسرعة ذاتها، بل ترك لكلبه حرية السير بالطريقة التي تناسبه، طالما كان الطريق خالٍ، ولن يتسبب هذا المخلوق بالأذية لأحد. تحرك الرجل متجاوزاً ظل الشجرة، ومشى على بقعة ضوء طفرات، ثم اختفى كسى الأرض ظل الشجرة التالية. تكرر الأمر مرات عديدة، لكن الكلب الذي كان تقدم عن صاحبه لم يفعل الأمر ذاته، بل توقف بطريقة مفاجئة أمام كومة طويلة من الظلال السوداء. أخفض الكلب خطمه، وأخذ يشم رائحة الشيء الملقى على الأرض. لم يكن شيئاً لا يعرفه، هو صورة مألوفة، لكنها في موضع غريب هذه

المرة.

ناداه صاحبه:

- عد إلى هنا يا فتى.

عارض الكلب رغبة صاحبه في العودة إليه، والتي كانت مبنية على رغبة عدم القيام بما يفعله بالأساس. لم يفهم الكلب سلم الرغبات المتدرج من فعل صغير، وصولاً إلى أمر بالعودة إلى مكان صاحبه. هذا الحيوان الأليف، كان يشعر بوجود خطب ما في هذا المكان. دفع الكلب خطمه من جديد في تضاريس الجسد الواقع على الأرض، ولم ينتظر وصول صاحبه لتدهشه هذه المفاجأة المخيفة.

- ماذا تفعل عندك؟ تعال هنا.

بدر من الكلب اعتراض جديد هادئ ليس له أي مؤشرات. لم يفهم الرجل بسبب العتمة استغراب حيوانه الأليف. لذلك حث قدماه على السير بسرعة أكبر وصولاً إلى البقعة التي تغطيها ظلال الأغصان. في تلك اللحظة عقد حاجبيه غير مصدق لما يراه. بعد مرور ثلاثة ثوان، تقبل الرجل الصدمة بهدوء.

- من هذه بحق الجحيم؟ اللعنة على المغتصبين.

هذا ما فسرهُ الرجل من خلال رؤية المرأة تستلقي على الأرض

فاقدة الوعي، وهي عارية. ليس معها أية متعلقات شخصية، ولا تغطيها الثياب. لم يلحظ وجود خط الدم العابر من رأسها إلى الرصيف. بل هول المنظر أعمى بصره عن أي فكرة أخرى. بطريقة آلية جر كلبه بعيداً عن جسدها، ودس يده في جيبه ليخرج هاتفه الذكي، ويطلب النجدة.

هتف وحده في الظلام بكلمات مندفعة تشبه الغضب:

- لقد وجدت امرأة غريبة ملقاة على قارعة الطريق. إنها.. إنها عارية. -كرر الرجل - نعم، نعم. لا أعلم كم مضى على ذلك، لكنها تتنفس، لم تمت.

شرح الرجل مكان وجوده بالضبط، وراح يراقب جسد المرأة التي كانت تتنفس ببطء. أخرج من جيبه حبل الكلب، وعلقه في الطوق الملتف حول رقبة الحيوان، وجرة بعيداً، ولم يرحل قبل وصول رجال النجدة.

لم يكن الطريق معتماً، ولكنها أيام الخريف الباكر ونهاية الصيف، كانت تبعث بطابع غريب في الهواء، وتجعل ألوان الأضواء المتفرقة يمتزج شعاعها مع الهواء الثقيل الرطب. انعكس ضوء سيارة الشرطة على الرصيف، تارة يجعل الجزء المحيط بجسد المرأة أزرق، وتارة أخرى يتحول إلى الأحمر. أما سيارة الإسعاف فكانت تتحرك في طرقات العاصمة التي تبدو بين المباني الشاهقة المتجاورة، ضيقة. عبرت السيارة الضخمة بسرعة، متجاوزة كل الإشارات المرورية، بعد

التأكد من أن جوانب الطريق خالية. وعندما ظهرت السيارة البيضاء في نهاية الطريق، كان الشرطي قد ترك سيارته ووقف مع صاحب الكلب، وزميله الآخر كان يقف متوتراً عند جسد المرأة، ويرجو أن يصل رجال الإسعاف ليخلصوه من هذه المهمة الذي لم يكن من اختصاصه التعامل معها.

- هل أنت من وجدها؟ - سأل الشرطي.

تحرك الرجل خطوة للوراء، وأجاب بقلق مصدره وجود الشرطة، ورهبة الضوء الذي كان يغطي جزءاً واضحاً من الطريق:

- أجل، إنه أنا. كنت في نزهة مع الكلب، وهو في الواقع من شعر بوجودها قبلي، وعندما وصل إليها، واكتشفت الوضع الذي هي عليه، اتصلت بكم فوراً.

- نزهة! في هذا الوقت؟ - قال الشرطي، مخفياً تشكيكه.

- وما المانع؟

أجاب الرجل باقتضاب واضح، لأنه شعر بأن هناك أصبعاً وهمياً من أصابع الاتهام من المحتمل أن يوجه إليه. لكن عمل الشرطي كان يتطلب التشكيك في كل حقيقة، حتى لا يترك أي ثغرة فارغة في وقت لاحق. أخبره الشرطي بأنه سيحتاج إلى بياناته، ورقم هاتفه للتواصل معه إذا ما تطلب الأمر. أعطاه صاحب الكلب كل البيانات

المطلوب، وفكر في تلك اللحظة بأن سيتحمل هذه العواقب الصغيرة الدبقة، والتي لم تكن في الحسبان. ظن أن الأمر سيقصر على وصول رجال الشرطة، ورحيلهم مع هذه الجثة، لكن هذا تأخر أكثر.

- معدل نبضها منخفض.

صاح المسعف بذلك، وحاول أن يرفعها ليضعها على النقالة برفقة زميله الآخر. غطوا جسد المرأة بلحاف أبيض رقيق، ولم يطبع جرحها أي بقع على وسادة النقالة البيضاء. كان الدم قد جف حول الجرح، وأوقف النزيف القليل.

رحلت سيارة الإسعاف في ما كان صاحب الكلب يراقب مضيها بعيداً عن الطريق. خفت ضوءها تدريجياً حتى أصبحت مجرد كتلة مضيئة محاطة بهالة ضبابية صغيرة. انعطفت فاخفت الضوء تماماً، ولم يتبق إلا ضوء مصابيح سيارة الشرطة. ظن الرجل أن للحادث رهبة أكبر، وأن الطريق سيمتلئ بأشخاص مختلفين، وسيأتي الفضوليون ليحيطوا بالمكان من كل جانب. ولم يمنع نفسه من تخيل وميض كاميرات الصحفيين، وإن حاله الحظ قد يظهر وجهه في أي منصة إعلامية إلكترونية، فيما يتحدث عن شعوره حين اكتشف هذه الجريمة. لكن هذا لم يحدث.

رحلت رجال الشرطة أخيراً، ولم يتبق على الرصيف سواه هو والكلب. جر كلبه وهو يقول:

- هيا انتهت نزهتنا. - سار الكلب معه برضا مخفضاً رأسه، كأنه يدرك الوصول إلى هذه النهاية المحبطة

11:04 مساءً / مستشفى العاصمة

اتبعني الضوء.

أمرها الصوت آتيا من خلف الأطراف السوداء للقرص المضيء أمامها. كان الضوء ساطعاً بشدة مما جعل النظر إليه يبدو للوهلة الأولى، أمراً مستحيل. مشع ملتهب أمام عينيها يبعث حوله خيوطاً نحيلة كشباك عنكبوت. إنها شمس قريبة جداً من عينيها، ولكنها فقدت الحرارة، كانت شمساً مصحوبة ببرودة شتاء أتى بطريقة مفاجئة. كان الصوت يأذن تاركاً صدى في أذنيها، يأمرها أن تتبع ضوء الشمس القريبة جداً من عينيها. اختفى الضوء كما لو أنها ترى الخسوف الآن، ولكن الصوت لا يزال موجوداً، كأنها مبعوث من خلف السماء. شعرت برهبة وخوف وتخيلت بأنها ستحمل رسالة ما من خلال ذلك الصوت العظيم الذي يخاطبها.

هذا ما كانت تحاول فعله بالضبط، قبل أن يأمرها الصوت، لأنها كانت ترى نورا مبهماً، يحاول جرّها من هذا الظلام. ظنت بأنها تستطيع السير خلفه، وأن هذا نفق الموت، الذي يأتي النور في نهايته، إما ليعيدها، أو ليعطيها إجابة واضحة، ونهاية عما تعانيه. لكنها لم تعلم بأنها مستلقية، ولن تتمكن من السير مؤقتاً

هل هذه هي الشمس، في قلب هذا الظلام؟ لا يمكن أن تقوى هذه العتمة على تلك الشمس الضئيلة التي تحاول أن تتبعها، كما أمرها الصوت البعيد.

تحركت الشمس في السماء القاتمة، وفي الوقت ذاته تداخلت خيوطها المنتشرة. ابتعد القرص عنها وأصبح أصغر. كانت عيناها لا تزال تتبعه. فقدت أملا لا تعرف كيف ولد في داخلها، عندما رأت هذه الشمس الباردة تبتعد عنها وتتقلص حتى أصبحت تشبه نجمة، ولكنها أكبر حجما من النجوم التي تراها في العادة. وفي لحظة واحدة مباغتة، اختفت تلك النجمة وتركت الظلام يحل محلها. أصبحت برودة الهواء واضحة أكثر. ورغم البرودة لا يمكنها أن تتجاهل الشيء الذي ترقد عليه ويتسبب لها في قرصات خفيفة في ظهرها.

سألها الصوت من خلف السماء المظلمة إن كانت تستطيع سماعه بوضوح، فحاولت بكسل أن تحرك رأسها إيجاباً لترك دليل على أنها تسمع، ولكن صوتاً ما أخبرها بأنه سيفهم ما يجول في عقلها دون أن تحاول ذلك. لكن الصوت لم يفهم! أراد إشارة أكثر وضوحاً.

أخبرته بإنهاك كان سببه نومها الطويل، بأنها تسمعه. لفظت كلمة "أسمعك"، تاركة مسافة بين الحرفين الأول والثاني، وما تبقى من الكلمة. تلاشت ظلمة السماء، وامتزجت أشكال لا معنى لها مكتسية بألوان ظلامية معتمة.

ماذا يأتي قبل البداية؟ قد يكون الفراغ هو ما يتيح للفرص النشوء. ماذا كان يوجد قبل أن يأتي العالم؟ فراغ أسود، وعلى الكتب صفحات فارغة لم تطبع عليها كلمات تحكي معلومة، أو تروي حكاية. كذلك فراغ شاشة لم تعرض أي مشهد بعد. هذا كله يشبه الفراغ الموجود قبل أن نستيقظ، ولا نتذكر بأننا نراه، إلا عندما نقلد النوم، محاولين أن نغمض أعيننا، لاقتناص قدر أكبر من هذه الراحة التي تترك أثرها دون أي ذكرى منها. هذا الفراغ يتلاشى مشكلاً أول مشاهد اليوم، وسطراً أولاً في جزء جديد من الحكاية.

كأنظمة عديدة في الجسد، تفقد الساعة الداخلية في الإنسان قدرتها على تحديد المعلومات، أو تذكر بشكل دقيق في لحظات الاستيقاظ الأولى. تكون الذاكرة في أسوأ مراحلها في البداية، ثم تبدأ تدريجياً وبشكل لا يلاحظه المرء بالعمل من جديد، وتعود بعد ذلك إلى النمط المعتاد.

ارتفع معدل نبضات قلب المرأة التي يغطيها الآن رداء المستشفى الأزرق، ووثم تضميد الجرح الموجود في رأسها بلفافة بيضاء تغطي جبهتها. كان الألم أوضح من الذكريات التي لم تجد طريقة تترتب بها. تأوهت وهي تتحرك، محاولة اكتشاف محيطها. كان الألم يتقدم مندفعاً كالموج على رمال الشاطئ، وينسحب بتدريج بطيء، ليعود بطريقة مفاجئة بعد ذلك. تأوهت، ولم تحاول النهوض لأن الأمر أكبر من الطاقة التي يتيحها ألم الرأس.

تلاشت الأحلام التي يزعجها دماغها بها ليذكرها بآخر اللحظات

التي عاشتها، وعاد الواقع من جديد. رغم برودة هواء الغرفة، إلا أنها كانت منزعة وت شعر بأنها مطوقة أو مقيدة. فتحت عينيها، ورمشت مرات متتالية لتوازن حجم الضوء غير المزعج الذي يملأ الغرفة. كانت الحجرة التي ترقد بها مضاءة بمصباح أبيض من جانب واحد، والنصف الآخر كان معتماً، ومع اتحاد العتمة بلون المصباح ولون الجدران العاري، تغطي المكان كله بلون رمادي قاتم. جالت عيناها في المكان النصف مضاء، وشعرت بكآبة المحيط، وكان هذا يخنقها ويدفعها لجر قدر أكبر من الهواء. حركت رأسها على الوسادة المزعجة والتي كانت ملفوفة بقماش يشبه ملمس رداءها، وكلاهما يوحيان بأنها مغطاة بورق جرائد. راقبت المرأة النافذة الوحيدة في الغرفة، ورأت خطوط الضوء المتداخلة على صفحة الزجاج. تساءلت عن مكان وجودها فهذا المحيط لا يشبه أي ركن كان موجود في ذاكرتها يوماً، لكنه يبدو مألوفاً في ذاكرة أي إنسان بالغ. إنه مكان نظيف، أبيض، وعبق برائحة المطهر. أدركت بأنها في المستشفى. رفعت يدها إلى موضع الألم في رأسها، فشعرت بشيء يشبه المناشف الرقيقة يلف رأسها.

سبق صوت حركة رتاج الباب المفاجئة، ظهور الطبيب الشاب في جانب الحجرة المربعة. ورغم أنه يرى التساؤلات في عيني المرأة إلا أنه تقدم كما لو كانت لم تستيقظ بعد، وجاورها متسللاً إلى جانب السرير بهدوء.

- هل تدركين أين أنت؟ - سألها الطبيب.

حاولت أن تبحث عن طريقة تخرج فيها الكلمات من حنجرتها بنعومة، لا تغير في شكل المحيط الرقيق الذي وجدت نفسها فيه. كان هذا الهدوء يشكل طبقة رقيقة تحيط بالمفاجآت، وهي تدرك أن وجود نقطة فاصلة ترسلها إلى هنا، لا بد أن تكون امتدادا لحدث ما، لكنها لا تتذكره.

- مستشفى، أليس كذلك؟

- نعم هذا صحيح، أنت في المستشفى. لكن هل تتذكرين من أنت، أو لماذا أنت هنا. نحن لا نملك أي إثبات يدل على هويتك، ولا نعلم ما الذي أدى بك للوصول إلى هذه الحالة، ثم الانتقال إلى هنا.

عقدت حاجبيها بطريقة آلية، ولولا شدة دوران الضماد حول رأسها، لما أدركت قيامها بذلك. حاولت أن تتذكر المشهد الأخير قبل أن تستيقظ هنا، لا بد أن يحل هذا المشهد سببا واضحا لاستيقاظها في مستشفى. أرادت وسط كل هذه التزاحمات المحيطة بها أن تجد إجابة صغيرة على الأقل.

- اسمي أسيا. - قالت وحاول أن تجد إجابة للسؤال الآخر.

لا تتذكر أسيا آخر ما حدث معها. كان المشهد الأخير في ذاكرتها هو ما كانت تحلم به. عتمة، أضواء الشموع المتجاورة، وضحة حبيبة أمام الكعكة التي كانت تهبط على الطاولة.

- كنت في المنزل، أحتفل بعيد ميلاد ابنتي.. حبيبة. إن هذا آخر ما أتذكره. لا أعلم كيف وصلت إلى هنا.

إن الذكرى الأخيرة مرتبطة بأسرتها، وتحتوي الصورة على العديد من الوجوه المحببة، قبل أن تنتقل فجأة إلى المستشفى. اتسعت عيناها دهشة، وفكرت في عائلتها، لا بد أن يكون قد مسهم من هذا السوء المجهول شيء! حاولت أن تنهض، وتعتدل. قالت بصوت أعلى مما كانت تتحدث به:

- أسرتي هل هم بخير؟ هل هم هنا؟

تنفس الطبيب وهو يمهد طريقة يحل بها كل هذا اللبس الغريب:

- لا يوجد أحد سواك هنا. ثم إن رجال الشرطة أخبرونا بأنهم وجودك على الرصيف المجاور للبحر. كنت وحيدة هناك ويبدو كما لو أنك تعرضت لهجوم ما. إن هذا ما يفسره الجرح الموجود في رأسك.

لم يخبرها الطبيب بأنهم وجدوها عارية حتى لا تسرقها الأفكار بعيداً، وتدخلها في حالة صدمة تشتتها عن عملية إيجاد الأجوبة. تزايد التساؤلات، سينهي ولادة الأجوبة. فكرت أسيا في السبب الذي سينقلها إلى الرصيف، بينما من المفترض بها أن تكون في منزلها الصغير تحتفل مع عائلتها. زاد هذا الاحتمال الأمر سوءاً، وباغتتها فكرة أن يكونوا قد تعرضوا للأذى، لكن أحداً لم يكتشف ذلك بعد، أو أنهم في مستشفى آخر.

- في أي مستشفى أنا؟ علي الذهاب إلى المنزل؟

- ليس قبل أن نتحدثي مع رجال الشرطة.

- شرطة؟ - خرجت الكلمة فجأة

سألته بصوت قلق، ففكرة تدخل الشرطة تحيط الأمر بالشبهة والغموض، وهذا أثار الرعب فيها، فهي لا تحمل أي ارتباط في ذهنها مع أمور مشبوهة وغامضة. لم تستوعب أسيا بعد فكرة الهجوم الذي شن عليها، ولا تدرك كيف أصيبت بالجرح الموجود في رأسها، بل إنها لم تتقبل وجوده بعد.

دس الشرطي يديه في جيبه ردائه الأبيض:

- إنه إجراء روتيني. يجب أن تستجوبك الشرطة لأن طريقة وصولك إلى هنا غامضة. قد تتذكرين الأمر مع مرور الوقت. أما عن عائلتك، فسأتصل بهم أنا.

أخرج الطبيب ورقة وقلماً ودون الرقم الذي أملته أسيا عليه. أخبرها بأنه سيتجه حالاً إلى هاتف المستشفى، ويتصل بعائلتها ليخبرهم بما حدث.

غاب الطبيب تاركاً أسيا في الحجرة وحيدة، وفي تلك اللحظة

بدت الأصوات الأخرى المجاورة لسريرتها واضحة، كما أنها لاحظت وجود السلك المتصل بيدها ليدها بالمحلول المغذي. كل تلك التفاصيل كانت تزيد من إثبات حالة الغرابة المحيطة بها، هناك خلل لا يمكنها تحديد موقعة. ما الذي تخفيه علامة الاستفهام هذه خلفها؟ فكرت في عائلتها زهرية ابنتها الكبرى، حبيبة، وجميل. فكرت في زوجها عمر، وتساءلت عن مكانهم جميعاً الآن، لا بد أن يكونوا قد افتقدوها، وإن لم يفعلوا ذلك، فإن مكروهاً قد أصابهم، وكلا الاحتمالين مزعجين. وجهت تركيزاً نحو فكرة انتظار الطبيب حتى يعود ويخبرها بأن عائلتها بخير وهم قادمون إلى هنا من أجلها، وكان الوقت يقاوم رغبتها هي، ويسير ببطء يمكنها من استشعار قوة خفقان قلبها.

- هذا الرقم غير داخل في الخدمة، هل أنت متأكدة منه.

قال الطبيب تلك المعلومة لأسيا، ثم كرر عليها أرقام الهاتف بصوت عالٍ حتى تتأكد من ترتيبها. ألقت أسيا بالشك حول ذلك في جانب الطبيب، بل والمستشفى كله. لم تخطئ الرقم، ولا يمكنها أن تنسى أرقام هاتف منزلها. أخرج الطبيب هاتفه الخاص، وضغط على المفاتيح التي تشكل ذلك الرقم، ثم ضغط زر الاتصال. كان مكبر الصوت فعالاً في تلك اللحظة لكي يتسنى لهما سماع النتيجة التي سيتوصلان إليها.

صرح الرد الآلي:

- الهاتف المطلوب غير داخل في الخدمة.

هز الطبيب يده القابضة على الهاتف، وأنهى المكالمة، ثم سألها:

- رأييتِ؟ - شعرت أسيا بأنها يتآمر عليها.

- جرب الاتصال على هاتف زوجي النقال.

رغم أن الطبيب لم يفعل أي شيء يوحى بتكاسله عن تلك المهمة، إلا أن أسيا شعرت بالملل يتسرب لقلبه. كانت ممتنة لصبره، لكنها لم تبح له بذلك. سلمها هاتفه بين يديها، وترك لها حرية الاتصال. أدخلت رقم هاتف زوجها، ووضعت السماعة على أذنها. شعرت بالنبض يسري في جسدها كله بما في ذلك رسغها، ورأسها حتى. كان الهاتف لا يكاد يثبت على أذنها.

ابتهجت وهي تسمع رنين الهاتف قبل أن يقطعه صوت أنثوي ناعس:

- من المتصل؟

قالت أسيا بصوت التساؤل:

- عمر؟ أليس هذا هاتف عمر؟ - شعرت بالاندهاش لجرأة هذه المرأة على استخدام هاتف زوجها، ثم تلاشت الفكرة ليحل محلها الشك الممزوج بالغضب. - من أنت؟ لماذا تجيبين على هاتف زوجي؟

قالت المرأة:

- هل تمزحين؟ من هو عمر؟ إن هذا هاتفي أنا، وأنا لست عمر. يبدو أنك أخطأت في الرقم؟

أنهت الغربية المكالمة، ولكن كلماتها وتصرفها لم يزيلا الشك الموجود في قلب أسيا. قالت في سرها: هل يخونني؟ لكنها عندما قامت بترتيب الوقت، وجدت أنه لن يجد أي متسع لهذا، فقبل ساعات قليلة، كانوا يحتفلون وسط العائلة، متى أصبح عمر مع تلك الغربية.

كررت أسيا الاتصال بالرقم ذاته، فأجابت المرأة بغضب:

- ألا تفهمين؟ لست عمر، أنت مخطئة. إن اتصلت بي فسأبلغ الشرطة؟

فهم الطبيب أن خطبا ما حل على مهمة أسيا، كانت المرأة تحاول إجراء المكالمة مرة ثالثة، لكن الطبيب طلب منها أن تعيد له الهاتف، لأن الأمر يتعدى بالنسبة له حدود الطبيعة، ولا بد من أن خلاها نفسياً أصاب هذه المرأة مجهولة الهوية، والتي تدعي أنها أسيا، ولا تعطيه

أي معلومة مؤكدة.

- أعطني بيانات زوجك يا أسيا، وسأبحث عنه بنفسي. كما أنني سأؤكد من العنوان الذي أعطيتني إياه.

عندما خرج الطبيب الشاب من غرفة أسيا، تمكنت هي مرة أخرى من أن ترخي جسدها على الفراش غير المريح. أعادت رأسها إلى موضعه، لكن الجرح الموجود في الجزء الخلفي آلمها فجأة، فأرخت وجهها على الجانب الأيسر لتصبح النافذة هي الجزء المقابل لها. بينما كان الجرح لا يزال ينبض بالألم، فكرت في سبب وجوده. وتساءلت عن من أو ما الذي تسبب لها به.

استسلمت للدوار تدريجياً، وتركت أصوات ذهنها المتخيلة تنبعث من جديد إلى الجدار القريب من الواقع. كانت تسمع صوت ضحكات ابنتها الممتزج بصوت الهتاف. كانت الأصوات عميقة لها صدى يتكرر مراراً. لم تدرك أسيا أنها كانت تستسلم وتترك الواقع لتغفو بين الأحلام التي ترسم الذكريات.

فتحت عينيها فجأة، لتبدو غفوتها أشبه برمشة عين سريعة. تقدم الطبيب وبدأ تعبير وجهه أكثر جدية هذه المرة. لم تبذل أسيا مجهوداً كي تعتدل في جلستها، وإنما انتظرت المفاجأة التي يخبئها هذا الطبيب خلف تعبير وجهه.

- هل تتذكرين ما هو تاريخ اليوم يا أسيا؟

- لماذا هذا السؤال؟

بدأت أسيا مرتابة بسبب نبرته في طرح السؤال عليها، ولم تكن هذه هي المعضلة التي تواجههم، فلماذا يطرح عليها سؤالاً لا يتعلق بكل ما اتفقوا على إيجاده.

- إنه عيد ميلاد ابنتي، العاشر من سبتمبر.

سألها الطبيب:

- في أي عام نحن؟

- 2019

تلاشى اندفاع الطبيب، وشكه الذي يختبئ خلف وجهه الجدي. كانت أسيا محقة في كل تلك المعطيات، وهو لم يتوقع أن تكون هذه المرأة تملك هذا المدى الصغير من الدقة. قد يكون ذهن أسيا مشوشاً، ولا تتذكر التفاصيل الصغيرة الأخيرة، لكنها تتذكر الأشياء الثابتة كالتاريخ مثلاً.

- بحثت عن العنوان الذي أعطيتني إياه، إنه منزل لمهندس معماري يعيش فيه هو وزوجته. لا يعرف من هي أسيا حتى. كما أنه يعيش في ذلك المنزل منذ ما يزيد عن الأربعة أعوام.

هذا غير منطقي. لا يمكن أن يكون ما قاله الطبيب مفهوماً بالنسبة لأسيا، ولا يمكن أن يترجمه عقلها بأي طريقة. شعرت بخوف شبيه تماماً بشعور الطفل الذي يفقد يد أمه بين الزحام. فكرت في والدتها وكادت أن تجهش أمام الطبيب، ورأت تطلب منه أن يجد لها والدتها، أو عمر.

- أسيا هل أنتِ على ما يرام؟

شعر الطبيب بتداعي أسيا المفاجئ، وكان يعلم بأن ما يظهر على وجهها ليس إلا تمهيداً لضعف قوي قادم. لكنها لن تستلم لشعور متدفق من فجوة سوداء عميقة تجرّها إلى ما لا تعرفه هي. إن استسلمت لمخاوفك، فإنها تجرك لمناطق الضعف فيك. لكن إذا ما فكرت في أن تصافحها فإنها تصنع منك شخصاً أقوى.

- أنا بخير، لكنني لا أفهم.

- سأبحث عن بيانات زوجك في سجلات المستشفى، لا بد أن نجد ما يوصلنا إليه، ولكن هذه هي الفرصة الأخيرة. إن كان هذا الشخص مزيفاً كما هي كل معلومة أعطيتني، فإنني مضطر للجوء إلى معالج نفسي. إنني أتفهم ما تشعرين به الآن، وأعلم بأنك تحت تأثير صدمة ما، ولكنني لن أتساهل مع حالة إنسانية كحالتك يا.. أسيا.

قال الطبيب اسمها، كما لو أنه يشك في أنه اسمها الحقيقي. كان

المحلل المغذي المعلق في ذراعها قد شارف على الانتهاء. أخبرها الطبيب بأنه سيرسل من يغيره لها، لأنها لا تحتاج إليه. طلبت منه أن يسحبه من ذراعها لأنه يؤذيها، وكانت تحتاج إلى دوره المياه. فعل الطبيب ذلك قبل أن يخرج. سحب الإبرة من يدها، وأعطاهما قطعاً لتضعه على موضع الإبرة لفترة قصيرة.

خرج الطبيب وترك الباب يعود إلى مكانه بسرعة. راقبته أسيا وقد توقعت أن يصطدم الباب بإطاره، لكنه أصبح بطيء الحركة فجأة وانغلق بنعومة. دفعت اللحاف عنها، ورأت جسدها الذي لا يغطيه سوى رداء أزرق قصير. نهضت متشبثة بطرف سريرها الذي ثبتت عجالاته كي لا تتحرك. أفلتت ما كانت تقبض عليه، وسارت حتى زاوية الحجرة حيث كانت دورة المياه. دخلت دون تردد وسارت بقدمين حافيتين على الأرضية الزرقاء الباردة. توقفت أمام المراة المحاطة بمصابيح داوود ثنائية. أحاطت مقبضي صنوبر الماء بكلتا يديها، وأرخت وزنها عليهما حتى شعرت بأنها ستسكروهم. لم تصب يداها أو حتى وجهها بأي أذى. شكلت بركة صغيرة من الماء الدافئ المتدفق بين يديها، ثم دفعت وجهها عبرها. شعرت بالانتعاش لذلك، وتلاشت تدريجياً الطبقة الضبابية التي تحيط العالم حولها.

تسربت خيوط الماء حول معصمها ووجدت طريقها تحت الخيوط الجلدية الصوية رغم نحافتها، والتي تشكل سوار حول معصمها. كان هذا السوار الجلدي مثبت علامة اللانهاية المصنوعة من الذهب الأبيض على معصمها. وهو هدية اختارتها حبيبة واشتراها عمر من

أجلها في عيد ميلادها في يوليو الماضي. جذبت ورقتين رقيقتين من أوراق المناديل المعلقة على الجدار، ومسحت الماء المحيط بالسوار الجلدي حتى لا يتلف. كان السوار مرتخياً حول يديها فشدت إحكامه لتعيده إلى وضعيته السابقة. ألقت نظرة أخيرة على وجهها البارز تحت الضماد، لم يغير ما حدث نظارة وجهها، لكن عيناها لا تزالان تفتقدان للحياة بعد فقدانها الوعي. تطايرت خصلات شعرها البني الفاتح من فوق الطوق المحيط بجهتها. رتبت بطريقة سريعة عشوائية ثم ابتعدت عن انعكاسها في المرآة متجهة إلى الباب.

خرجت أسيا من دورة المياه لتواجه سريرها الموجود في نهاية الحجرة. عاد إليها السؤال: لماذا أنا هنا؟ فكرت في كل المعلومات التي كذبها الطبيب، والتي لا يمكن أن تكون كما عمر عليها هو. شعرت بأنه يتلاعب بعقلها، لأن تفاصيل حياتها لا يمكن أن تبدو مزيفة كما يعتقد هو، فهي ليست مجنونة ولم تكن كذلك في أي يوم من الأيام. شعرت بأن عودتها للفراش تعني الاستسلام لكل هذا الكذب، فاندفعت بهدوء نحو باب الحجرة، وجرت بهدوء، ثم دفعت رأسها فقط ليلقي نظرة على الممر المضاء بمصابيح فلورية تزعج البصر. لم تجد أي أحد يسير في الممر، ولم تسمع وقع خطوات قريب. إنه الليل وهو وقت الهدوء المفترض في هذا المكان. جرت جسدها إلى الخارج، ووقفت بردائها الرقيق أمام باب حجرته، ثم تقدمت لتصبح مكشوفة في وسط الممر لأي شخص قد يعبر الآن.

عبرت أسيا الممر، وانعطفت في نهايته دون أي إدراك لما سيؤدي

إليه اختيارها لهذا الجانب. ستجد أي شيء يدل على قرب المخرج منها، لذلك كانت مهمتها هي أن تتفادى أي شخص هنا، حتى تجد المخرج. عبر تقاطع آخر من الممرات، وفي تلك اللحظة لم تتصور بأن زوجا من الممرضات سيقطع طريقها، كانت إحداها تحمل ملفا حليبي اللون تبرز من زاويته أوراق بيضاء قليلة، وتحدث مع مريضة أخرى تسير معها بالسرعة ذاتها، وتصغي باهتمام. لم تلاحظ إحداهن تراجع أسيا خطوة للوراء، لكن انسحاب أسيا المفاجئ سيكون ملحوظاً، لذلك لم تنسحب وأكملت سيرها بجوارهن مجازفة بفرصتها. لم تهتم إحداهن لوجود أسيا، أو حتى يلقين بنظرة خاطفة عليها.

عندما أصبح الممر خالياً سارت أسيا بخطوات أسرع حتى تتجنب مصادفة أشخاص آخرين. عبرت الباب العريض في نهاية الممر، لتجد نفسها في مقاطعة مليئة بكراسي الانتظار التي تجعل ثلاثة أو أربعة مقاعد جلدية متجاورة عبر إطار حديدي فضي اللون. كان هناك باب زجاجي في الطرف الآخر من القاعة، وشعرت أسيا بأنه سيقربها من غايتها. كانت تختار وجهتها بطريقة عشوائية، لكنها لم تكن تحمل سوى ذلك الحل، والنظر إلى اللافتات المعلقة لم يكن يشير إلى أي مخرج، بل كان يدلها على أقسام المستشفى فقط.

تجاوزت منتصف الطريق وصولاً إلى الباب الزجاج قبل أن تسمع صوتاً يناديها:

- سيدتي إلى أين تذهبين؟

التفتت أسيا لتجد ممرضة شقراء نحيله تقف في آخر الممر.

- إنني أبحث عن زوجي، لا تقلقي سأكون بخير.

- لا يمكنك الذهاب لأي مكان.

اعترضت الممرضة، لكن أسيا لم تلق بالاً لذلك. تركتها خلفها، وتجاهلت نداءها وهي تتجه إلى الباب الزجاجي. أصبح المخرج على بعد أمتار قليلة منها. كان صوت الممرضة ينادي بصيغة الأمر. كانت أسيا تدرك بأن أحداً ما سيسمع نداءها وسيأتي ليقدم لها الدعم، لذلك كان عليها أن تمضي أسرع، وتنتهز هذه الفرصة.

خرجت إلى الهواء الرطب والذي جعل رداءها الورقي يلتصق بجسدها، لكنها لم تكثر لهذا الأمر، لأنها ليست عرضة لهذا الدلال الآن. كل ما عليها فعله هو أن تذهب لعائلتها، وأن تترك شكوك الطبيب خلفها. عبرت جوليا الباحة المغطاة بالحجر، ووصلت إلى طرف الشارع المرصوف. التفتت مرة أخيرة لتجد أن عدد الأشخاص الذين يرتدون زي التمريض قد أصبح أكثر. كما أن بينهم رجال أمن يراقبون أسيا من بعيد. تضاءلت فرصتها في الهروب، لكنها لم تنعدم بعد، ليس إن كانت خطوات أسيا سريعة.

راحت أسيا تجري فوق الطريق المغطى بالحصى، وكانت بعض قطع الحصى البارزة تضايق قدمها العارية، لكنها لم تتوقف. نبض

الألم في رأسها بقوة، وتحول إلى صداد أكثر من كونه ألماً نابضاً.
عادت الطبقة الضبابية تغطي عينيها، وبطريقة مفاجئة، فقدت زمام
السيطرة، وتلاشى العالم من حولها.

غرقت أسيا في ظلام تصدح فيه أصوات الهتاف السعيد.

11 سبتمبر/ 2019

00:07 صباحاً / الوادي الغربي

لا يتذكر عدد الأحلام التي راودته خلال نومه القصير، وغير المريح. بل إنه لا يتذكر تفاصيل تلك الأحلام التي كانت تُحبك من دون ذكاء، أو معنى. لم يكن يرى خلف حاجز نومه المرهق، سوى صور لا تقل كآبة عن واقعه، صور حزينة فيها لمحات من الماضي المشحون بأمل المستقبل الذي فقده، بل فقدوه جميعاً. هل لا تزال هناك فرص؟ أم ذهبت هباء كتلك الأحلام التي لا تعطي إلا لمحات لتضغط على الجراح التي لم تداو بعد. لماذا استيقظ الآن؟ لماذا عاد إلى هذا الواقع الكئيب باكراً؟ توالى الأفكار والصور في رأسه مستغرقة لحظات قصيرة جداً، بحيث تجعل عقليته البشرية المحدودة، عصية على فهم تتابع الصور. بعض الصور أتت من الحقيقة، وأخرى كانت مجرد بقايا لمنام رآه قبل أن يستيقظ. صور، لا شيء أكثر من ذلك. صورة لطفلة تدور حول نفسها على مرج منزله الحديث، تفتح فمها وتغلقه لتشكّل كلمات بطيئة لا صور لها. هكذا كانت الأحلام دائماً، من دون صوت. لا يمكنه أن يزيل تلك الصور من عقله لأنها كانت تزوره كل ليلة حين يغلق عينيه ويزور الجانب الآخر

الخفي للحياة. جانب يعجز عن فهمه، ولكنه يجد فيه الراحة، حيث ترتسم له الصور الغائبة عن الحياة اليوم. لم يكن عيب ذلك الجانب الأسود، سوى قصر المهلة التي يبقى هو فيه، قبل أن يعود لقساوة الواقع.

لم يدرك تحديداً ما الذي أيقظه، في البداية سمع امتداداً لسلسلة صرير الخشب، الذي انكمش مع دخول موجة البرد. كان الصرير كالجدجد المزعج بين الأغصان، يصدر صفيراً من زوايا عديدة مختلفة وهو في مكان واحد لا تستطيع تحديده. لكن الصرير لم يكن السبب الأساسي في ذلك. بل كان جسماً آخر يهتز فوق الطاولة الخشبية المجاورة لرأسه. رفع رأسه عن الوسادة، وشعر بفراغ المكان حوله، وهذا الشعور لم يكن جديداً عليه، لأنه اعتاد على فقدان زوجته من محيطه، بل اعتاد على فقدانها حتى وهي تقف أمامه. نظر إلى مكانها الفارغ، ولم يشعر بالخوف، لأن هذه ليست المرة الأولى، بل كان كثيراً ما يستيقظ في الآونة الأخيرة، ولا يجدها جواره. تكون عادة في حديقة المنزل، أو في المطبخ تبكي وحيدة، وتخفي دموعها عن الجميع. كانت حالتها تتدهور في كل يوم، تبتعد عن الواقع ولا يمكن له أو لأي أحد آخر إعادتها. محاولاته المضنية باءت بالفشل، والآن، هو لا يهتم حتى لفكرة محاولة جديدة، فلي داخله من الأسى، ما لا يقل عنها بكل تأكيد.

تحول المنزل الكبير، بطريقة مفاجئة إلى بيت أشباح. فمع انسحاب موجات الحر، واقترب أجواء الخريف الفعلية كانت الأشجار تنهياً

لأن تعري أغصانها، والأرضية الخشبية تصدر صريها حتى بعد أن يكف أصحاب المنزل عن السير عليها. غرق المنزل في الظلام فقد تجاوزت الساعة منتصف الليل، وكذلك المنازل الموجودة في البلدة في بقع متفرقة، كانت كلها قد سحبت أضواءها وتركت الأرض تفرق في ظلام ليلي. لم تكن هذه البلدة بدائية أبداً. بل كان سكانها طيبون جداً، لكنهم محبون للهدوء وبعيدون عن أشكال الحياة الحديثة.

مسألة الاعتياد على الأشياء الجديدة في الحياة هي معادلة ترتبط بالوقت دائماً، وتسير معه في خط مواز، لذلك يكون الاعتياد فعلاً بطيئاً، مملاً أحياناً. لكننا غالباً لا نشعر بانسجامنا مع الاختلافات، إلا بعد أن نكتشف بأننا قطعنا شوطاً طويلاً، تكون العودة معه إلى شكل الحياة الطبيعي أمراً صعباً، وفي بعض الأحيان يكون شكل الحياة التقليدي قد تلاشى، ونصبح مضطرين لعمل هدنة جديدة نتعايش خلالها مع الجانب الجديد من الحياة. في النهاية هذه هي الحياة، وهي لم تعط يوماً أي وعود لأي أحد.

استسلم عمر للنوم من جديد، لكن هذا لم يدم سوى لحظات.

استيقظ عمر على صوت اهتزاز الهاتف. بدا الهاتف غاضباً وهو يحرك سطح الطاولة الخشبية معه، ويلمس طرف المصباح الجانبي الصغير. مد يده ليقبض على الهاتف ويجذبه أمام وجهه. لم يسعفه الضوء الساطع على رؤية الأرقام، لكنه حين حاول جاهداً أن يفعل ذلك، لاحظ أن الجزء الواضح من الأرقام يدل على أن المتصل اسم غير مسجل. أجاب فوراً حتى لا ينهي المتصل محاولته. وضع الهاتف

على أذنه وقبل أن يأتي الصوت من الطرف الآخر، لاحظ أن جانب زوجته خالٍ. لم يتساءل عن الساعة، وود لو أن يبعد الهاتف عن أذنه، وأن يرى الساعة متناسية أن هناك ساعة أخرى بجوار رأسه.

- مرحباً. من هذا؟

سأل عمر ذلك السؤال الذي خرج من بين ثنايا صوته الناعس الثقيل. لكنه لم يسمع سوى صمت موحش بدا طويلاً رغم قصره. أت من الطرف الآخر. كاد أن يكرر سؤاله، وهو يراقب جانب زوجته الفارغ ويتساءل عن مكان وجودها، فجانبها يوحي أنها لم تخلد إلى الفراش بعد.

- هل هذا هاتف السيد عمر؟ - سأل صوت ذكوري.

- أجل، أنا هو. من المتحدث؟

أزاح الهاتف عن أذنه ليرى الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بدقائق قليلة، وهذا ولد استفهما غامضاً آخر، فمن عساه يطلبه في هذه الساعة. ثبت عمر جسده لأن آثار النوم ما زالت تسبب له خللاً في التوازن. وضع باطن كفه على جانب السرير الفارغ. تسربت بروده اللحاف عبر ذراعه، وهذا أشعره بالقلق لأن زوجته لم تقترب من هذا المكان بينما هو نائم.

- إنني أتصل بك من مستشفى العاصمة. إن الأمر يتعلق بزوجتك.

هل تدعى أسيا؟

الطبيب الذي يتحدث هو الطبيب المشرف ذاته على حالة أسيا، والذي كان قد فقد المصداقية المرتبطة بها. شعر عمر بالقلق فدفع اللحاف بعيدا عن جسده ونهض ليقف أمام سريريه.

- أجل.. هي أسيا. هل هي.. هل تعرضت لمكروه؟

شعر عمر بالسخف تجاه رغبته في السؤال عن زوجته إذا ما كانت بخير، فلو كانت كذلك، لما وصلت إلى المستشفى، ولم يتحدث هذا الرجل بدلاً عنها.

- لا تقلق يا سيد عمر، إن حالتها مستقرة، وهي بخير لم تتعرض لأي أذى بالغ. تعرضت لحادث بسيط، وهي مشوشة قليلاً لكنها ستكون بحال أفضل إذا ما أتيت أنت معها الآن.

- سأكون هناك بأسرع وقت.

تردد الطبيب قبل أن يطلب من عمر الطلب الذي سيزيد قلقه حيال الأمر:

- سيد عمر، عليك أن تحضر لها ثيابا جديدة أيضا، حتى تخرج بها من هنا.

أراد عمر أن يسأله عن سبب ذلك، لكنه تراجع بسرعة، بينما الشك في قلبه لم يكن يتراجع عن مهمة إشعال الأسئلة في ذهنه. لم يكن واعيا لما كان يرتديه هو، ولم يفكر حتى في رش وجهه بالماء ليخفي معالم النعاس عن وجهه. فتح كيسا قماشيا صغيرا، ودس فيه ثيابا رياضية لأسيا، وخرج من المنزل دون حتى أن يربط خيوط حذائه بالطريقة المناسبة بل اكتفى بدسها بين قدميه، وبين جدار الحذاء.

لمح أبواب غرف الأطفال مغلقة، ولا يتسرب الضوء من الفراغ الموجود أسفل الباب. إنهم عادة ما يكونون نائمين في هذا الوقت، لذلك لم يبدد المزيد من الوقت في تفقدهم. خرج من المنزل سائرا على الشرفة المظلمة، وصولا إلى السلم القصير ثم إلى الحديقة الصغير حيث ترك سيارته على جانبها بجوار السياج الخشبي القديم.

التقى عمر بأسيا خلال دراسته للقانون، كان هو حينها في عامه الأخير، بينما هي بدأت في عامها الثاني. في ذلك الوقت كانت تملك أحلاما جامحة، يمكنك أن تشعر بوهج حماسها ما أن تعبر بجوارك، لكنها لم تكن فتاة ملتفة أو ذات شعبية كبيرة. كانت تعيش محيطة أفكارها وذكاءها بسور يحمي عالمها وخيالها من ضرر الآخرين. دامت علاقتهما لأكثر من عام، حتى تخرج هو وحصل على تدريب في مكتب محامي لامع، وأثناء التدريب كان يقبض راتبه لأنه يعمل بدوام جزئي، وكان هذا العمل يمثل تدريبه. أصبحت علاقتهما رسمية وهي تخوض العام الثالث بدراسة القانون.

تقدم عمر لخطبة أسيا، ووافقت هي فوراً بشرط أن يظلا مخطوبين لعام آخر، حتى تتخرج هي، وأثناء تدريبها يمكنهما الزواج. وبالفعل ما أن تخرجت تزوجا، وبعد أن قضت عاما كاملا كمتدربة، أنجبت طفلها الأول، وهي فتاة أسماها عمر زهرة تيمناً بوالدته المتوفاة.

بعد ولادة الطفل الأول تحولت علاقة عمر بأسيا، من علاقة حب مليئة بالشغف، إلى شكل من أشكال الحياة. أصبحت الحياة بالنسبة له هو دون تدخل معاني الحب، هي منزله وعائلته وأسيا. تجاوز عمر مرحلة الحب معها، وأصبح لا يعرف حياة أخرى لا تكون هي موجودة فيها. أما أسيا فكانت مهما تبتعد، ومهم تجرّها الحياة في متاعب الوظيفة أو الأمومة، تجد عمر في نهاية كل درب. كانت علاقة عمر بأسيا تتطور بشكل هادئ مواز لحركة السنوات التي يقضيانها معاً، فكلما تقدم العمر بهما، كانت علاقتهما تصبح أقوى مع دخول الهدوء العقلاني إليها.

قاد عمر سيارته عبر الطريق المؤدي إلى خارج البلدة، ولأن الطريق كان لا يزال تحت أعمال التجديد، فإن الإنارة على جانبيه كانت ضعيفة. كان الضوء الداخلي المنبعث من مؤشر السرعة، والمذياع يعطي هالة كثيفة داخل السيارة، بينما في الخارج كان هناك أضواء بعيدة متفرقة خلف صف الأشجار الذي يحيط بالجانب الأيسر من الطريق. أدرك عمر بأنه يتجه إلى تلك البقعة المليئة بالنقاط المضيئة والمتجاورة، لكن ما لم يعرفه حتى الآن؛ هو سبب وجود زوجته

هناك. ألم تكن في المنزل؟

تجاوزت سيارة عمر الطريق المظلم واندفعت عبر الطريق الرئيسي، والذي كان ينبض بقدر ضعيف من الحياة، لكنه أقل وحشة من الطريق الفرعي في هذا الوقت. كان الطريق شبه خالٍ، ولكن كلما قطع عمر مسافة قصيرة، كانت تجاوره سيارة أخرى. رفع هاتفه أمام وجهه، بينما يده الأخرى تثبت المقود، أراد أن يتأكد من وصول أي إشعار جديد لهاتفه، لكنه لم يجد أي تنبيه. ترك هاتفه في الفجوة الصغيرة التي تثبت المشروبات، واستجمع كل تركيزه ليوجهه نحو الطريق.

وضع عمر تصورات كثيرة للحوار الذي سيدور بينه، وبين أي شخص يخاطبه في المستشفى، كما فعل الأمر ذاته مع أسيا، والذي لم يتمكن من تحديد صورة ثابتة لشكلها الذي سيتقبلها عليه. لا يعلم ما سبب كل هذا، ولكن إنكار وجود خطب ما سيكون أمراً طفولياً، ونوعاً من أنواع اللامبالاة. عندما وصل إلى المستشفى أرشده من كان يناوب في ركن الاستقبال، إلى الطريق المؤدي لمكتب الطبيب. لم يتمكن عمر من تجاهل نظرة الريبة التي دل عليها حاجب الموظف المعقود. أراد أن يسأله إن كان هناك أي شيء يعرفه حول زوجته، ولكن ما الجدوى من هذا السؤال، إن كان سيرى الطبيب المشرف على حالتها بعد قليل.

سار عمر حسب إشارات يد الموظف، حتى وصل إلى غرفة مكتب صغيرة بابها مفتوح، وفي قلبها يجلس الطبيب خلف مكتبه الصغير.

رفع الطبيب بصره ليرى عمر يقتحم الغرفة بحذر، وهو يشك في أنه وصل إلى وجهته الصحيحة.

- عمر؟

هز عمر رأسها موافقاً، فنهض الطبيب وصافحه كما لو أنه مرغم على فعل ذلك بطريقة آلية. لم تكن في كف أي منهما روح التحية، بل كلاهما كان ينتظر الوصول إلى نقطة ما.

- هل زوجتي بخير؟

- أجل إنها كذلك، لكنها مشوشة بسبب الحادث.

أشار الطبيب لعمر بالجلوس أمام المكتب، بينما هو عاد إلى مكانه الأول حيث رآه عمر جالساً. جلس عمر، رغم عدم رغبته بذلك. استسلم لرغبة الطبيب لأنه يملك كل ما يحتاجه هو الآن.

- أي حادث؟ أين هي الآن؟

فهم الطبيب عدم معرفة عمر بأي جزء من أجزاء الحادثة.

- هل أنتما منفصلان؟

- لا. أجب عمر بسرعة.

- هل تعيشان بالقرب من هنا؟

قلق عمر كان أكبر من صبره على هذه الأسئلة التي لا يفهم سبب طرحها، أو أنها على الأقل تمهيد لكارثة أكبر. رغم ذلك أجاب عمر بالنفي، وتبع إجابته بالعنوان الصحيح لسكنه.

- تعرضت زوجتك لضربة على الرأس، لم تؤذيها تلك الضربة، لكنها استيقظت مشوشة بعض الشيء، وهذا يحدث أحياناً مع بعض المرضى الذين يستيقظون دون أن يدركوا بأنهم انتقلوا للمستشفى. لكنها لا تتذكر عنوان منزلها، بل أعطتني عنواناً آخر، وأرقام هواتف أخرى، وأنا أتفهم بأن البيانات التي تحتفظ بها في ذاكرتها قد تكون تبعثرت نوعاً ما. لولا تطور التكنولوجيا، لما كنا حصلنا على بياناتك أنت حتى، كنت أشك في أنك أنت أيضاً حقيقي، فكل ما أعطتني إياه كان لا وجود له. لكن أنت الآن حقاً هو زوج أسيا؟

لم يفهم عمر ما تأثير هذا أو سببه حتى. كل ما يريده هو أن يرى زوجته التي يعرفها وتعرفه. زوجته البائسة الحزينة، والتي مهما كانت تتصرف بغرابة إلا أنها تبقى كما هي.

- أين هي الآن؟ أريد رؤيتها.

قلل الطبيب الحدة في صوته، وأظهر لعمر تفهماً أكبر:

- ستراها، لكن عليك أن تفهم شكل الصورة كاملة. لقد وجدناها على جانب الطريق عارية تماماً، ومصابة. لا نفهم كيف حدث هذا، ولم نخبرها هي بالأمر.

ظهر تعبير الفزع على وجه عمر، وبعد لحظات قصيرة تشرب فيها ذهنه الصدمة نهض من مكانه فجأة، وتحول خوفه لغضب مفاجئ. نهض الطبيب ليجاريه بالانفعال:

- عليك أن تهدأ يا عمر. زوجتك لم تتعرض لأي اعتداء. أعتقد بأنها تعرضت للسرقة فقط. لا تملك أي متاع معها. وأثناء الفحص اكتشفنا بأنها لم تتعرض للاغتصاب، يبدو أن السارق لم يود أن يترك لها أي شيء بما في ذلك ثيابها. إصابتها ليست بالغة. ستستعيد وعيها قريباً، ويمكنك في ذلك الحين أن تتحدث معها.

تراخى جسد عمر ولم يكن سبب ذلك واضحاً، لكنه مزيج بين الطمأنينة والصدمة البالغة. لماذا قطعت أسيا كل هذا الطريق وصولاً إلى هنا؟ كيف لم تدرك خطورة السير وحيدة في طرقات العاصمة، في هذا الوقت المتأخر؟ كان كل سؤال يجر حزمة أخرى من الأسئلة، وكلها لم يحمل أي إجابة.

- هل لديك أي تفسير لما يحدث؟ - سأله الطبيب.

استجمع عمر شجاعته ليجيب بالطريقة التي ستصوره كالأبله:

- لا. لقد كانت تتصرف بغرابة منذ..

قطع حديث عمر دخول ممرضة تجاوزت سنوات الشباب الأولى. أخبرتهم بحماس أن المريضة استعادت وعيها من جديد. نهض الطبيب وتبعه عمر، قبل أن يتأكد حتى ما إذا كانت المريضة المقصودة هي زوجته أسيا أم لا. لم يعترض الطبيب على لحاق عمر بهم، وهذا يؤكد حدسه.

00:34 صباحاً / الوادي الغربي

ليس بالضرورة أن يشتعل الخوف في قلب الإنسان جراء وجود عوامل مسببه له. أحياناً ينبعث الخوف تلقائياً بعد خوض سباق مسافات طويلة، ليخلق بنفسه تلك العوامل الوهمية، والتي بدورها تخلق صورة فعلية للخوف. يدور هذا الشعور بعجلة تصنع خوفاً تكاملياً يعزز كل جانب منه الآخر.

ينام الطفل عادة نوماً ثقيلاً، لا يعكره تغيير الجو حين يفتح باب المنزل، ولم يكن هذا السبب الفعلي لاستيقاظه، كان من المحتمل أن يعزى السبب للأصوات العديدة التي أصدرها والده وهو يخرج. خطوات على الأرضية الخشبية، والباب الرئيسي يفتح، ومن ثم يغلق بقوة، وفي النهاية صوت المحرك الآتي من الخارج، كما لو أن هناك وحشاً قد تجاوز سور الحديقة في هذا الوقت من الليل.

نهض جميل من فراشه، وسار أمام الأضواء المعكوسة على الجدار، والتي كانت تشكل أهلة عديدة، ونجوماً مضيئة على الجدار تنبعث من خلال المصباح الموصول بالجدار. انعكست النجوم على بجامته، لكنه عبر أمام الضوء بسرعة، متجهاً إلى باب حجرته. خرج من حجرته جرياً إلى غرفة والديه، لم تترك أقدامه أي صوت مزعج على الأرضية، لأنه كان يجري بقدمين حافيتين. وصل إلى غرفة

والديه والتي كانت مفتوحة بالفعل. تجاوز الباب ليرى سرير والديه وقد تكوم اللحاف فوقه كجسد كبير مغطى بالكامل. اقترب أكثر فأدرك بأنهما غير موجودين. نظر عبر نافذتهما المرتفعة، والمطلّة على الحديقة، فلم ير سيارة والده تقف تحت ظلال الأشجار. ارتبط صوت الوحش باختفاء السيارة فهذا الصوت منبعث من محركها. شعر الطفل بالخوف فجأة من تحديقه في الظلام، لأنه لا يتوقع ما يمكن أن يظهر له من بين ثنايا العتمة التي كان يراقبها. ابتعد عن النافذة، وأرخى قدميه على الأرضية، ثم تحرك من جديد باتجاه الباب ناويا الخروج من غرفة والديه الخالية.

تحرك عبر الممر الذي كان أحد جانبيه عاريا يحيط به درابزين قصير، ويكشف جزءا من بداية السلم المتصل بالطابق الأرضي. عبر الصبي الممر، وصولا إلى الحجرة المغلقة والتي تنام فيها شقيقته الكبر. دفع الباب دون أن يطرقه حتى، واختفى في ظلام الحجرة وهو ينادي:

- زهرة، استيقظي.

لم تسمع الفتاة نداء الصبي لها في المرة الأولى، لذلك قفز هو على حافة السرير، وزحف قليلا فوق اللحاف إلى أن وصل إلى كتف شقيقته. قبض عليه بيده الصغيرة وهز يده. حثها على الاستيقاظ إلى أن أجابت بصوت ناعس، دون أن تفتح عينيها، أو تستجمع حروفها لتشكل كلمة واحدة مفهومة. فتحت عينيها محاولة الرؤية عبر الظلام، لكنها لم تستكشف مكان شقيقها، إلا من وزنه الضئيل

المجاور لها.

- ماذا هناك يا جميل؟

جذبت زهرة الساعة الإلكترونية المجاورة لرأسها، ورأت التوقيت الحالي، فاندشت لأنها لم تخلد للنوم إلا منذ وقت قصير، وقبل ذلك كان شقيقها قد انسحب للنوم كذلك. أعادت الساعة إلى مكانها، وجرت الحبل الموصول بالمصباح الجانبي لتشعل الضوء.

انكشف وجه شقيقها الناعس أمامه، ولاحظت أن النعاس لم يكن بالقدر الذي يمكن من خلاله تحدي القلق، فالارتباك باد على وجه الطفل. سألته عن سبب استيقاظه في هذا الوقت. فأجاب:

- أمي وأبي ليسا في المنزل، وأنا أشعر بالخوف.

- وما الذي يجعلك تشعر بالخوف، هل لأنهما خارج المنزل. قد يكون هناك ما طرأ عليهما، وأجبرهما على الخروج في هذا الوقت، لكنهما سيعودان بكل تأكيد.

أخفت زهرة دهشتها فالعذر الذي واست به الطفل، كان منطقيا ويقلل من حجم التساؤل الذي ولده رحيل والديها فجأة. نهضت من فراشها بكسل، وجرت الصبي معها للخارج. سارت معه إلى حجرة والديها للتأكد مما قاله، وكانت بالفعل خالية.

- سيارة أبي ليست في الخارج.

أطلت زهرة من النافذة لترى إن كان ما يقوله حقيقيا، فكان الصبي محقا مرة أخرى. رغم أن زهرة تكاد أن تتم ربيعها الرابع العشر، إلا أنها كانت تتصرف بطريقة تجعلها تبدو أكبر بسنوات من عمرها الفعلي. كانت فتاة صبورة وذكية، وأخذت روح الأمومة من والدتها. لم تدللها أسيا كثيرا، لكنها لم تجعلها تشعر بالنقص يوما، ولم تكن بحاجة شيء ولم تجده من قبل. لم تتهور وتتصل على والديها في هذه اللحظة بل فضلت الانتظار حتى يعودا وتفهم هي كل شيء.

- يجب أن تعود إلى فراشك يا جميل، ففي الصباح سنذهب إلى المدرسة.

- أريد أن أنتظر أمي.

لم تتوقف زهرة في مكانها بل خرجت عائدة إلى حجرتها، ولم تسمع ما قاله الصبي. شعر جميل بتجاهل رغبته، ولأنه كان خائفا فقد تنازل عما كان يريده وتبع شقيقته إلى حجرتها. دست زهرة جسدها تحت اللحاف وأبعدت بقعة الضوء المنبعثة من المصباح الجانبي عليها، وعلى جزء من الأرضية والطاولة الجانبية الصغيرة. تبعها شقيقها ودس نفسه بجوارها. لا تستطيع الاعتراض على وجوده الآن، فخوفه حقيقي. وقعت عيناها على كتاب إدغار الان بو المجاور لرأسها والذي لم تنه بعد فأتتها فكرة صغيرة:

- هل تريدني أن أروي لك حكاية ما؟

لم يهو جميل القصص من قبل، وكان أكبر من أن تروي له الحكايات، لكنه لم يعترض فهذا هو الملاذ الوحيد من الهدوء والخوف اللذين يملآن المنزل الآن. فكرت زهرة في كل القصص التي يمكن أن ترويها له، معظمها كانت حكايات طفولية، وبعضها الآخر، كان لا يناسب سن الصبي، ولا سنّها هي أيضاً لأنها كانت تهوى قصص الألفاظ والغموض. تراجعت عن الفكرة فجأة، وقالت له:

- هل تشعر بالجوع؟

هز الصبي رأسه إيجاباً، وتبدد انتظاره للقصة التي كان سيسمعها، لا يريد أن يلقي بنفسه في قصة تبعده عن انتظاره لوالديه. فالقصص بالنسبة له تذكرة مؤقتة تبعده عن الواقع ثم تعيده بعد أن يكون قد خفت بريق انتظاره.

لم تجد زهرة أسهل من إعداد شرائح الخبز المدهونة بالزبدة للصبي، الذي كان يجلس أمام الطاولة منتظراً عودة شقيقته للجلوس بجواره. لم تكن زهرة كبيرة بما يكفي لأن تشعر بمثل هذه المسؤولية، لكنها لم تكن خائفة من تحمل هذا الأمر. لم تفسد أسيا ابنتها الكبرى بالدلال الفائض عن مقداره الطبيعي. بل كانت تعاملها على أنها امرأة تستطيع تحمل مسؤوليات الحياة، ولم تبخل عليها يوماً بأي شيء تحتاجه الفتاة. كانت زهرة تفوق بأفكارها سنّها الطبيعي، وتتصرف كما لو أنها أكبر مما تبدو عليه.

- متى ستعود أُمي؟ - سألها جميل.

- لا أعلم، لكن لا يجب أن تكون قلقاً، لأنهما سيعودان حتماً.

جذب الطفل الطبق الذي تركت عليه شقيقته قطعة الخبز المدهونة. رفعها وبدأ عليه أنه نسي القلق الذي كان يشتعل في رأسه، لكنه في الواقع لم يتخل عن خيالاته المرعبة. كانت زهرة تدهن شريحة خبز أخرى بالزبدة لنفسه هي.

جلسا يتناولان الخبز بهدوء، وكل منهما منشغل بخوفه الخاص. حاولت الفتاة أن لا تخمن سبب عدم وجود والديها في هذه الساعة. كانت والدتها تتحول إلى إنسانة أخرى مختلفة وغريبة في الأشهر القليلة الماضية، وكانت زهرة ووالدها يلتمسان العذر لها، والأسف لا يخلو شعورهما منه. كلاهما يعلم بأن ما مروا به يتطلب هذا التغيير القاسي، لكن والدتها تبتعد عنهم وتغرق في بحر أفكارها المجنونة كل يوم. لم يعترف أي أحد بأن أسيا تصاب بالجنون، وفضلوا أن يبقوا على احترامهم لصورة والدتهم وأن لا يجعلوها تتغير في نظرهم. الواقع لم يرحم أسيا، ولا يحاول الحفاظ على شكلها القديم، بل كان يجرها إلى الأوهام والجنون يوماً بعد آخر. أما في زاوية أخرى، فكان الحزن هو الجراد الأقسى، والذي لم يرحمهم جميعاً.

01:02 صباحاً / مستشفى العاصمة

نحن نستسلم للنوم، بكل غموضه في نهاية كل رحلة. لا نتساءل كيف ستكون البداية من جديد. أين سنستيقظ؟ نرخي كل الواقع على نقطة النهاية تلك، متوقعين أن تقف الحياة كلها عند ذلك البعد، لكن الواقع الذي نراه نحن هو ما يقف فقط. في الوقت الذي نكتفي نحن من الحياة فيه، تستأنف هي سيرها دون أي اكتراث بنا، تمضي حاملة أحلامنا معها. لذلك ليس من الغريب، أن تستيقظ في ركن جديد لا تتوقعه.

بالنسبة لأسيا، لم تقف الحياة في اللحظة التي توقفت هي عندها. لا تتذكر كيف بدأت استراحتها من الحياة، لكنها استيقظت هنا في المستشفى على هذا السرير البارد. وللمرة الثانية في وقت مختلف، تفتح عينيها من جديد، وتجد أنها عادت إلى نقطة الصفر التي وضعها أحدهم فيها. لا تتذكر أنها حاولت الهروب من المستشفى، أو أن تلك الذاكرة كانت تنتظر في صف الأمور المبهمة في خيالها. استيقظت وهي لا تكاد تتذكر اسمها. فتحت عينيها على طول أنفاس مخنوقة. صوت حاد يتحرك ببطء انخفاضا ثم ارتفاعا. كان الصوت يجاري أنفاسها، فأيقنت أنه صوت جهاز التنفس المعلق بجوار سريرها. عندما فتحت عينيها رأت وجها يخلو من أي تعبير يوحي

بميل صاحبه لأي جانب من المشاعر. بدا أنه يترقبها هي فقط.

- سيدة أسيا، ها أنتِ تستيقظين!

هل كان يتوقع أو يرغب أن لا تفعل؟ فكرت في ذلك بسخرية رغم كسل أفكارها. حاولت أن تستجمع تركيزا وتطلب الأمر منها بضع ثوان لأن يصبح وجهه واضحا أمامها.

- من أنت؟

- أنا من الشرطة، اسمي المحقق سليم، وأتيت لأستفسر عن أمر الحادثة التي تعرضت لها. انتظرنا هنا طويلاً، وأرجو الآن، أن لا أكون سببا لقلقك، لكن هذا يجب أن ينتهي.

هزت رأسها بتفهم. فطلب منها:

- أخبريني الآن، ما الذي حدث؟ ماذا تتذكرين؟

- هل أتى عمر؟

قاطعته أسيا بسؤالها، ظهرت الخيبة على وجه المحقق، لكنه أخبرها بأن زوجها موجود، دون أن يتأكد ما إذا كان هو عمر أم لا. ابتلعت أسيا ريقها بصعوبة، وحاولت أن تتذكر سؤاله من جديد، ثم أجابت:

- لا أتذكر أي شيء. هذا اليوم هو ذكرى ميلاد ابنتي حبيبة. ولا يحمل أي تفاصيل مختلفة عن ما نقوم به كل عام. كنا جميعاً في المنزل و..

- ألم تخرجي في نهاية اليوم؟

- لا.

أجابت أسيا بسرعة وثقة، جعلت الرجل يشك في قدرتها رغم كل الضباب المحيط بأفكارها، أن تتذكر ذلك بهذه الطريقة. كانت أسيا بالفعل لا تتذكر اللحظات الأخيرة من يومها بوضوح. حاولت أن تعيد ترتيب كل التفاصيل، وكان هذا أمراً صعباً ويشتت أفكارها أكثر. أعادت تلك المحاولات ألم الجرح في رأسها، وكان هذا الألم مرفقاً بالصداع.

- كل ما أتذكره هو.. أننا خلدنا للنوم، هذا ما أعتقده.

- تعتقدين؟!

قالت باستسلام:

- لا أتذكر، لا أستطيع أن أتذكر أي شيء حدث في الليلة الماضية.

صمت سليم لوهلة، وبدأ صمته كمحاولة لتصديق ما تقوله هي. راقبته وهو يحرك فكه دون أن يظهر أي تعاطف، أو حتى اعتراض عليها. دام الصمت مدة قصيرة، لكنه بتعاونه مع القلق بدا لأسيا طويلاً جداً. سألتها الرجل القصير وهو يتحرك بعيداً عن سريرها:

- لماذا حاولت الهرب من المستشفى؟

تذكرت أسيا هروبها الفاشل من المستشفى، وحاولت أن تجد طريقة مناسبة لا تثير الشك، لتخبره بأنها كانت تشعر بالخوف فقط، لأن الطبيب شكك في صحة بياناتها.

- شعرت بالخوف، أردت عائلتي. هذا كل شيء.

هز سليم رأسها مدعيًا أنه يتفهم الأمر. انتهت أسئلته، فتركها لترتاح. راقبته وهو يبتعد باتجاه الباب ثم يخرج، دون أن يلقي عليها بنظرة أخيرة. لم يبق معها أحد يمكنها أن تطلب منه أن يسمح لزوجها بالدخول. راقبت السقف الخالي، وفكرت أخيراً في أن تواجه نفسها بالسؤال: لماذا أنا هنا؟

إنها لا تتذكر التفاصيل الأخيرة بالفعل.

بدأت أسيا في عيني عمر أكثر نضارة مما كانت تبدو عليه في الأيام

الأخيرة، حتى وهي راقدة على ذلك السرير ورأسها محاط بلفافة تغطي الجرح الموجود في الجزء الخلفي منه. راقبته ولم يبدر منها أي تعبير، بدت كما لو أنها تحاول التعرف عليه. شك في أنها نسيتها هو أيضاً. فيما هي بدت أكثر شباباً، بدا لها هو أكبر من سنه المعتاد، بل إن الحزن كان ينبض من وجهه قبل أن يتحدث. هل سبب له قلقه عليها كل ذلك؟ فكرت أسيا وهي تراقب زوجها بوجهه الشاحب الأكثر حولاً من المعتاد يقترب.

بينما كان عمر ينظر إلى عينيها الفارغتين من أي إدراك، أراد أن يسألها بكل ما يحمله من عصبية عن سبب غيابها، ولماذا عادت الآن وهي أكثر حزناً مما كانت تبدو عليه قبل خروجها من المنزل؟ فكر في أنها كنت تخونه، لكنه طرد تلك الفكرة بسرعة وسألها:

- أسيا.. هل أنت أفضل الآن؟

لم تجد إجابة على سؤالها بل كانت تراقب وجهه، وتحاول أن تستكشف الاختلاف فيه، لكنها عجزت عن تحديد أي جزء من ملامحه قد تغير. ليلة واحدة غيرته بهذه الطريقة، جعلته أكبر سناً، أكثر شحوباً، والحزن مطبوع على محياه؟

- لحيتك!- خرج التعليق من فمها بطريقة ساخرة، لكنها كانت تسأله بجدية.

عقد حاجبيه وهو يحاول تفسير ما كانت تقوله له. رفع يده ولمس

بباطن كفه وجنته.

- ماذا؟ - سألها

- في المساء حلقت ذقنك، والآن هو.. كثيف.

هناك خلل ما في عقل أسيا، وهي تعلم هذا والدليل على ذلك كل المعطيات الخاطئة التي أدلت بها للطبيب، وكل الأشياء التي لا تتذكرها. لكنها الآن تتذكر معظم التفاصيل الأولى للأمس. لا يمكن له أن يحلق لحيته، وتنبت بهذه الطريقة في ساعات فقط.

لم يقم عمر بما قالته له أسيا، وفكر في أنها لفقت هذا الموقف، وتخيلته والآن هاهي تصدقه. كانت زوجته تتصرف بغرابة طوال الأشهر الأخيرة، لكنها لم تختلق يوما ذكريات لا وجود لها من الأساس. لم تتحمل أسيا كل الغرابة الموجودة فسألته:

- ما هو تاريخ اليوم؟

- الحادي عشر من سبتمبر. - أجاب زوجها.

- وفي أي عام؟

تردد عمر قبل أن يستسلم ويجيب:

سألت أسيا نفسها: ما الخلل إذا؟ لم يكن لهذا السؤال أي صوت، بل إنها استسلمت للواقع بغموضه، وتركت الوقت هو من يقوم بهذه المهمة، لأنها لا تحمل أي إجابة. جر عمر الكرسي البعيد، وثبته بجوار سريرها ثم جلس بالقرب منها.

- متى تركت المنزل؟ ولماذا أنت في العاصمة؟ ما الذي حدث؟

سألها ولم ينتظر أي إجابة بل كان يراقب ملامحها، عيناها اللتان اختفتا هالات الحزن والسهر من عليها، شعرها الأشعث، كل التفاصيل التي توحى بأنها تملك جانبا آخر تخفيه عنه. سألها بغضب مكتوم:

- مع من كنت؟

نظرت أسيا إليه بإجفال، وشعرت لوهلة بأن هذا الشخص الفارغ الشاحب غريب عنها، وليس زوجها. إنه لا يصدقها.. بل لا يثق بها.

- ما الذي تعنيه بهذا؟ - سألتها أسيا بغضب، ثم انكسر صوتها - أنت لا تصدقني! أنا لا أتذكر أي شيء مما حدث. لا شيء صدقني.

- ولكن..

شعر عمر بعجز زوجته. هي بالفعل لا تتذكر أي شيء، بل إنها تبدو

محطمة وهو يمثل طوق النجاة بالنسبة إليها. لم يضغط عليها بل أحاط بكفيه يدها القريبة منه، وطلب منها أن تهدأ، وأخبرها بأن كل شيء سيكون بخير.

02:47 صباحاً

ارتدت أسيا ثيابها التي اختارها عمر لها، ولم تكن قد رأت هذه الثياب من قبل، لكن ذلك لم يعر أي تساؤلات بالنسبة إليها. كانت مستسلمة أمام كل الأشياء التي لا تدرك معناها. خرجت من دورة المياه، ورمت الرداء الأزرق على الطاولة. أشارت لزوجها بأنها أصبحت مستعدة للرحيل الآن. تحرك عمر قبلها، وفتح لها باب الحجرة، حتى تعبر أمامه. هذه المرة سارت أسيا في أروقة المستشفى دون أن تخشى من الممرضين، لن يعترض أحد طريقها، ولن ينكر أحد وجود عائلتها. كل شيء بالنسبة إليها الآن حقيقي، عمر موجود، ومنزلها كذلك. أرادت أن ترى الطبيب مرة أخرى لتخبره بأنها ليست كاذبة، لكنه لم يظهر أمامها مرة أخرى.

عندما خرجت من المستشفى، ورغم أن الظلام كان يلف السماء، ويحجب حتى النجوم فيها، إلا أن أسيا شعرت بنوع غريب من الحرية. انطلقت مع عمر بحثاً عن سيارتهم في المرآب. تبعت عمر لأنه هو من ركن السيارة، وهو فقط من يعرف مكانها. عندما وصلوا إلى صف السيارات القليلة ضغط عمر على أزرار مفتاح الزيارة،

فومضت مصابيح سيارة سوداء صغيرة، كانت تقف وحيدة دون أن تجاورها أي مركبة أخرى.

- أي سيارتك؟

سألته أسيا وهي تتبعه إلى السيارة السوداء الصغيرة. أشار عمر إلى السيارة دون أن يلتفت إليها، ولم يفهم بأنه تقصد أين سيارتك الأساسية؟ لا تعلم أسيا من أعطى عمر هذه السيارة السوداء الصغيرة، ولماذا لم يأت بسيارتهم الرمادية الحديثة.

- سيارة من هذه؟ ما الذي حدث بسيارتنا؟

لم يتجاوب عمر معها، وبدا أنه لم يسمع السؤال حتى، لأنه انزلق تحت إطار الباب وجلس خلف المقود. فتحت هي الباب ولم يكن معها أي متاع، لا محفظة، ولا حقيبة أو هاتف حتى. جلست بجواره، ولم تعترض على رغبته بالبقاء صامتاً. انتقلت عيناها في زوايا السيارة كأنها تتعرف عليها.

قاد عمر سيارته عبر الطرقات الخالية في هذه الساعة المتأخرة، وكان الصمت مرافقاً لرحلة العودة إلى المنزل. لم تحدث أسيا أي جلبة لأنها لا تملك الطاقة حتى على خوض أي حديث. أرخت كرسيها، وأغلقت عينيها محاولة تناسي ألم جرحها.

قاد عمر سيارته في قلب العاصمة، متجاوزاً الأبراج التي اختفى

تلاً أنوارها لأنه لا يستطيع رؤية واجهاتها عند هذه المسافة القريبة.
راقب زوجته التي أثنت يديها حول نفسها، وغرقت في سكون تام.
تركها عمر تأخذ قسطاً من الراحة حتى ينتهي هذا المشوار. كلما
ابتعد عن العاصمة فكر في الطريقة التي قطعت بها زوجته كل هذه
المسافة.

لا يزال الألم ينبض في رأس أسيا التي كانت تسبح في بحر أسود،
تارة يبتلعها، وتارة أخرى تطفو وتعيدها حركة السيارة إلى الواقع،
لكنها لم تفتح عينيها وترى العالم المحيط بها. كانت لا تزال تسمع
أصوات الهاتف، وترى بقايا ذكرى البارح. بدت الذكرى حديثة جداً
متوهجة، الكل يغني لحبيبة ويحتفل بذكرى ميلادها العاشر.

استيقظت أسيا من جديد، فوجدت أن بريق أعمدة الإنارة قد
اختفى، وعتمة غريبة حطت على الطريق. كانت الأشجار الكبيرة
تحجب مناظر المدينة على جانبي الطريق. تلفتت حولها، ولم يفهم
عمر سبب اندهاشها هكذا، هل كان كابوساً راودها؟

- أين نحن؟ - سألته

- نتجه إلى المنزل. - قال عمر وهو يشير بطرف كفه نحو الطريق
أمامها.

نقل زوجها بصره بينها وبين الطرق ملقياً على كل منهما نظرات
خاطفة. نظرت أسيا عبر النافذة التي لا تظهر إلا العتمة وظلال

الأشجار التي يمرون أمامها بسرعة، وبعض من ضوء المصباح
الأمامي الذي ينير الطريق.

- إننا نبتعد عن المنزل يا عمر، إلي أين أنت ذاهب.

- الوادي الغربي يا أسيا، حيث يقع منزلنا.

قفزت في مكانها، وواجهت عمر، ثم سألته بهدوء:

- منزل أبي؟ هل نحن نتجه إلى منزل أبي؟ هل الجميع بخير يا
عمر؟

رمقها عمر بنظرات استغراب. لكنه لم يعرف أين هو الخل لكى يبدأ
منه. ما الذي تعنيه بمنزل والدها؟ إنه منزلهم، وهم يعيشون فيه منذ
عام تقريباً.

- ما الأمر يا أسيا؟ نحن بخير، ومنزلنا يقع هناك. أنت من لا يبدو
بأنه على ما يرام. استرخي حتى نصل إلى المنزل.

- منزلنا ليس هناك، بل إنه..

تلعمت أسيا، وأشارت للخلف، وكانت تقصد بإشارتها العاصمة.
شعرت بالغضب لأنه لا يتوقف، ويمضي في ابتعاده عن المنزل أكثر.
فكرت أسيا في الأطفال، وأرادت رؤيتهم أكثر من أي شيء آخر في

الحياة. مدت يدها لتقبض على يده التي كان يحرك بها المقود.

- عمر، توقف. عد إلى المنزل.

صرخ في زوجها وهو يدفع يدها:

- يكفي.. هذا يكفي. سأموت من كل هذه الترهات يا أسيا. منزلنا هناك، والأطفال هناك. والآن اجلسي بهدوء حتى نصل، هل هذا مفهوم؟

أخافتها نبرة عمر الغاضبة، وهو لم يكن انفعاليا من قبل أبداً. بدت أسيا كأنها طفل يستسلم لرغبات الآخرين حتى يرضي خوفه فقط. تكورت حول نفسها، وجلست بهدوء في مقعدها وتركت تيار الأحداث الغريبة يجرفها إلى النقطة التي ستصل إليها فيما بعد. راقبت عمر بطرف عينيها، وللمرة العاشرة فكرت في أن هذا الشخص البائس الغاضب، والحزين ليس هو من كان معها طوال كل السنوات الماضية. أصيب عمر بكبوات عديدة في حياتها، وأيا منها لم تجعل منه شخصا مستسلما كما يبدو من خلال عينيهِ الآن.

هذا الشخص غريب، ويجرها بعيداً عن عالمها.

الإنسان غير موعود بالسعادة في هذه الحياة، لأنها ليست شعورا

دائماً، ولا يوجد أي شعور آخر دائم في الحياة. كل شيء يعبر فيه الإنسان هو أمر مرحلي، حتى أسوأ الأمراض تعد مرحلة مؤقتة، إما تنتهي بالشفاء، أو الموت. الحزن لا يدوم والفرح أيضاً لا يبقى للأبد. لذلك على المرء أن لا يتعامل مع الأشياء كما لو أنه يتعهد على أن يبقى عليها، لأنها قد تزول من حياته دون أن تأبه بما يخطط هو له.

ركن عمر سيارته بالقرب من درج الشرفة المؤدي إلى مدخل المنزل. راقبت أسيا منزل والدها وقد بدا موحشاً أكثر من كل الأوقات التي كانت تراه فيها. لم تكن تزور والدها في المنزل بشكل مستمر، ولكن لم يحدث أن انقطعت عنه مدة طويلة، وإن لم تكن هي من يقدم على زيارته، فكان هو من يزورها برفقة والدها في منزلها. كان الأب مولعاً بأحفاده، وكذلك كانت أمها.

يعيش والداها في هذا المنزل البعيد، لأنه يتيح الفرصة لكل منهما أن ينجز أعماله بطريقة ملائمة، فوالدها باحث علمي، وكان يلقي محاضرات على طلاب الجامعة في السنوات الأخيرة، قبل أن يتقاعد، ويكتفي بأبحاثه العلمية التي يجريها في مختبره الخاص في قبو المنزل. أما والدها فهي روائية، تكتب باستمرار دون انقطاع طوال العقود الثلاثة الأخيرة.

توقفت السيارة أمام منزل والد أسيا، لكن أحداً لم ينتظرها أمام الباب الذي تلاشت الأنوار عنه. اعتادت أسيا أن ترى المنزل محاطاً بالبهجة في كل المرات التي زارت فيها منزل والدها، عزت الأمر إلى كون أن الوقت قد تأخر، وكل البلدة غارقة في عتمة وصمت في هذه

اللحظة. هل كان من المفترض بوالديها أن يستقبلاها، فهم بكل تأكيد قلقان عليها، أما الأطفال فهم بكل تأكيد نائمون في هذه اللحظة. لكن كل تلك الأفكار لم يكن لها أي ترابط بالواقع، ولم تجد بجوارها سوى زوجها. أرادت أن تسأله لماذا هم في منزل والديها، ما الأمر الخطير الذي جعلهم ينتقلون إلى هنا؟ ماذا حدث لها قبل ساعات وأتى بكل هذا التحول السريع؟

ترجلت من السيارة، وانتظرت زوجها أن يأتي ويسايرها إلى الداخل، لأنها لم تكن متوازنة تماماً. قادها إلى طرف الشرفة الأمامية، ثم استطاعت هي أن تتسلق العتبات القصيرة وحدها. دفع باب المنزل وسمح لها بالدخول قبله. كانت آخر مرة زارت فيها منزل والديها قبل شهر ونصف، ورغم أن الظلام كان يغطي المكان، أدركت بأن المنزل قد طرأ عليه بعض التغيير في هذه الأسابيع القليلة. أصبح باهتا نوعاً ما، وقطع الأثاث الموجودة مختلفة وأقل رقي من تلك الموجودة في السابق. لم تخبرها والدتها بأنها ستجري هذه التغييرات، لم تكن لتهتم كثيراً للأمر لو أخبرتها، لكنها اندهشت لأن ما تراه لا يشبه ذوق والدتها، بل إنه متدن قليلاً عما اعتادت عليه أسياً.

لم تعلق بل سارت إلى الداخل تحت ظلام المكان، وعندما أغلق عمر الباب التفتت إليه وهمست:

- لا بد من أنهم نائمون الآن.

- من المفترض أن يذهبوا للمدرسة صباحاً.

لوهلة شعرت أسيا بعدم الأمان رغم أنها مع والد أطفالها وشريك حياتها لسنوات طويلة، لكنها ما أن وصلت إلى منزل والديها حتى تلاشى كل هذا القلق فهي في مكان تنتمي إليه وعاشت كجزء منه طوال حياتها. إنهم عائلتها والديها، زوجها، وأطفالها، ورغم أنها لا تفهم سبب وجودها هنا، إلا أنها لا تشعر بالقلق لتأخر الإجابات.

تبعث عمر إلى الطابق العلوي فهي لا تعلم في أي حجرة كانوا يمكثون. سبقها هو ببضع خطوات، دون أن يعلم بأنها تائهة ولا تعرف وجهتها التالية. فكرت في أطفالها الثلاث، وكيف تتمحور حياتها حولهم جميعاً. أنجبت أولاً زهرة وهي الآن ستتم الرابعة عشرة، وبعد أقل من أربعة أعوام أنجبت حبيبة التي أتمت بالأمس عامها العاشر، وبعد حبيبة بعامين أتى جميل الصبي الوحيد في العائلة. لكل منهم طريقته الخاصة في سرقة مشاعرها، فزهرة هي الابنة الأكبر، وهي صديقة أسيا أيضاً، كانت تعتمد عليها عندما تشعر بأنها تفقد السيطرة في التحكم بالطفلين الآخرين. أما حبيبة فهي المعنى الحقيقي للبهجة في العائلة، حيث إنها الفتاة الأصغر، والتي تتفرد بدورها في العائلة. كانت ولادتها صعبة، وعندما أتت أثبتت بأنها ثمرة العائلة، لأنها كانت مرحلة على الدوام، وطفلة محبوبة من جميع أفراد العائلة، كما أنها كانت شديدة التعلق بوالدتها مما جعل والدتها تشعر بالشعور ذاته تجاهها. فيما كانت زهرة وجميل متعلقين بوالدهما. كان جميل الصبي الوحيد في العائلة والأصغر سناً، لذلك كان يتلقى نوعاً آخر من الدلال والاهتمام غير موجودين عند أي من أختيه.

راقب أسيا عمر وهو يتجه إلى غرفة والديها، وأرادت أن تستوقفه، وتسأله عن سبب ذهابه إليهما في هذه الساعة، فهما بكل تأكيد نائمان. لكنها وجدت أن باب حجرتهما مفتوح، لذلك تركته يكمل سيره، ويتأكد بدلاً منها عن مكان والديها، ولماذا كان باب حجرتهما مفتوحاً. في الوقت ذاته استدارت هي، إلى الجانب الآخر من المنزل حيث كانت الغرفة الأخرى الأصغر حجماً تتجاور. أرادت أن تتفقد أطفالها وهم نائمون حتى تشعر ببعض الراحة التي فقدتها في الساعات الأخيرة.

لم تكن كاذبة، فكرت في ذلك الطبيب، وشعرت بأنه غبي لأنه لم يعرف بأنها تخبره الحقيقة. لم تعطه المعطيات الخاطئة. لكن من هي تلك المرأة التي أجابت على هاتف منزلها؟ لماذا هناك امرأة أخرى في منزلها، و لا تعرف بأن عمر هو صاحب المنزل؟ كيف تجرؤ على الإدعاء بأنه منزلهم منذ سنوات؟ ستجد أسيا حلاً لهذا اللبس قريباً.

دفعت الباب الأول، فوجد بأن الحجرة التي كانت خالية من قبل تحتوي على سرير يكفي فرداً واحداً، وبعض الصور الطفولية ملصقة على الجدار، ومصباح يعكس نجومًا وأقماراً على الجدار. كان السرير غير المرتب خالياً، ولا أحد ينام فيه. ألقت نظرة أعمق إلى الحجرة بعد أن أشعلت الضوء فيها، فرأت صورة جميل ابنها موضوعة على طاولة السرير الجانبية. تساءلت في نفسها: من ينام هنا؟ لماذا يضع صورة ابنها بجواره؟ إنها ابنة وحيدة وهي تعرف بأن هذا المنزل لا يضم سوى والديها. غرفة من هذه؟

أغلقت الباب، وتوجهت إلى الباب التالي، دفعته برفق ولم تستغرب من كون الظلام يحيط بالحجرة هذه أيضاً. لكن المصباح الجانبي المجاور للسرير مكنها من رؤية زهرة نائمة وبين ذراعيها يرقد جميل. تقدمت بخطى حذرة، وأطفأت ضوء المصباح الجانبي الذي كان يلقي بنوره على وجهيهما.

خرجت من الغرفة وأغلقت الباب خلفها برفق حتى لا تزعجهما. توجهت إلى الباب المقابل، ودفعته برفق فوجدت أن الحجرة مضيئة، وبها قطع أثاث زهرية متفرقة. كان اللحاف مرتباً فوق السرير. وبدا أن نافذة الحجرة لم تفتح منذ وقت الطويل، لأن المكان كان رطباً ومليئاً برائحة الغبار، المندفعة من أرضيتها الخشبية المغطاة بالغبار. تركت الباب مفتوحاً وعادت أدراجها حيث تركت عمر. إن كان عمر قد ترك فراشه وذهب ليرقد بجوار زهرة، فلا بد من أن الحجرة الأخيرة هي حجرة حبيبة. فسرت أسياً الأمر على أن حبيبة لم ترقد في فراشها، وهي برفقة جدها وجدتها، وهذا ما جعل باب حجرة والديها مفتوحاً. سارت إلى حجرة والديها وتوقعت أن تجد عمر وحبيبة ووالديها هنا. وجدت عمر ينتظرها أمام الباب ويقطع عليها طريق الدخول دون قصد منه.

- أين ذهبت؟ - سألها عمر.

- كنت أتفقد الأطفال.

قالت أسياً ذلك وهي تحاول أن ترمي بصرها فوق كتفه إلى داخل

حجرة أمها وأبيها.

- لم أجد حبيبة، هل هي مع أبي؟

كان والدها شديد التعلق بحفيدته، وهي تتذكر معظم الأوقات التي كان يقضيها والدها مع حبيبة، كان يفضلها هي من بين الأحفاد الثلاث. رمقها عمر بنظرة خالية من أي روح، نظرة باردة لا تعبر عن أي شيء بدا في عينيه كما لو أن الوقت توقف عن الحركة وهو لم يعد سوى تمثال تقف هي أمام وجهة عينيه.

- عمر؟ هل حبيبة مع أمي وأبي؟

أرادت أسيا أن تتجاوزته، لكنه لم يتحرك من مكانه ولم يسمح لها بالدخول. طلبت منه أن يبتعد عن طريقها، لكنه لم يتفاعل معها، لم يكن هذا بداعي العناد، أو الرفض، لكنه كان تحت تأثير الصدمة. نادى أسيا من فوق كتفه:

- أمي. لكن أحداً لم يجيب.

دفعت جسد عمر، ودخلت إلى الحجرة، فوجدتها خالية. التفتت إليه فجأة وقالت:

- عمر ما الأمر؟ أين أمي وأبي؟ أين هي حبيبة؟

رأت أسيا عينه اليمنى تغلق في دموع تكومت في محجر عينه، وبعد أن أصبحت الدمعة كثيفة هبطت فجأة على الأرض، وتركت بقعة صغير داكنة على الأرضية الخشبية. تقدمت أسيا وأحاطت وجه زوجها بكفيها، كانت أصابعها متفرقة تحيط بوجهه كله، وتمسح الأثر القليل الباقي من الدمعة التي هبطت. ارتجف وجهها وصوتها كذلك عندما سألته:

- ما الأمر يا عزيزي؟ ماذا بك؟

- أسيا، ألا تتذكرين؟

بدأ رأسها بالميلان، ولكنها لم تبعد عينيها عن وجهها. ارتخى كفها، وهبطت ذراعها ببطء. تراجعت خطوة للوراء. وهي تكرر سؤالها عن مكان حبيبة.

- أسيا توقف عن هذا الآن.

- أتوقف عن ماذا؟ لماذا لا تتكلم وتخبرني كل شيء فقط. أين هي حبيبة؟

همس عمر وقد سقطت دمعة أخرى من عينه:

- كفى جنونا.

بدت الحيرة في وجه زوجته. غرقت عينا أسيا بدموع العجز. شعرت بالحيرة وهي تكرر أسئلتها بإصرار. لم تكن خائفة بقدر ما كان العجز عن نيل الإجابة هو ما يرهقها. أرادت أن تعرف قبل أن تستسلم لسقوط كل العالم حولها.

- أنتِ حقاً لا تتذكرين كل ما حدث؟

- وما الذي حدث؟

خرجت أسيا من حجرة والديها وسارت عبر الممر، وهي تسأله:

- في أي حجرة تركت حبيبة، لا أجدها في أي مكان، وأنت لا تخبرني بأي شيء. أين هي ابنتي؟ تكلم الآن.

سار عمر وراءها، وأحاطها بذراعيه، لكنه لم يتمكن من أن يخفي صوتها الغاضب، والذي كان ينتشر بحرية في كل أرجاء الطابق العلوي.

- لقد ماتت ابنتنا.

أطبق الصمت على الممر شبه المعتم، ورغم تسلس ضوء ضئيل، إلا أن رؤية أسيا أصبحت أكثر عتمة، اختفى وجه عمر من أمامها. شعرت بأنها خارج الزمن، لا أصوات، ولا أي مشاعر، حتى الذكريات التي كانت تتحرك باستمرار في ذهنها قد تلاشت تماماً.

- ماذا؟ - خرج السؤال سريع، لا يكاد يغلفه صوتها.

استجمع عمر قواه وهو يخبرها، كما لو أنها تعرف بالأمر للمرة الأولى:

- حبيبة ميتة منذ سبعة أشهر.

فكرت أسيا في أن هذه مزحة خطيرة مبالغ بحجمها، لا يمكن أن يكون الأمر حقيقيا ففي ذاكرتها لا يزال صوت الهاتف حديثا. كانت لا تزال ترى لمحات من احتفالهم البارحة بعيد ميلاد ابنتها العاشر. راقبت عيني زوجها بعد أن ألقى بهذا الاعتراف.

- كاذب، كنا بالأمس فقط نحتفل بعيد ميلادها، في منزلنا. لماذا نحن هنا؟ دعنا نرحل.. دعنا - اختنق صوتها فجأة، وما عادت قادرة على دفعه من حنجرتها. ابتلعت ريقها، وقالت - لنعد لمنزلنا هيا، هيا. لا يجب أن نكون هنا يا عمر، هذا ليس منزلنا أساسا.

- من المفترض أن تتم العشرة أعوام بالأمس، لكنها ليست هنا الآن يا أسيا..

تداعت قوة عمر، واستسلم لارتعاش جسده، كما لو أن تلك الصدمة تمر عليه هو للمرة الأولى. كانت زوجته تتصرف بغرابة منذ وفاة حبيبة، لكن لم يصل الأمر يوماً إلى هذا الحد من الجنون.

- أنت كاذب. صرخت أسيا - أبي.. أمي، أين هما؟

- توقف يا أسيا.

رأت أسيا عينييه الحزینتین، ولمست الصدق فیهن. اختلط فی قلبها الحزن مع الصدمة فولد الغضب. تقدمت بخطى سريعة وضربت صدر زوجها بكفيها:

- أنت كاذب.. كاذب. أريد حبيبة، أحضرها لي، هي ليست ميتة.

احتضنها عمر وأحاط بيديه جسدها بقوة مما منعها من الهجوم عليه. أرخت أسيا وزنها كله عليه، فسقط كلاهما على الأرض في وسط الممر. حاول عمر النهوض لكنه عجز. لا تزال أسيا بين يديه، شدها إليه بقوة وأدرك بأنها لا تزال تحت تأثير الصدمة، بدت تماماً كما تلقت الخبر في أول مرة. لم يكن يشعر بأنه يبكي معها، لكن جسديهما كانا يهتزان بسبب البكاء معاً في وسط الممر.

رفعت أسيا عينيها ومن بين غشاوة الدموع رأت الظل الصغير يقف قبالتها. حاولت النهوض لكنها زحفت باتجاه الظل، ورأت زهرة تراقبهم وعيناها مليئة بالرعب.

- متى عدتما؟ ما الأمر يا أمي؟

أشارت أسيا إلى عمر بيدها وهو جالس على الأرض على بعد مسافة قصيرة جداً عنها، وقالت مستنجدة بابنتها الواقفة أمامها:

- إنه يكذب، يقول بان حبيبة ميتة.

اتكأت أسيا على ركبتها وأصبحت قريبة من طول زهرة، لكن الفتاة كانت أطول قليلاً. أحاطت كتفي ابنتها وهزتها وهي تسألها:

- أين هي حبيبة؟

بكت الطفلة وهي تحاول أن تبعد نفسها من قبضة والدتها.

- أنت تخيفيني يا أمي.

جرها عمر بعيداً عن الفتاة حتى يوقف الرعب الذي عاشت به الطفلة للحظات. صرخت أسيا أمام وجه الفتاة ونادت والديها، وكررت سؤالها عن مكان أسيا. ابتعدت زهرة حتى التصق جسدها بالجدار، وقالت:

- إنها ميتة.

بالأمس فقط

إن النوم هو عزائي، لكنه جدد اللقاء!

إن كنت أراك في نومي، وفي أفكاري تزورني حين أصحو،

فأين المخرج من هذا؟ ماذا تركت لي؟

أين هي الحلول الاحتياطية؟

وما لي بالذي تركته إن لم يكن خلاصي

بين طيات ذكرى الراحلين؟

الأربعاء.

11 سبتمبر/ 2019

08:11 صباحاً / مركز المدينة التأهيلي

اخترق نور الصباح الواجهة الأمامية للمركز التأهيلي، وعلى الطرف الخارجي الحاد، عكس وهج بدا كالشعلة الصغير في طرف المبنى، الذي عج بالحركة بطريقة مفاجئة، ثم عاد إلى الركود بعد ساعة من بداية الوردية الصباحية. ورغم أن ساعات مضت منذ أن اصطحبها عمر بعيداً عن المنزل، تاركة طفلها مع شقيقة عمر. سرقته الصدمة بعيداً، ورغم أنها لم تفقد الوعي، إلا أنها كانت في حالة عدم تجاوب مع الواقع.

وصل الطبيب الذي لجأت إليه بعد موت ابنتها بشهرين، وهو طبيب يعمل بساعات إضافية خارج المستشفى ويدعى ليث، كان الطبيب يحاول في الأسابيع الماضية امتصاص صدمة وحزن أسيا بعد موت ابنتها، ولكنها في الشهر الأخير اختفت فجأة وها هي تأتي في ساعات عمله الأساسي بحدث جديد غير متوقع.

- أسيا، إنه أنا.. ليث. لقد حاولنا تجاوز هذا مسبقاً. أعلم بأن جراح

الوقت العميقة لا يمحوها شيء، ولكننا حاولنا على الأقل أن نجد طريقة للتكيف مع هذا الجرح. هل تتذكرين عندما أخبرتك بأن الإنسان يعيش بعين واحدة، ويرى من خلالها؟

انزلقت دموع أسيا من عينيها على جانبيها دون أن تلمس وجنتيها هذه المرة، لأنها كانت مستلقية على ظهرها، تحقق في السقف الذي بسطت الشمس ضوءها عليه. لم يكن عمر بجوارها الآن، لأنه اختفى في دهاليز المستشفى، وتركها لمن هم أكثر خبرة منه في مثل هذه الحالة. أدارت أسيا وجهها نحو الطبيب، وكانت عياها تتعرفان عليه للمرة الأولى، فيما هو اعتادت عيناه على وجهها، لأنه قضى ساعات عديدة يتحدث إليها.

- أنا لا أعرفك.

- لكنني أعرفك، وأعرف عمر. أخبرتني عن عائلتك كثيراً. قلت لي كم كانت ولادة حبيبة عسيرة، وكادت أن تودي بحياتك. أخبرتني بأن عمر كان المنعطف الصحيح في حياتك. قلت لي بأنك لا تتخيلين أطفالاً آخرين يأتون بعد جميل، وكم رغبت في أن يبقى طفلاً ولا يكبر.

تنهدت أسيا، واستسلمت لنوبة بكاء صامت، ثم حاولت أن تقول بصعوبة:

- أنا لم أقل ذلك لك من قبل.. عمر فقط من يعرف. لا أعرفك، ولم

نلتق من قبل.

- أتفهم يا أسيا نوع الصدمات المشابهة لما تمرين به، لكنني أخشى من أنها لن تكون من اختصاصي، وأن علاجها بالنسبة لي أمر صعب. تلك الضربة قد تكون هي ما تسبب لك بالأذى. لكنني على الأقل لا أكذب. لقد تحدثنا مطولاً عن أشياء عديدة.

تراجع الطبيب خطوة للوراء، لكن أسيا استوقفته، وأرادت أن تستنجد به، وإن كانت لا تعرفه، أو لا تتذكره كما يدعي هو. تقدم الطبيب من جديد ليمحو المسافة التي أنشأها تراجعها.

- أنا، لم أنس أية تفاصيل، ولست مجنونة. لم أفقد ذاكرتي، ولكن كل ما أتذكره لا يشبه ما تدعونه. ليست الضربة هي ما تسبب لي كل ما أمر به الآن، بل من ضربني هو من تسبب بذلك. لا أعلم كيف تمكنا أنا وأنت من معرفة بعضنا الآخر، لكنني أؤكد لك بأنني أراك الآن للمرة الأولى في حياتي.

هز الطبيب رأسه بتفهم. كان ليث يجاريها كالأطفال حتى لا يعرض ذهنها لضغط أكبر مما تتعرض هي له. قبض ليث على طرف السرير الحديدي، وقال بإصرار:

- لم أتعامل معك قط على أنك حالة تتطلب العلاج، بقدر ما كنا أصدقاء يا أسيا، ويحزنني أن يحدث هذا الآن. أنت تحت تأثير صدمات مختلفة، أولها الهجوم، وثانيها تزعر ذاكرتك، والآن

تلقي صدمة فقدان ابنتك من جديد. كل هذه الأمور يمكنها أن تجعل الفجوة أكبر. لكنك الآن في أيد أمينة، ويمكن للأشخاص هنا مساعدتك، أنا متأكد.

قالت أسيا بصبر يكاد ينفد:

- لا أريد المساعدة، أريد من يصدقني فقط.

- عندما لا يكون الإنسان متأكداً مما يخوضه، لا يمكنه أن يحظى بثقة الآخرين. علينا في البداية أن نرى الواقع، وكلما وجدنا اختلافاته أكثر مما تصورناه في خيالنا، كلما فقدنا مصداقيتنا تجاه ذاتنا أكثر. علينا أن نطابق الصور فقط، وأن نرى الاختلافات.

انسحب الطبيب ليث بهدوء من الحجرة، وترك أسيا وحيدة، حتى وصلت الممرضة، وطلبا منها أن تأتي معهما لإجراء بعض التحاليل الروتينية. نقلت أسيا إلى حجرة صغير مجاورة للمختبر الثانوي الموجود في المستشفى. تم سحب عينة دم منها، ونقلها إلى المختبر فوراً. قاموا بقياس ضغط دمها وتدوينه، ولم تفهم هي ما حاجتهم لذلك حتى.

- أين زوجي؟ - سألت أسيا الممرض.

أجاب الممرض وهو يجمع ما تركه على الطاولة:

- من هو زوجك؟

- لا عليك.

قالت أسيا ذلك، فرمقها الرجل بنظرة حذرة. كان يتعامل مع حالات مختلفة في هذا المكان، وبعضها كان يبدأ تعامله معه بهدوء، ثم يتحول فجأة لشخص آخر. لكن أسيا لم تفاجئه هذه المرة، بل انقادت معه عائدة إلى غرفتها من جديد.

لم يمض وقت طويل على بقائها وحيدة، لأن عمر دفع الباب، واقتحم المكان. أحاطت عينيه هالة من السواد، وأدركت أسيا بأن التعب انتاب زوجها أخيرا.

- لا تبدو بخير.

رفع عمر حاجبه، وقال بينما كان يتقدم:

- أنا من لا يبدو بخير؟

- أعلم بأنك لا تصدقني، وأنا لا أصدق ما يجري. لقد كانت بالأمس فقط بين يدي، كنا نحتفل بعيد ميلادها. أنا وأنت، والداي.. كلنا يا عمر. لا يمكن أن أصدق بأنها اليوم ميتة. كيف لا أستطيع أن أتذكر كل هذا.

جلس عمر وقال بصوت يشوبه التعب:

- أي احتفال يا أسيا. هذا كله وهم. والداك ميتان. ماتت والدتك منذ عامين، ووالدك مات في نهاية العام الماضي، لا يوجد أي أحد. كل تلك الذكريات من صنع خيالك.

اجتاحت صدمة أخرى قلب أسيا. تحركت فوق فراشها باتجاه عمر. اقترب وجهها من وجهه، ولم تكن تدرك بأن شفيتها ترتجفان. قالت بغضب:

- لم يمت أحد منهم. والداي..

ارتخت معالم وجه أسيا وتحول هجومها إلى سؤال:

- ماتا؟

أشفق عمر على زوجته، فهي قبل لحظات حاولت أن تبقى قوية، لكنها استسلمت ما إن أدركت حجم الصدمة. هي لم تفقد مدة زمنية من ذاكرتها. بل إنها لا تتذكر كل الوقائع الحزينة التي مرت في حياتهم. لا تتذكر وفاة والديها، ولا رحيل ابنتها.

- أجل يا أسيا. ميتان، وحزنا كثيراً على كل منهما. حبيبة أيضاً ماتت قبل حلول شهر مارس. هذا العقاب يكفي، أرجوك عودي كما كنت، فأنا لا أستطيع أن أحارب كل هذا وحدي.

- هذه ليست حربا، بالأمس كنا هنا..

قاطعها عمر وهو ينهض:

- يكفي.. هذا كثير. انسحب من الغرفة، وترك أسيا وحيدة، مستسلمة للمفاجئة.

ما معنى أن يفقد المرء جزءا كبيرا من القاعدة التي تركز عليها حياتها؟ أن يرى كيف تنهار كل القصة التي وضعها لنفسه ببطء، أو أن يراقب احتمالية العيش تحت حطام الأمل الذي يبدأ بالتسرب من بين أيدينا. تحمل الحياة احتمالات فارقة، لا تدرك متى تضعك في مكان يختلف عما كنت تخطط للوقوف فيه.

رغم أن أسيا تستسلم ببطء للحقائق، لكنها لا تصدق. إنها تطبق نظرية التعايش مع العدو الذي لن تستطيع هزمه، وعالمها هذا، يشكل لها العدو الأقوى. لم يبق أمامها إلا الاستسلام للتيار. كل المحاولات تقربها من منطقة الخطر، وكلما اقتربت من النار، زادت احتمالية الاشتعال. إذا تمسكت هي برأيها فإنها تخالف كل حقائق العالم، وإذا جارتهم فإنها تخذل نفسها، وعائلتها التي كانت بالأمس فقط معها.

- إنه يكذب. - همست لنفسها وهي تجر نفسها لتهبط على الأرض من جديد، وتسير باندفاع إلى خارج الحجرة التي يجب أن تكون محتجزة بها تفاديا لأي موقف قد تورط نفسها به، فهي الآن في نظر

الجميع غير متزنة عقلياً.

قطع طريقها في الممر أحد عمال النظافة والذي سار دون أي اكتراث لمرورها من هنا، فهي لا تبدو مريضة، ولا ترتدي زي المستشفى حتى، بل كانت لا تزال تحتفظ بالثياب التي جلبها عمر لها في المستشفى. كانت تشعر ببرودة الهواء على وجنتيها تلسع الأماكن التي بللتها دموعها. لا تزال تبكي، ولا يمكنها أن تتحكم في قدرتها على إيقاف ذلك. صوت حبيبة لا يزال يتكرر في رأسها، ولا يمكن أن تكون ذهبت هكذا بغمضة عين.

تراجعت وسألت الرجل الغريب:

- أين هو مكتب الطبيب ليث.

التفت لكنه لم يتوقف في مكانه، إنما جعل خطواته أبطأ قليلاً.

- إنه في الطابق العلوي، بعد أول منعطف على اليمين، سيكون المكتب الثاني.

شكرته أسياً، وسارت حسب ما وصف لها هو الطريق. تسلفت سلم الطوارئ، وسارت بحرية دون توخي الحذر في الممر، ووصلت إلى مكتب الطبيب، والذي كان بالفعل مفتوحاً وصوت الطبيب يتسلل منه إلى الخارج.

- ما تقوله أنت لا يعد حلاً. - كان ذلك صوت الطبيب.

اعترض صوت ذكوري آخر:

- لكنها لا تصدق هذا، لا يبدو بأنه تصدق ما نقوله لها.

- إن هذا يشكل لها صدمة، من الطبيعي أن لا تصدقه الآن، لكنها ستصدق في النهاية وسينجح الأمر.

كان الطبيب يجيب على الصوت الذكوري الغريب. وقفت أسيا بطريقة توازي بها الجدار. ميزت الصوت الآخر، إنه عمر، ولا يمكنها أن تخطئ في ذلك. لكن ما الذي عليها أن تصدقه مع مرور الوقت؟ كل تلك الكذبات؟

- استمع إلي، لا يمكن أن تستيقظ فجأة، وتكتشف بأن عالمها الذي تتوقع أن تعود إليه قد تداعى. كل من تعتقد بأنهم هنا، لم يعودوا موجودين.

رد عليه عمر:

- متى ستستطيع هي التعايش مع الأمر؟

- لا أعلم، هذا يعتمد على قدرتها على تصديق شكل الحياة الجديد.

سأله عمر:

- وإن لم تصدق هذا؟

- لن يكون أمامها خيار آخر يا عمر، ستصدق ما تراه الآن.

ساد هدوء غريب، ظنت أسيا بأن النقاش قد انتهى الآن، وبأن عمر سيفاجئها ويخرج من مكتب الطبيب. ما الذي يخفيه عنها؟ أي كذبة يلفق لها الآن؟ كانت تعلم بأن العالم لا يتغير في يوم واحد، بل هناك من خطط لأن يجعله هكذا.

- أفكر أحياناً بالاستسلام. لا يمكنني أن أتحمل شكل هذه الحياة الغريبة. الأطفال لا ذنب لهم ليخوضوا كل هذا، وأنا لا أستطيع التأقلم مع الحياة بهذا الشكل. أفكر في الابتعاد، ولكنني لا أستطيع تركها وهي بهذه الحال. أعلم بأن هذه أنانية، ولكنني أموت في كل يوم يمضي، وهي لا تفهم بأنني أعاني، إنها تجعل الأمر صعباً، لماذا لا يمكنها التعايش مع الأمر فقط؟

تنهد الطبيب ثم قال:

- تحلّ ببعض الصبر، وما أن تتجاوز هي هذا، يمكنك الرحيل. دع الحكاية تكتمل.

انقبضت معدة أسيا، كما لو أن أحدهم يعتصر جوفها. مسدت

صدرها من فوق الوسادة براحة كفها، كان قلبها ينبض بعنف، وكل تلك التداخلات الغريبة، جعلتها عاجزة عن التصرف في تلك اللحظة، ولم تجد خياراً آخر سوى الهرب من البقعة التي كانت تقف فيها. ساد الصمت في مكتب الطبيب الذي يدعي بأنه صديقها، وبأنه أشرف على علاجها، والآن يحيك مؤامرة ما مع زوجها. ابتعدت أسيا بخطى هادئة عن المكتب، وما أن تجاوزت الممر حتى سارت بخطى سريعة إلى السلم الخلفي. هبطت إلى الطابق السفلي، وعادت فوراً إلى الحجرة التي تركوها بها. أي خطة تحاك حولي؟ فكرت أسيا. جلست على السرير، لكنها لم ترخ جسدها المشدود. كانت خائفة قلقة، وفقدت ثقتها في كل العالم فجأة. لا يمكن أن يخدعها عمر بهذه الطريقة، لقد كان مخلصاً لها لسنوات طويلة، لا يمكن أن يفلت يدها الآن، ويتركها تهوي في فجوة خداع كهذه. كان العالم كله يتآمر معه، وهي لا تملك أي دليل يثبت صدقها. حبيبة؟ أين هي الآن إن لم تكن ميتة؟ أين والداها؟ ما هو الجزء الحقيقي، وما هو الخادع في هذه القصة؟ سقطت ثقتها في كل شيء، وحتى اليقين في الأشياء الحقيقية، وغير القابلة للتغيير، لم يعد ضرورياً، أو حتى موضعاً لأي إيمان يمكن أن يتشبث به الإنسان في وقت الخطر.

لا ثوابت مع الإحساس بالفرع.

09:05 صباحاً / مركز المدينة التأهيلي

يمكنك أن ترى ملامح وجهك دون أن تزيف الكلمات شكلها عبر المرأة، واجه المرأة ولن تكذب عليك أبداً، لأنها ببساطة تريك حقيقتك دون تدخل أي قوى أخرى. لكن الأمر ليس سيان، إذا ما قررت مواجهة الكذب. يمكنك أن تقف أمام الخداع، وتضغط على الزناد الذي يشعر النار في كل شيء، وتحرق كل الأشياء التي أردت الحفاظ عليها، أ، تفادي ذلك، والحث عن الحقيقة بهدوء بين الكذب.

يمكن لأسيا أن تقف فوق اللغم، وأن تعطي للانفجار فرصة تحطيم كل شيء، ويمكنها كذلك أن تسير بحذر في ذلك الحقل الخطير. أرادت في البداية أن تواجه عمر في كل ما تعرفه، لكن يمكن لذلك أن يجعل كذباته أكثر صلابة، وما أن يتمسك بها، يصبح التراجع أمراً مستحيلاً. تراجعت عن فكرة الهجوم، وقررت أخيراً أن تسير خطته.

عندما عاد عمر، حاولت أسيا أن تختار أحد الطريقتين، وأن تسلك منعطفاً تضعه هي عند هذه النقطة. إما أن تعترف بكل ما اكتشفته، وأن ترى إلى أي مدى سيذهب بها دهاء زوجها، أو أن تسايره، وتحاول البحث عن إجابة بعيدة. حاولت أسيا أن تنطق بأي كلمة معتبرة الأمر تمهيدا لقرارها الأخير، وأصبح الوقت الآن هو سيد الموقف، رغم أن لا شيء كان يتبعها. يجب عليها أن تختصر الوقت

وتختار. رأت في عينيه عمر لم تره إلا مرات قليلة، عمر آخر غريب، مكسور، وبريء. لا تعرف آسيا تلك العينين، ولا يمكنها أن تتحدى الفراغ النقي الموجود فيها. لم تتمكن من الاعتراف في النهاية، فهي أضعف من ذلك.

- عمر أنا..

ساد الصمت، وتذكرت فكرته في أن يتخلى عنها. إنها جزء من خطة شريرة، وهي حمل عليه. لكن ماذا لو كان الأمر مختلفاً عما فسرتة هي؟ لكن آسيا سمعت كل شيء، وكل الفراغات الصغيرة تحتاج إلى بعض الذكاء حتى يتم ملؤها.

- ما الأمر؟ - سألها.

- لا شيء.

تراجعت آسيا، وفهم عمر التشتت الذي تتعرض إليه زوجته، لذلك لم يعترض على تراجعها الغريب والمفاجئ. بل تركها تتصرف بحرية. استجمعت آسيا قواها، وقالت أخيراً:

- دعنا نذهب من هذا المكان.

نظرت مباشرة في عيني زوجها من جديد، وتركته يقرأ الضعف والرجاء في عينيها. كانت تستنجد به بطريقة حقيقية. لا يهم ما

تعرضت له، لا يهم ما تصدقه الآن. هي لا تريد للآخرين أن يحكموا على ما تصدقه، أو تتخيله. إنها حرة في الاختيار.

- هذا غير ممكن الآن يا أسيا. إنك..

قاطعته هي:

- إنني أم، ولا بد من أن الحزن يفعل هذا بالآخرين. لا تتركني عرضة لأفكار هؤلاء الأشخاص. دعنا نرحل. قد يكون وجودي في المنزل أسهل وسيلة لتفهم الأمر.

- أسيا أنت لا تتذكرين معظم الأحداث السابقة.

سألته أسيا:

- وهل المستشفى ما سيعيد لي ذاكرتي. لقد تعرضت للهجوم، وهذا هو سبب ما حدث. لا تلق علي باللوم لأن ذاكرتي أصابها العطب، لم يكن هذا هو اختياري. أدرك الآن، بأن حبيبة ماتت.. ووالداي كذلك.

كذبت أسيا، كانت تحاول أن تصدق ما يقال، وما تفكر فيه، لكنها في الواقع كانت تراوغ حيلة عمر بالكذب هي أيضاً. استأنفت أسيا الحديث:

- وجودي هنا لن يساعدني.. أرجوك.

تغلغلت الفكرة في ذهن عمر، وبدأ على محياه بأنه يلين وينحني في جانبها هي. لن يتركوها هنا للأبد، ففي النهاية سيعيدونها إلى المنزل سواء وافق على ذلك هو أم لم يوافق. عكس تلك الفكرة كانت تحوم في ذهن أسيا المزدحم. كانت تتخيل العالم وهو بعيد كل البعد عنها، كما لو أنه جزء من الماضي، ولا يمكن أن يعود. تحتفظ بقدر كبير من الرعب في قلبها، وكان ذلك يساعدها على تصور أيامها القادمة، وهي تقضيها بين جدران المستشفى، لمجرد أنها فقدت الذاكرة دون قصد. لن يلتفت أحد للزاوية المعتمدة، والتي قد تحتوي على مجرم تعمد أن يفعل هذا بها. بل سيتعقد الجميع بأنها هي المجنونة، وزوجها تولى عنها في النهاية.

- حسنا. قال عمر - سأحدث مع الطبيب.

لم تظهر أسيا حماسها للأمر، بل تصرفت كما لو أن ذلك ما يجب أن يفعل. تركته يخرج متجها للطبيب. سيرى عمر ما هي الخطوة القادمة والتي يتطلب خروج أسيا من المستشفى القيام بها. فكرت أسيا: سأخرج من هنا، وأكتشف الإجابات بنفسى. جميعهم مخادعون، تواطئوا مع زوجها عليها هي، ولكن ما السبب لكل هذا؟

09:41 صباحاً

تقدمت الكسندرا مونتغومري عبر رواق المستشفى. كان رداءها ناصع البياض، حتى بدا مشعاً مقارنة ببياض جدران المستشفى النظيفة. لم يعترض طريقها أي أحد، وكانت هي تسير باندفاع آملة أن لا يأتي من يعترض طريقها. كانت ترمي بنفسها في كل العقد الموجودة في طريقها، حتى لا تسير في طريق مستقيم ممل. كانت الطبية ترى أن الحياة ببساطة مشكلات صغيرة تجاوزت لتشكل حكاية. لم تكن اليكس تبحث عن الصعوبات في حياتها، لكنها لا تقبل بأن تعيش حياة نموذجية، وهذا ما يجعلها تدرس كل الحالات التي تعالجها، أو تدرس مواد علمية أخرى لا تنتمي لمجال عملها. كانت دائمة في حالة تطلع إلى المزيد من المعرفة. قضت عامين بعد تخرجها، تدرس أسباب أسباب اتخاذ المرء لأي رد فعل في المواقف الخطرة، وبعد ذلك قضت عام آخر بالتزامن مع عملها تقرأ عن مفهوم الانتحار وأسبابه، وكانت تلك هي رسالة الدكتوراه التي قدمتها لتحصل على الشهادة التي مكنتها من أن تلقي المحاضرات في الجامعة، لكن مهنة التعليم لم تطغ أبداً على شغفها في علاج اختلال عقول الآخرين. لا ترى نفسها سوى طبيبة، تحتفظ بشخصية المتعلمة للمنزل ووقت الفراغ، والمعلمة في قاعة المحاضرات التي تدخلها مرتين أسبوعياً. أما طبيبة فهذا الكيان يشكل نصف حياتها.

تقدمت بالسن، ونالت المكانة التي تطلعت إليها على الدوام، لكن سنوات الألم والصعوبات السابقة كلها، لم تفقدها أبداً بريقها. فبين التعابير القاسية على وجهها، يوجد معالم جمال لا يمكن اكتشافها، إلا من خلال النظر مراراً إلى وجهها. لذلك كان العديد من زملائها

الرجال يهابونها في البداية، ثم يتحول الأمر إلى إعجاب.. وبالتالي إلى فضول. كانت أليكس رغم كل ما تملكه تعيش وحيدة، ولم تشارك تفاصيل حياتها مع أحد.

الأحزان لا تصنع القوة، إنما التأكد من شكل الخطأ هو ما يصنع الحذر المشابه للقوة. أما مقارنة السعادة بالحزن والتعلق في مبدأ تقسيم الأشياء في جانبين مختلفين هما ما يصنعان الفروق، وما يجعل الأمور الأخرى تبدو أقل قيمة. كلما تقبل الإنسان ما يملكه على صورته الحقيقية، وحاول خوض المشاعر دون تحويل شكلها، أصبحت مناعته أقوى ضد المشاعر الحزينة. وهذا ما حدث مع أليكس بعد مضي كل سنوات حياتها.

انزلقت خصلة ثلجية اللون قصيرة، ولكنها كثيفة، من خلف أذن الطبيبة بينما كانت تفتح باب المكتب. غطى الشعر جانب وجهها الأيسر، مما اضطرها أن تقبض على كتلة الشعر الحرة، وأن تثبتها خلف أذنها من جديد. كان الشعر قد اكتسب تجعيدة لطول بقائه على ذلك الموضع. كان الطبيب ليث يترقب وصول زميلته، وما إن اقتحمت المكتب حتى وضع هاتفه الذكي على الطاولة، ونهض ليصافحها.

- ما الأمر؟ - سألت أليكس.

عاد الطبيب ليث للجلوس على كرسي مكتبه.

- قهوة؟ - سألتها قبل أن يشرع في شرح الأمر. فهزت أليكس رأسها موافقة. كانت تترقب أن يبوح لها بالأمر الذي تطلب وجودها، لكنه بدلا من أن يخبرها رفع الهاتف، وطلب فنجانين من القهوة.

كررت سؤاله هي عن الأمر، ولم يكن ذلك بسبب شح الوقت، إنما لترضي فضولها.

- لم تتخلصي من هذا الحماس حتى الآن.

ابتسمت الطبيبة وقالت:

- إنه الشغف يا طبيب.

- أقدر هذا الشغف. إنه ما ينقذ المرضى لدينا، ولو كان كل الأطباء يملكون بعضاً منه، لما وجدنا من نعالجه. لحسن الحظ أنك موجودة.

أسندت أليكس ظهرها على الكرسي الجلدي الثابت وقالت:

- لو كان الكل يعمل بجد، لشفي كل المرضى، وبقينا من دون عمل. نظرية أنانية تشبه ما يعتقد به بعضهم بشأن زراعة الأوبئة على الأرض، لاستمرار الحاجة للدواء.

أصدر الطبيب صوتا خافتا يعبر عن الدهشة ثم قال:

- هذه نظرية معقدة، ولكن لا أعتقد بأن العقل يهدأ، ولن يكف الناس عن اختلاق ما لا يرتبط بالواقع. لذلك نحن موجودون هنا.

شبكت الطبية أصابعها وسألته:

- لسنا جميعاً هنا لهذا السبب، هناك من يأتي لأنه يتطلع للمرتب فقط.

- ليس في مهنة الطب، ولا في هذا المركز. لا أعتقد. الأمر أكثر تعقيداً من مسألة اكتفاء. لو كان الأمر كذلك لعملت في أي مهنة أخرى لا تتطلب سنوات دراسة طويلة يا آنسة مونتغمري.

وصل عامل الكافتيريا حاملاً فنجان القهوة، وضع فنجاناً أمام كل من الطبيبين الجالسين، ثم انسحب بهدوء، تاركاً الباب مفتوحاً مما أدى لوصول بعض الضوء البعيدة إلى المكتب الذي كان يستقبل ضوء الشمس كعامل إضاءة وحيد.

- كيف تسير الأمور خارج المستشفى يا أليكس؟ - تخلّ ليث عن الصيغة الرسمية في الحديث. ولم يكن ذلك يزعج أليكس أبداً فهما صديقين قديمين.

أجابت أليكس:

- لا شيء جديد. آخر ما أعمل عليه، هو دراسة ظاهرة أسراب

الزراير. إن تلك الظاهرة فريدة من نوعها. تتحرك وفق نمط فيزيائي غريب. تحتاج الزراير إلى عشرات الملايين من عمليات التفكير في الثانية الواحدة، كي لا تتصادم مع بعضها أثناء الطيران. إنه الارتباط الخالي من المقاييس.

- هذه هي أليكس التي أعرفها.

قال الطبيب ذلك، ثم رفع فوراً فنجان قهوته. تذكرت أليكس قهوته الموضوعة أمامها، فقامت بتقليد الطبيب هي أيضاً. لم تسأله عن الأمر الذي تطلب اتصاله بها، لأنها أدركت بأنه سيبوح بذلك الآن. وبالفعل قال الطبيب ما إن أعاد فنجانه إلى مكانه:

- حسناً يا أليكس. الأمر ليس بالغريب تماماً، لكن تلك الحالات كانت دائماً من اختصاصك أنت. إنها مريضة جديدة، تعرضت لحادث ما وأصابها ذلك بحالة مختلطة ما بين ما يشبه الزهان، وفقدان الذاكرة الجزئي.

- من الطبيعي أن يرتبط كلاهما بالآخر في بعض الحالات. - عقلت أليكس.

أكمل الطبيب حديثه قائلاً:

- أدرك هذا. لكن يفقد بعض المرضى حقبة زمنية من ذاكرتهم، تسقط أثر صدمة ما. مثلاً هذه المرأة تأثرت بسبب وفاة ابنتها،

وعندما تعرضت لضربة على رأسها، أفاقت وهي تعتقد بأن العالم الأخير من حياتها لم يحدث. لم تمت ابنتها.

- إذن هي عالقة بالزمن في ذهنها فقط.

- لا، ليس تماماً. هي تدعي بأن ابنتها لم تمت، لكنها تتذكر تاريخ اليوم، وتعرف في أي عام نعيش نحن. لم تفقد معظم تفاصيل حياتها. تقول بأنها كانت مع ابنتها بالأمس ويحتفلون بعيد ميلادها، والآن فقط هي ليست موجودة.

غرقت أليكس في تفكير قصير ثم سألت الطبيب:

- تعرضت لضربة على الرأس؟ لأي سبب؟

- لا أحد يعرف حتى الآن. وجدت عارية في على قارعة الطريق، ولا أحد يعلم لماذا كانت في العاصمة بينما هي تعيش في الجهة الغربية. تظن الشرطة بأنها تعرضت للسرقة فقط، لأننا لم نر أي أثر لاعتداء جنسي. كل ما أدركنا حدوثه هو فقدانها لمرفقاتها.

ساد صمت قصير، تشربت فيه أليكس تفاصيل القصة، ثم استأنف الطبيب شرحه قائلاً:

- من الطبيعي أن ينسى المرضى حادثاً مهما كهذا. لكنها تدعي أيضاً بأن والداها على قيد الحياة. رغم أن والدتها ماتت منذ أكثر من عام.

- إنها لا تتذكر المآسي فقط، وهذا أمر مألوف نوعاً ما.

قال الطبيب:

- لا بل إنها تظن بأنهم يعيشون في مكان لم تزره قط في حياتها، ولا يعرفه زوجها حتى. والعنوان الذي تدعي بأنه منزلها تعيش فيه عائلة أخرى منذ ثلاثة أعوام. يؤكد زوجها بأنها لا تعرف ذلك المكان أبداً.

علقت أليكس:

- إن عملية بناء الأفكار واسترجاع الذكريات، عملية معقدة لا يمكن أن نراها بأعيننا، ويعتقد بعضهم، بأنها شيء يرتبط بروح الشخص، لذلك هي سرية، وحتى الطب لم يكتشف الجزء الأكبر منها. حدوث هجوم كهذا كفيل بأن يكون نقطة بداية لأي خلل، لكن وجود حل الخلل قد يحتاج إلى مباشرة ما.

- لهذا أنتِ هنا. أود أن تباشري المريضة بنفسك. لقد كانت أسيا عميلتي لفترة من الزمن. موت ابنتها غير كل شيء مألوف في حياتها، والآن هي لا تتذكرني أنا حتى، وتدعي بأننا لم نتقابل. يجب أن تحظى ببداية علاجية جديدة، ولا أجد أبرع منك هنا.

10:16 صباحاً / مركز المدينة التأهيلي

جاور الطبيب ليث زميلته أليكس وهما يسيران على طول الممر المؤدي إلى الحجرة التي تنتظر أسيا بها. لم يتحدث أي منهما عن أي شيء خلال الرحلة القصيرة، من مكتبه هو، إلى هذا الجناح. وعندما وصلا إلى المكان المقصود، أخبرها ليث بأنه لا يرغب في التدخل في هذا الأمر أكثر، حتى لا يؤثر على مزاج المريضة أكثر. إنه يشكل علامة استفهام لها الآن، ولا يرغب بتشتيت أفكارها بوجوده في الجوار. كان ليث واثقاً من أن أليكس ستتمكن من إيجاد طريقة للتسلل بها إلى ذهن أسيا.

ابتعد ليث عن الباب، بينما قبضت أليكس على المقبض البارد، وبادرت بالطرق على الباب مرات قليلة، قبل أن تدفعه وتدخل إلى الغرفة. كانت أسيا تجلس على السرير في حالة ترقب. لا تعرف أسيا ما هي الخطوات التالية، وهل في مقدورها الرحيل قريباً أم لا، لكنها وإن كانت تعيش في كل هذا الخداع، فهي لا تريد البقاء هنا أكثر. تقدمت أليكس، وحاولت أن تزرع بعض التعابير على وجهها الذي تجمدت الملامح فوقه. ابتسمت بطريقة مزيفة أمام أسيا، وحيثها. لم تكن التحية البادرة من الطبيبة تشبه تلك الحالات التي تحاول من خلالها التعرف على المريض. بل بدت كما لو أنها تتعرف عليها في

محطة انتظار حافلات.

- مرحباً. ردت أسيا.

- إنني أليكس مونثغومري. الطبيبة التي ستبشر حالتك.

ترددت أسيا، وأغمضت عينيها قبل أن تسأل بشجاعة:

- هل هذا يعني بأنني سأبقى هنا أكثر؟

ابتسمت أليكس، وحاولت إظهار بعض الوداعة على محياها، لكنها عجزت عن إخفاء البلادة المخيفة، والتي كانت تسبب قلق أسيا.

- لن تبقي هنا، إذا أردت الرحيل فيمكنك ذلك بكل تأكيد. لكن هذه سلامتك أنت، وصحتك أنت. أعتقد بأنك تعلمين الآن، بأن خلا ما أصابك، ومن دون إصلاح هذا الخل سيكون وجودك في الخارج، أمراً خطراً عليك أنت قبل الآخرين.

قالت أسيا بعناد، رغم عدم ارتياحها للطبيبة:

- لكنني لا أريد البقاء.

لم تكن تريد التصديق، لا يمكنهم أن يخضعوها لتصديق الحقيقة المغايرة لما تعتقده. أرادت أن يعيدوا لها الواقع الذي هبطت منه. أن

يتركوها في الوهم، إن كان كذلك. ما الضرر في البقاء مع الوهم، ما إذا كان هذا سيخلصها من سوء الحقيقة؟

- لا تقلقي. - قالت أليكس ذلك، وهي تبسط كفيها في الهواء أمام أسيا حتى تهدئ من روعها - هذا ليس سجنًا، إنما مركزا للعلاج. لن تبقي هنا، لكن عليك أن تعديني بأن لا يكون هناك أخطاء في حال خروجك، وبأننا سنستطيع استكمال العلاج من خلال زيارات أحدها أنا.

فكرت أسيا في العرض؛ حريتها مقابل هذه الشروط البسيطة. وافقت فوراً. فأخبرتها أليكس بان عليهم إجراء بعض الفحوصات الأخرى. بعض الأشعة الضرورية، وتحليل دم آخر. يجب عليهم أن يروا صوراً للجرح بطريقة أوضح، رغم أنه سطحي. كما كانت أليكس تريد أن ترى صور أشعة كاملة لأسيا، وأخرى للدماغ على وجه التحديد.

- سيستغرق هذا الأمر منك بضع ساعات أخرى.

- سأقوم بالأمر. - قالت أسيا، وبدا كما لو أنها اكتسبت حريتها فوراً.

تراجعت أليكس بضع خطوات للخلف، قبل أن تسأل أسيا بوضوح:

- هل كنتِ تعانيين من أي مشاكل أخرى على حد ما تتذكرين. أعني

في الجزء الذي يمكنك أن تتذكره، هل كانت لديك أي عوائق في حياتك؟ هل فقدت الرغبة في القيام بالأمور التي تحبها؟ هل تشعرين بالضيق أحيانا من دون أي سبب واضح؟ أو هل تجدين صعوبة في النوم مثلا؟

أجابت أسيا فوراً:

- لا، لم أتعرض لذلك. لا أتذكر أي حزن أصابني في الفترة الأخيرة. لا أتذكر موت والداي.. أو حتى.. موت حبيبة. لا أتذكر بأنني كنت حزينة. كل ما في ذاكرتي هو مشاهد سعيدة أو طبيعية على الأقل. تغير كل هذا في الوقت الذي استيقظت ووجدت نفسي في مستشفى العاصمة. يبدو الأمر كما لو أن لعنة أصابتني وغيّرت شكل الحياة بغمضة عين فقط!

- ألا تتذكرين يا أسيا شعورا بالخمول مثلا؟ أو الإحباط؟ فقدان شهية حتى؟

- لا.

- أي صعوبات في التركيز؟

حاولت أسيا أن تسترجع أي نقطة خلل في ما تتذكره لعلها تكون مفتاح اللغز. لا ترغب في أن تقول للطبيبة بأنها تتعرض لمؤامرة ما، لأن هذا سيزيد من فكرة إصابتها بالجنون، أو الذهان حتى.

- لا. إنني لا أتذكر أي أعراض ليست طبيعية.

- حسناً، هذا جيد حتى الآن. لم يتبق أمامنا سوى أن نرى ما تأثير الضربة التي تلقيتها. سنبدأ بإجراء كل التحاليل المطلوبة من الآن. ما أن تنتهين، ستكونين حرة للرحيل إلى المنزل. لكن عليك أن تعديني بأن لا تتعرضي لأي شيء يخالف ثقتي أنا بك.

3:21 مساءً

استغرق الأمر أكثر مما تصورت آسيا. بدا لها أن الساعات الماضية شكلت أياما. لم تر عمر في معظم الأوقات، ولم تكن تريد رؤيته، لأنها غير قادرة على التماسك أمامه. عندما انتهت وعادت إلى حجرتها في النهاية وجدته جالسا. شعرت آسيا بالذهول أكثر من الإحباط، أمام قوتها التي تلاشت فجأة. فيما سبق كانت تعتقد بأنها قوية بما يكفي لأن تحارب أقوى شخص على الأرض. أما الآن، فهي ضعيفة بينما كانت تقف بين حياتها ومشاعرها، وفي الجهة الأخرى تقع الحقيقة.

سألها عمر إن كانت قد أتمت كل شيء، فهزت رأسها إيجاباً، واكتفت بالصمت. كانت مستعدة للخروج، ولم يعترض عمر على اصطحابها للمنزل. لا تملك أية أمتعة لتأخذها معها، كل ما لديها هو

نفسها، وأفكارها المكتومة. خرجت من المستشفى وعمر إلى جانبها. وما أن أصبحت مكشوفة تحت ضوء الشمس، حتى عادت إليها الشجاعة تدريجياً. الآن هي خارج ذلك المكان، ويمكنها أن تنجر مهمتها دون أن تعيقها شكوك الآخرين.

لا تعلم أسيا كم استغرقت رحلة العودة، لكن في الطريق كان الهدوء رفيقهم الوحيد، ومعه حركة خيوط الشمس الذهبية على الزجاج السيارة كانت أسيا تملك موسيقى حزينة في داخلها. لم يكن العالم يشبه ما هو عليه، ليس الغروب هو ما كانت تراه عادة، ولا لون الشمس هو ما اعتادت أن تراه. حتى الهواء الذي يطير دون شكل أو لون، لا تشعر أسيا بأنه نفس الهواء الذي اعتادت على أن تتنفسه. هذا الرجل الذي يجلس بجوارها، ليس ذاته من كان بالأمس يدعي الحب.

لا شيء يبقى كما هو، لأن في الحياة لا يوجد أشياء ثابتة. مشاعر الآخرين معرضة للتغيير، والثوابت التي نعتقد بأنها أقوى من أي عامل آخر، قابلة للتحويل إلى شيء مختلف، عندما تتعرض لما لا نتوقعه. نحن لا نستطيع تخمين كل أشكال المخاطر في الحياة، فبعضها يباغتنا بطريقة مفاجئة، لكن طبيعة الإنسان قادرة على محاولة التأقلم مع أي تغيير، وفكرة المحاولة بحد ذاتها تحتاج إلى قوة. قد لا تبقى الأشياء كما هي عليه، وأنت لا تقف على ذات النقطة من جديد، ويكون شكل حياتك ذاته، ولا يختلف فيه سوى شعورك أنت. في تلك اللحظة يفقد الناس إيمانهم بقدرتك، وتفقد أنت ثقتك

في الآخرين وحتى بقدرتهم على تشجيعك. ببساطة تغيير التفاصيل الصغير قادر على صنع فارق، وتشديد قوة الإنسان، لكن نحن دائماً قادرون على استجماع القدرة وإن كان ذلك بطريقة بطيئة، لأن هذه هبة يولد الإنسان بها، وتكون هدية من الخالق مغروسة في أعماقه. قد لا ترى هذه العملية، ولا طريقة بنائها من جديد، لكن عندما تصل إلى جدار الإيمان بها، والاتكاء عليه، ستدرك بأنك قادر على المحاولة. لن تكون بخير في كل الأوقات، ولكن حتى التجارب السيئة تملك فيها القدرة على البقاء. الحزن ركن من أركان الحكايات، ويعتقد بعضهم بأن الحياة نوع من أنواع المعاناة بحد ذاتها، لذلك لا ليس على الإنسان أن يحاول استئصال الألم من كتلة المشاعر التي يبعث بها، بل عليه اكتشاف طريقة ما للتعایش معه.

انعكست آخر أشعة الشمس التي تلاشى وهجها الذهبي، وأصبح أحمر اللون، على زجاج النوافذ الأمامية لمنزل والد أسيا، والذي هو منزلها الآن. عادت لها أفكارها الغريبة، وتساءلت: بالأمس فقط كنت أعيش في منزلي، والآن أنا هنا. هل يعقل أن تكون مجنونة بالفعل وعمر بريء؟ لا يمكنه أن يغير معالم الحياة بساعات قليلة فقط.

5:27 مساءً / جنوب العاصمة

لا تزال الواجهات البحرية مزدحمة رغم أن دفء الشمس قد بدأ ينسحب من الجو تدريجياً. قادت أليكس سيارتها إلى سلسلة

المطاعم الموجودة على الواجهة البحرية. رأت أنها تستحق أن تنعم
بغداء هنا، طالما تستطيع هي اختيار الواجهة. كان الجو لا يزال
دافئاً وقريباً سيحل الطقس الرطب، ومن ثم البرد، وسيكون حينها
الجلوس بجوار البحر أمراً صعباً عليها. تعد أليكس نفسها إنسانة
صيفية، ورغم كرهها لفكرة تصنيف الأشخاص، إلا أن كونها بعيدة
عن حب الشتاء، شيء لا يشعرها بالبغض. لطالما علق الآخرون على
هذه الفكرة، وبدأ أن محيطها كله يحب الشتاء إلا هي، كانت إنسانة
محبة للشمس والنهار، أما الليل، فكان يعجبها الغروب المتأخر،
وانسحاب الشمس البطيء عن واجهة المباني المرتفعة.

ركنت سيارتها في باحة تحتوي على عدد قليل من السيارات.
وسارت باتجاه المطعم، حيث كانت شقيقتها تنتظرها. كانت فيرا
نسخة طبق الأصل من أليكس في الشكل، أما في الطباع فكانت
تختلف تماماً عنها. فيرا هي الأخت التوأم لأليكس، ورغم وجودها
في المدينة، إلا أن في محيط أليكس كان عدد قليل من الأشخاص
الذين يعلمون بوجودها، ولم يكن ذلك بسبب رغبة أليكس في إخفاء
وجود فيرا، بل لأنها كانت مقلة في الحديث عن حياتها الشخصية،
وترى بأن هذا الحاجز يخصها وحدها، وليس من حق أي شخص
معرفته. أما عن علاقة فيرا بأليكس فقد كانت ودية بشكل كبير،
وعلى الرغم من وجود كل الاختلافات بينهما إلا أن هذا لم يصنع
إلا تعلقاً غريباً بينهما. كانت فيرا تفاجئ أليكس بأفكارها الفوضوية
وحبها للمغامرة، كان يخرج أليكس من قوقعتها المملة. أما عقلانية
أليكس، فكانت دائماً مصدر أمان لفيرا. كلاهما تعيش في المدينة

ذاتها، وبعيداً عن منزل العائلة، ورغم هذا كان التواصل بينهما يقل مع مرور الوقت، لأن لكل منهما ما يشغلها. يلتقيان مرة في الأسبوع وهذه العادة كانت مستمرة بشكل دوري في العام الأخير، وهي ما أنقذ حبهن لبعض وجعله يستمر.

فيما كانت أليكس تبدو أنيقة بطريقة كلاسيكية، كانت فيرا تبدو عصرية جداً. كانت فيرا أمّاً لصبي واحد، وزوجة مجدة تجاه منزلها في الوقت ذاته، رغم أن شكلها لا يوحي بذلك أبداً، ولطالما تخيلتها أليكس وهي تعيش بطريقة عبثية لا تتقيد بأي قوانين. أليكس تعيش وحيدة حتى الآن، وهذا الأمر لم يعد يدهش أحداً من عالما، لأنها هي من اختار ذلك، ولا رغبة لديها في تغيير الأمر.

اقتحمت أليكس المطعم بخطوات سريعة متجهة إلى الطاولة الاعتيادية. تركت حقيبتها على الطاولة فأصبحت يداها متاحة لاحتضان فيرا، بادلتها الأخرى الأمر ذاته، ومن ثم اتجهت أليكس إلى كرسيها.

جلست الشقيقتان متقابلتان، وقبل أن تحدد أليكس ما ستتناوله، سألت شقيقتها عن أحوال المنزل، وكان السؤال يخرج من فم أليكس بطريقة آلية. ابتسمت فيرا وهي تجيب:

- نحن بأفضل أحوالنا. كيف تسير أمورك أنت؟

فتحت أليكس قائمة الطعام، وأجابت وهي تحرك عينيها بين

أصناف الطعام:

- إنني كذلك على خير ما يرام. لا أزال أعمل، وأحاول اكتشاف المزيد والمزيد.

- هذه هي شقيقتي، يسعدني أن تكوني بحال جيد يا أليكس، وهذا بقدر ما يسعدني لقاءنا دائماً. لماذا لا تأتين إلى منزلي، يمكننا أن نطبخ غداءنا هناك إن أردت؟ لا يبدو لي طبيعياً أن نعيش في مدينة واحدة، ولم تزوري منزلي سوى مرات قليلة.

حاولت أليكس أن تبحث عن حجة ما، لكنها لم تجد سوى الأبسط في النهاية:

- لا أرغب التسبب بالإزعاج لكم، ثم انك تعرفين كيف يلتهم العمل معظم وقتي.

- نحن جميعاً نعمل، ونستطيع الحصول على بعض الوقت لنا إن أردنا ذلك، لكنك أنت من يرغب في التهرب عبر الانشغال في العمل. إننا عائلة يا أليكس.

رفعت أليكس بصرها أخيراً عن قائمة الطعام، وقالت:

- لم أنس ذلك. أنت أغلى ما أملك يا فيرا. لكنني حقاً لا أرغب في التسبب لكم بالإزعاج.

اعترضت فيرا:

- إنك لا تتسببين في أي إزعاج.

استسلمت أليكس أخيراً، ووعدت شقيقتها بزيارة قريبة. اختارت كل منهما طبقها وبعد ذلك كان على أليكس أن تبادر بالحديث، لأنها كانت تشعر بأن فيرا هي من استلم زمام اللقاء كله. رغم أن أليكس لا تفضل أن تناقش أمور العمل خارج نطاقها، إلا أنها سألت فيرا:

- هل تعتقدين أن فقدان أحدهم قد يشكل هوساً، إلى حد عدم تقبل هذه الفكرة؟

- لم أفهم هذا. - علقت فيرا.

استرجعت أليكس ملامح أسيا، ولم تفهم حتى الآن، لماذا كان عليها أن تثق بها. لكنها شرحت لشقيقتها أمر أسيا، وبدأت فيرا مصغية للأمر، وكانت تتخيل لو أن هذه القصة تحدث معها هي وابنها الوحيد.

- قد يبدو فقدان أحدهم أمراً سيئاً، ولو كنت مكانها لظننت بأن الأمر كابوس، من الصعب جداً أن أتقبله بهذه السهولة. فقدان شخص عادي قد يبدو أمراً مقبولاً، ولكن عندما يتحد هذا الشعور مع الأمومة فإنه بكل تأكيد سيشكل صدمة لا يمكن للعقل أن يفهمها. لو كنت

مكانها لأصابني الجنون.

لم تكن أليكس أمّاً من قبل، ولهذا فهي لا يمكنها أن تتوقع حجم الصدمة، لكنها تعرف كيف يبدو الفقد، تعرفه تماماً وتذكر بأنه مؤلم إلى حد لا يمكن قبوله. سألت أليكس فيرا:

- تخيلي فقط أن تستيقظي، فتجدين أن العالم كله قد تداعى فجأة، ما تعرفينه بالأمس، ليس ما هو عليه اليوم. أشفق على هذه الإنسانية.

7:52 مساءً

عادت أليكس إلى منزلها، والذي لا يكسر هدوءه عادة إلا أسطوانات الأغاني القديمة، والتي كانت تقود سيارتها مسافة ساعة كاملة للحصول عليها من بلدة مجاورة. لم يكن الوصول إلى تلك التشكيلة من الأغاني كل شهر أو اثنين أمراً صعباً، بل يمكن البحث عنها في الانترنت، أو شراء أسطوانات عشوائية من أي مكان قريب، لكن أليكس كانت تحب تقييد نفسها بعادات مميزة، وتجعل لوقت فراغها معنى.

هي صديقة للتفاصيل، وتعني لها تلك الأمور الصغيرة إلى حد فارق، بحيث كانت تضيف نكهة لأيامها. تكون أوقاتها عادة مشحونة

بالعمل، والدراسة، ووقت الفراغ مليئاً بالذكريات السعيدة التي يصعب أن تعيدها. وحين لا يعود لأليكس أي شيء يمكنه أن يصنع اختلافاً في الروتين، كانت تقود سيارتها مسافات طويلة، بحثاً عن مناظر لم تشاهدها، أو عن أركان لا يعرفها العامة كثيراً، كمحل الأسطوانات القديمة ذاك، وبعض المكتبات القديمة التي لم يبق فيها سوى كتب الدراسات الكبيرة.

8:27 مساءً

تترك أليكس شعرها المبلل يستلقي حراً على كتفها، يصبح لونه داكناً بسبب الظلال المنتشرة بين طياته لأنه لا يزال مجعداً بسبب رطوبة الماء عليه. ارتدت ثياباً واسعة مريحة تساعدها في قضاء ما تبقى من يومها دون الشعور بالضيق، أو التقيد كما كانت تشعر مع الثياب الرسمية.

جلست على طاولته الخشبية المرتفعة، وقربت الكرسي الجلدي من طرف الطاولة. راقبت كومة الأوراق الموزعة والتي كانت من خلالها تدرس حركة أسراب الحشرات بمختلف أنواعها. قبضت على قلمها، وتساءلت عن طريقة تخاطر هذه المخلوقات مع بعضها. ثم أفلتت تلك الفكرة، وعادت للواقع من خلال قراءة المقالات المدروسة.

مع مرور الوقت وقبل أن تتم ساعة في دراسة مجدة للأوراق، أرخت أليكساندرا كل الأفكار، وفكرت في أسيا، المريضة التي قابلتها مؤخراً. ربطت بين أسيا، وبين طبيعة العمل الصعبة التي تعاني منها، فكم بدت لها المريضة صادقة، ومكسورة. كادت أن تصدقها لولا أن العاطفة الحقيقية ماتت في قلب أليكس منذ وقت طويل.

كيف يمكن للحزن أن يغير كل الحقائق في حياة الإنسان؟ هناك رابط بين الحزن والوهم، فكلاهما كانا يدعمان بعضهما في تغيير الحقائق التي يستعصى فهمها. نخلق أسسا أخرى بعيدة عن كل القواعد المتهاكة التي كنا نقف عليها، ودمرها الحزن فجأة.

ما هي الحقيقة الموجودة في عيني أسيا، وما هو الكذب؟ لا يمكنها أن تصدق تلك الحالة، لمجرد أنها تعرف شكل المعاناة التي مرت بها. عليها أن تتمسك بيقينها قبل أن تترك لمشاعرها حرية السيطرة عليها.

11:27 مساءً / الوادي الغربي

لم تتمكن أسيا من تقبل المكان، بل بدا لها غريباً حتى عن منزل والدها الذي اعتادت زيارته في العطلات. كان المكان موحشاً وزواياه باهتة. يفتقر المكان للبهجة التي كان عليها قبل أن تستيقظ وتجد نفسها تحت هذه الصدمة. جالت عيناها في المكان من جديد، وتفقدت كل الجدران التي كانت تختلف بطريقة ما لا يمكن تمييزها.

لقد سمحوا لها بالرحيل من المستشفى بأعجوبة، وعليها أن لا تخون ثقة تلك الطبيبة فيها، ولكن ما يهمها أكثر من ثقة المرأة الغريبة، هو الحقيقة. يجب أن تجد الراحة، وأن تبحث عن الخلاص. لا يمكنها الوثوق بأحد، ولا أن تصدق أي شيء بما في ذلك الواقع الحالي. لم تجد الأطفال في أي مكان، كان المنزل خالياً، وخمن عمر من أن الأطفال خلدوا لفراشهم الآن، ففي الصباح يجب أن يكونوا في المدرسة.

لم تكن أسيا بحاجة عمر ليقودها إلى غرفتهم فهي تعرفها الآن، لكن ما لم تتفهمه هو أن يكون هذا المكان لهم، وليس لوالديها. إنهما لن يعودوا موجودين معها بعد الآن. لمعت عيناها وهي ترى اختلاف شكل الحجرة. أخفت دموعها عن عمر، وكتمت رغبتها في البكاء. لا تستطيع أن تتقبل كل تلك الحقائق في وقت واحد. والدها، والدتها..

وحبيبة الطفلة التي كانت بالأمس فقط تحتفل بعيد ميلادها.

شعرت أسيا بقواها القليلة تتداعى من جديد. أعلنت لزوجها عن رغبتها في الاستحمام، فتركها عمر تدخل حمام الغرفة، ورآها تغلق الباب خلفها، وتصبح بعيدة عنه من جديد وهو غير قادر على تمييز ما تقوم به. لم يترك الغرفة، بل كان يجلس ويراقب الباب محاولاً تمييز حركتها مع صوت شلال المياه، حتى يتأكد من أنها لن تقدم على إيذاء نفسها.

تحت سير المياه الدافئة، بكت أسيا بحرقة. استسلمت لحزنها وصدمتها، وتركت صوت نحيبها المكتوم يتحد مع صوت حركة المياه. ألمها الجرح في مؤخرة رأسها، لكنها لم تحاول إيقاف الألم، أو الابتعاد عن الماء. وضعت يدها على فروة رأسها فوق موضع الألم، وفكرت في أن هذا الألم وحده كان بمثابة ضغطة الزر التي غيرت عالمها، فبسببه استيقظت هكذا. لكنها عاجزة عن تصديق فكرة نسيانها للأحداث بسبب تلك الضربة. هذه هي الفكرة الأكثر واقعية، والتي عليها أن تستسلم لها الآن. لا يجب على أسيا أن تقاوم الواقع الآن، حتى تجد أي طرف خيط ينفي حقيقة ما يقوم به عمر معها الآن.

عندما خرجت، وجدته ينتظرها ويستقبلها بينما بخار الماء يندفع من الباب خلفها، قبل أن تغلق هي الباب. تجاهلت نظراته المترقبة، وتظاهرت بأنها منشغلة في إخراج الثياب من الخزانة. وجدت أن هناك العديد من الثياب التي تتناسب مع جسدها، لكن أيا منها لم يكن

اختيارها، هذا ليس ذوقها، بل إنه هو عمر من جلب لها هذه الثياب، وتركها هنا ليقنعها بأنهم يعيشون هنا منذ وقت طويل. أين هي ثيابي القديمة؟ تساءلت في نفسها. هل تخلص منها؟ التفتت نحوه وأرادت طرح السؤال عليه، فأدرك هو بأن بزوجته تعاني خطباً ما.

- ما الأمر يا أسيا؟

أجابت هي دون تفكير:

- لا شيء. - قالت ذلك، وهي تجر الثياب بطريقة عشوائية.

- هل تشعرين بالجوع؟

- قليلاً. - أجابت، فعرض عليها أن يذهبوا إلى المطبخ معاً.

ارتدت أسيا ثيابها، ووافقت بصمت على المضي معه. سبقته إلى خارج الحجرة، بينما نهض هو بتكاسل ليغير ثيابه التي كان يرتديها طوال اليوم. سارت أسيا نحو الغرفة التي توزعت على الأطفال. فتحت باب الحجرة الأولى، فوجدت جميل راقداً في فراشه. أغلقت الباب وسارت نحو الغرفة التالية. دفعت الباب فرأت زهرة تجلس على فراشها، وسلك سماعات الأذن ينسدل وصولاً إلى الفراش حيث تركت هاتفها عليه.

سحبت زهرة السلك من أذنها، واستقبلت والدتها باستغراب.

اقتحمت والدتها حجرتها، وجلست بجوارها على السرير. ابتسمت أسيا للفتاة، قبل أن تمر يدها عبر خصلات شعرها الناعم، وتزيح شعر زهرة عن وجهها. اصطنعت الفتاة ابتسامة مزيفة، سرعان ما تلاشت.

- هل أنت خائفة مني.

زمت زهرة شفتيها، لكنها لم تعترف بالحقيقة، ولم تنكرها. كانت تشعر بالخوف من والدتها والقلق عليها في آن واحد. لكنها لا تريد أن تجرحها بقول ما تشعر به. ظلت صامتة تترقب خطوة والدتها التالية. كسرت أسيا الهدوء من جديد وسألت الفتاة:

- أنا لا يمكن أن أؤذيكِ. أنت فتاتي، وأنا أفعل أي شيء لأحميك.

- أعلم. همست زهرة.

سألتها أسيا فجأة:

- هل هناك ما يخفى عني. قل لي الحقيقة يا حبيبتي. هل هناك ما لا أعلمه أنا.

هزت زهرة رأسها نفسياً، وقد عاد القلق إليها. سألتها أسيا إن كان هناك ما يخفيه عمر عنهم. فصمتت زهرة التي ظنت لوهلة أن والدتها قد عادت لرشدتها، لتكتشف أن الجنون لا يزال يسيطر عليها.

- زهرة، قولي لي..

قاطعها دخول عمر، وهو يدعوها للذهاب إلى المطبخ وتناول الطعام. التفت الأب للفتاة، وسألها:

- لماذا لم تنامي حتى الآن؟

- لا أشعر بالنعاس.

نهضت أسيا عن السرير، ورمت نظرة رجاء أخيرة تجاه زهرة، قبل أن تخرج وتسير مع عمر باتجاه السلم. لم تفهم أسيا أن الفتاة كانت خائفة، بل رأت شيئاً خفياً في نظرة زهرة، شيء لا تريد الفتاة أن تبوح به.

في الدقائق الأخيرة من هذا اليوم الطويل، جلست أسيا برفقة زوجها، والهدوء هو الدخيل الثالث بينهما. ساعد كلاهما الآخر في إعداد طعام خفيف لا يتطلب الكثير من الجهد. جلست أسيا منسحبة من هذه المهمة، قبل أن ينتهي عمر من تحضير الطعام. جر هو طبقه، وجلس أمامها. أراحت أسيا ذهنها من التفكير الطويل، وتركت الصفحة السوداء، ترتسم في خيالها فهي بحاجة للراحة أيضاً.

- أنت لا تأكلين، ألسنت جائعة؟

- بلى. - أجابت أسيا، وحركت ملعقتها.

أرهق التخمين عمر، فهو غير قادر على تحديد أفكارها، ولا توقع الخطوة التالية معها. حاول أن يتفادى بعينه حركة زوجته البطيئة. لم يتمالك نفسه طويلاً، وكسر الصمت ليقول:

- شاركيني ما تفكرين به يا أسيا. لقد عبرنا بهذا مرة من قبل، والآن يعبر الحزن بنا مرة أخرى. أخشى أن تكون الضربة الثانية قاتلة. لا يجب أن نصل إلى هذه الفجوة المظلمة، دعينا نحاول المقاومة مرة أخرى.

تركت أسيا ملعقتها، ورفعت بصرها بضعف لتنظر إلى عمر الذي حاول أن يظهر الصدق لها، لكنها لا تصدق هذا، رغم كل الضعف الموجود في صوته.

- لست متأكدة مما إذا كان لدي المزيد من القدرة على المقاومة. بل إن رغبتني في تحدي الضعف تلاشت. أريد أن أوازي ضعفي، وأن أنتهي منه. مهما كانت هذه الموجة موجعة، سأدعها تجرفني إلى أن تنتهي مني.

اعترض عمر:

- ليس عليك الاستسلام. سأكون معك، بل إننا جميعاً معك.

- ورغم هذا أشعر بأنني وحدي.

- ما الذي يمكنني أن أفعله يا أسيا؟

استأنفت أسيا تناول الطعام، وهزت متفيها لعمر لكي تجيبه على سؤاله. لا يوجد ما يمكن القيام به، كل ما تريده هو قول الحقيقة، والتي قد تكون هي بالفعل ما قيل لها مسبقاً. كانت أسيا عاجزة عن القيام بأي شيء، وهذا بحد ذاته يجعلها تخاف المقاومة، لأنها ستتسبب بألم قد يؤذيها دون تغيير أي شيء.

تناولا طعامهما، وتركت أسيا الأطباق في حوض الغسيل. وعادت برفقة زوجها إلى الطابق العلوي، لكنهم قبل أن يذهبوا لحجرتهم، تفقدت أسيا طفلها من جديد. كان جميل لا يزال نائماً، بينما زهرة غفت تواء، وسماعات الأذن عالقة بأذنها، والمصباح الجانبي لا يزال يضيء الحجرة.

أطفأت أسيا المصباح الجانبي تاركة الحجرة تفرق في الظلام فجأة، وسحبت سلك سماعة الأذن، وتركت هاتف الفتاة بجوار رأسها على الطاولة الجانبي.

دفعت الباب المقابل لغرفة زهرة، والذي كان يفصل حجرة حبيبة عن الجميع. راقبت أسيا التفاصيل الصغيرة الموجودة في الغرفة. لا شيء هنا ينتمي لحبيبة، أو تتذكر بأنها اشترته لها. كل تلك الأشياء وضعها عمر ليوهمها بفكرته. لم يكن هذا السرير البني هو سرير

حبيبته، ولا كل تلك الدمى رأتها أسيا من قبل. تقدمت أسيا إلى الداخل وبحثت بين الدمى المحشوة عن الأرنب الزهري الذي كانت تحبه، ولم تجده من بين الألعاب. هناك حلقة مفقودة في خطة عمر.

استدارت لتعود أدراجها، فوقعت عيناها على صورة مصغرة تحتوي على وجه حبيبة بأسنانها البارزة. شعرت بقلبها ينبض، وبحركة آلية ثبتت يدها على صدرها.

عادت إلى حجرة نومها، واستلقت بجوار عمر، لكنها تركت مسافة تفصل بينهما، وكل الشعور بعدم الأمان كان يبعدها عنه، رغم كونه قريبا منها جداً.

12 سبتمبر / 2019

6:11 صباحا / الوادي الغربي

عج منزل والد أسيا القديم، والذي هو الآن ملكها هي بحركة أصحابه. كان الطفلان يستعدان للذهاب إلى المدرسة، وعمر يستعد للخروج إلى عمله. لم تطرح عليه أسيا أي سؤال بشأن أي اختلاف رآته. كيف سيذهب إلى عمله البعيد، لماذا تلاشت همته تجاه العمل الذي لطالما أحبه. كان جميل الأكثر كسلاً في المنزل، لكن أسيا كانت تتصرف معه بطريقة وديعة لم يرها بوالدته منذ وقت طويل. أحب العطف الذي أظهرته أمه فجأة، وأدهش هذا التصرف عمر، فهي لأشهر طويلة كانت تبدو مجرد جسد متحرك لا يحمل أي روح.

شعرت أسيا ببعض الدوار، لأنها لم تنم إلا في ساعة متأخرة، ولم يشأ عمر أن يوقظها من النوم، لكنها صحت بسبب صوته وحركته في الحجرة. عندما وصلوا إلى الباب ساعدت أسيا عمر في حمل حقيبته، وودعت زهرة بقبلة على جبينها، ثم ظلت تلوح لهم ثلاثتهم وهم يسيرون إلى السيارة. لوح له عمر لكنها كانت لا تزال تراه كعمر آخر لا يشبه زوجها المحب أبداً.

دفعت الباب بعد أن رأت سيارة عمر تبتعد عنهم، وبقيت ذراعها مسنودة عليه، قبل أن تقرب جبينها من الباب الخشبي. فكرت كثيرا في خطواتها التالي، ولم تجد أي شيء تستطيع القيام به. استدارت فجأة، فأصبح الباب قريبا من ظهرها. اندفعت باتجاه السلم ومضت إلى غرفتها حتى تفتشها دون أن يقطعها أحد. فكرت في احتمال أن يكون عمر يراقب المنزل في غيابه، أو يصور الآن ما تقوم به. نظرت في زوايا المكان، وشعرت بالشفقة حيال نفسها لأنها وصلت إلى هذه المرحلة من القلق. فتحت كل الأدراج في غرفتها، ولم تجد أي شيء ذا أهمية. معظم الجرارات كانت تحتوي على أشياء تخصها هي. بعض الحلي القديم، وأوراق لم تفهم أهمية وجودها.

تركت غرفة نومها، وبحثت في غرفة جميل، لكن بحثها هناك لم يدم طويلاً فالطفل لم يخف عن والديه سوى رسومات طفولية تفتقر للإتقان. كررت أسيا الأمر في غرفة زهرة والتي كانت تحتوي على عدد قليل من الكتب، وصور لأفلام حديثة.

الوجهة النهائية كانت حجرة حبيبة. كان البحث فيها يسفر عن اندلاع الأسى في قلب أمها. كانت تبحث بين الدمى، وتكتشف تفاصيل طفولية مرحلة في كل العنايا التي كانت تجدها في الحجرة. لم يخف عمر عنها أي شيء مهم. لا يوجد أي شيء هنا يعقب خطة زوجها.

إلى أي مدى من الذكاء وصل زوجها؟

المحطة الأخيرة لعمر قبل توجهه إلى العمل، كانت هي مدرسة جميل. أراد جميل أن يترجل من السيارة وحده، لكن والده أصر على مرافقته إلى مدخل المدرسة، وهذا يبدو طفولياً أكثر مما كان يظهر به جميل أساساً. سار الأب بجوار ابنه إلى أن وصل إلى المدخل، وقبل أن ينطلق جميل إلى الداخل. قطعت طريقهم امرأة شابة أحاط شعرها القصير الأملس رأسها من الجانبين. وبسبب لونه الفاتح، كانت بشرتها تظهر بشكل شاحب، لكن هذا لم يفقدها جمالها.

ترتدي المرأة تنورة طويلة ضيقة، وقميصاً أبيض لم يتجدد بعد. دست أصابعها في شعر جميل، وحيته فحياها الطفل بدوره ثم انطلق إلى مجموعة أصدقائه، دون أن يلتفت لوالده من جديد. وقفت المرأة أمام عمر وحيته بطريقة أكثر رسمية.

- من الجيد أن أراك اليوم. كيف هي أحوال المنزل؟

- نحاول أن نكون على ما يرام. - أجاب عمر.

حاولت المرأة أن تظهر بعض الود في صوتها فقالت:

- لا تدعوا أفكاركم تهدم الأطفال. إن جميل يصبح انطوائياً أكثر مع مرور الوقت، واعتقد أن المنزل عامل أساسي في بناء هذه

الحالة. يبدو قلقاً وخائفاً معظم الوقت.

نظر عمر في عيني جين مطولاً، ضعفه في الأشهر الأخيرة، واهتمام هذه المعلمة ولد فيه شعوراً بالألفة تجاهها، والإعجاب كان يسبق شعور الراحة. كانت زوجته تذبل وغريزته تتجه نحو أقرب مخرج.

- نحن نحاول يا جين. إننا..

قاطعته هي:

- أعلم بأنك تحاول، وأنا لن أترك الأمر يفلت من يدي، إنني معه هنا. لكن عليك أن تزيد من تركيزك معه في المنزل. وتذكر يا عمر بأنني معك في كل الأحوال.

لا يمكن لجين أن تخفي إعجابها بهذا الأب المحارب أيضاً. كان إحساسها المتطفل تجاهه يحمل في قلبه حجماً كبيراً من البراءة التي شدت هذا الغريب في جانبها هي.

10:07 / الوادي الغربي

لم يكن لزهرة العديد من الصداقات، شعورها بالقلق والحزن

قبل ذلك جعلها تنطوي قليلا وتصبح أقل مرحاً انتقلت إلى هنا في الفصل الثاني من العام السابق، وقبل أن يتسنى لها تشكيل الصداقات غرقت في الحزن بطريقة جعلتها تمتنع عن إرخاء أسوارها للغرباء. كانت طفلة ذكية، لكنها تخجل من المشاركة. لا يغيظها أن ترى مجموعات الأصدقاء، بل كان يريحها نوعاً ما، أن يبتعد الآخرون عنها ويتركوا لها مساحة أفكارها الخاصة.

في وقت الفسحة جلست وحيدة في الفصل بصحبة كتاب جلبته معها من المنزل، قبل أن تدخل فتاتان غريبتان عنها، ويلقيان نظرة خاطفة على الفصل. لم تلقِ أيّ منهن التحية على زهرة، بل خرجن وسمعت زهرة إحداهن تقول من خلف الجدار وهي تبتعد:

- إنها غريبة أطوار، تماماً كوالدتها. تقول أمي إن والدتها أصيبت بالجنون.

أغلقت زهرة الكتاب بقوة، ونهضت باندفاع لم تتحل بمثله من قبل. تجاوزت باب الفصل وقالت بصوت مرتفع:

- وهل تعلمين ما الذي تقوله والدتي عن والدتك؟

استدارت الفتاة وألقت نظرة تساؤل على زهرة، فردت زهرة بغضب:

- تقول بأنها فضولية وفارغة ليس لديها أي شيء تقوم به سوى

التطفل على حياتنا، حتى أنها نسيت كيف تهتم بابتها المعتوهة.

تقدمت الفتاة ذات الشعر الأحمر القصير، وسألت زهرة إن كانت هي المعنية بهذه الكلام، فأجابت زهرة بـ: "نعم" خرجت مصحوبة بصوت غاضب.

- كيف تجرئين؟

- كما تجرأ والدتك عن التحدث عنا. وضعي في الحساب أنني مجنونة تماماً كوالدي، وإن تحدثت بسوء عن عائلتي، فلن أتردد في تدميرك أمام الجميع.

ظهر الخوف على محيا الفتاة ذات الشعر الأحمر وصديقتها، فسارتا مبتعدتين عن زهرة. عادت زهرة إلى الفصل، وجلست في مكانها محاولة أن تخفي حزنها بكل ما فيها من صبر، حتى لا تنكشف أمام الآخرين. لم تكن المدرسة مصدر قلق لها من قبل، حتى وإن كانت ترى نظرة الآخرين لها بغرابة. لكن هذا الشعور الجديد ولد في قلبها فجأة. منذ هذه اللحظة شعرت زهرة بأنها لا تريد أن تكون هنا الآن، ولا تريد العودة إلى هنا غداً، ولا في أي يوم آخر.

قضت معظم الوقت وحيدة، لا يهتمها أن ترسل اهتمامها إلى المعلمين أثناء الشرح، إلى أن قاطعها معلم مادة التاريخ، وسألها سؤالاً مباغتاً. أجابت بصوت متوعك: "لم أنتبه". ورغم أن تشتتها لم يثر أحداً إلا أن زهرة نقلت عينيها بين الطالبات لترى أي نظرة

سخرية في أعينهن. لكن أحداً منهم لم ينتبه، وحدها من كان يشعر بالقلق.

كسر صوت الجرس نمط الدرس، ونهض الجميع متجهين إلى الباب. كانت زهرة هي آخر من خرج، وهذا أتاح فرصة لمعلمها، حتى يناديها وحدها.

- هل أنت بخير يا زهرة.

- أجل.. إنني على ما يرام.

نظر إليها المعلم متفقداً صحة الكلام التي لم تظهر عليها، ثم قال:

- لا تشردين أثناء الحصص بالعادة، ولم تفتك معلومة من قبل. إذا كان هناك ما يمكنني المساعدة به، فأنا لن أتأخر. لا تترددي في قول أي شيء لي. هل هذا مفهوم؟

هزت زهرة رأسها قبل أن تخرج من الفصل، وهي تشعر بأن حقيبتها ثقيلة، وكأن العالم حط فوق كتفيها، وليست الحقيبة هي ما يتعلق بها فقط.

لم تجد أسيا هاتفها في أي مكان. كانت تحتاج للبحث عن أرقام

كل معارفها القدامى، فهم حتما يمتلكون أي دليل يكسر هذه الخطة. لم تجد هاتفها في أي مكان. شعرت بالغضب لأن الساعات ستمضي وسيعود عمر إلى المنزل قبل حلول المساء، وهي لم تجد أي شيء يمكنها استغلاله. بل إن سبب غضبها الأول، هو أنه سلب منها هاتفها وهذا ما لا يحق له فعله.

عبرت في الحاسوب القديم في المنزل، وحاولت الوصول إلى حساباتها القليلة الموجودة في مواقع التواصل الاجتماعي. في كل محاولة كان يظهر لها أن الرقم السري خاطئ. استخدمت تاريخ ميلادها ولم ينجح الأمر، وبعدها فكرت في أنه من الممكن أن تكون غيرتهم إلى تاريخ ميلاد حبيبة، وكانت النتيجة هي أن الرقم غير صحيح. حاولت الوصول إلى بريدها الإلكتروني، ومن خلاله ستضع كلمة مرور جديدة.

وضعت عنوان بريدها، وتبعته بالرقم السري، والذي لم تنسه يوماً. لكن النافذة أمامها أعلنت بإخطار أحمر، أن هذا العنوان غير مسجل بعد. كورت أسيا قبضتها وضربت الطاولة الخشبية. كتمت صرختها وابتلعت كلمة "حقير" التي كانت تعني بها زوجها. لم يترك لها أي ثقب ترى منه النور، أحاط كل الجوانب المكشوفة. إنه يريد أن ينسلخ عن الواقع، أن يحيطها بهذا الجنون المصطنع.

قام عمر بأخذ هاتفها، وإلغاء كل وسائل التواصل لديها. إنها لا تتذكر أرقام أصدقائها، وتحتاج إلى هاتفها حتى تصل إليهم. لكنها بحثت عن أسمائهم في محرك البحث. كتبت اسم ياسر وهو

صديق قديم لا تتواصل معه دائماً وهذا بسبب انشغاله مع فرقته الموسيقية.

ظهرت نتيجة البحث أمامها، وكانت المدونة التي أمامها تظهر صديقها، ولكن عبر صور متدنية الجودة، وأحدثها تم نشرها قبل عام من الآن.

- هذا غير معقول.

همست أسيا لنفسها بذلك، ثم أسندت رأسها على يدها، وهي تراقب الشاشة المضيئة أمامها. لقد وجدت صفحة ياسر قبل أربعة شهور عن طريق المصادفة، بعد أن رأت إعلانا الكترونيا لحفل يقيمه هو على المسرح مع فرقته. لكن كل تلك المنشورات لم تعد موجودة، ليست إلا وهماً.

قامت بإنشاء مدونة سريعة، لم تتابع من خلالها أحدا، ولم تضع صورة تعريفية لها. تدرك أسيا بأن ياسر لن يتعجب لتطفلها عليه، رغم أن لقاءهم الأخير كان قبل ما يقارب العام أو أكثر بقليل. بعثت له برسالة مباشرة تقول له بأنها أسيا صديقه، وتحتاج لأن تقابله.

أغلقت المحرك وتذكرت فجأة صديقتها الأقرب لمياء، إنهن على تواصل دائم مع بعضهن، ويمكن للمياء أن تخبرها عما حدث في الأيام الأخيرة. بحثت ولم تجد سوى صفحات مطابقة للاسم، لكن أياً منهن لم تكن صديقتها. أغلقت أسيا كل النوافذ، وقامت بإيقاف

عمل الحاسوب. حاولت أن تتذكر أي رقم هاتف يخص معارفها، لكنها لم تجد في ذاكرتها أي شيء. بعد مرور الوقت وأثناء المحاولات، تذكرت رقم هاتف منزل لمياء. ضغطت ببطء على مفاتيح الهاتف المنزلي، ولم تكن متأكدة من الرقم الذي تطلبه تماماً.

أتاها صوت بعد عدد رنات قليل:

- مرحباً.

- مرحباً. - قالت أسيا، ثم سألت بتردد - هل هذا منزل لمياء؟

زال صوت أنفاس المرأة على الطرف الآخر، ثم قالت:

- لا، هذا ليس منزلها. من الذي يتحدث؟

- أنا أسيا. من أنت؟

- لا أعرف من تكونين، لكن إن كنتِ تبحثين عن ابنتي لمياء، فهي لا تعيش هنا، لقد انتقلت منذ وقت طويل. أعيش هنا وحدي منذ سنوات.

شعرت أسيا بوجود خطب ما. هذا الصوت لا يشبه صوت والدتها صديقتها التي سافرت منذ وقت طويل، وتركت منزلها لابنتها، بل إن الحكاية على العكس تماماً الآن. لمياء هي من سافر.

- انتقلت إلى أين؟

- إنها تعيش على بعد ساعة من هنا.

- هل يمكنك أن تعطيني عنوان منزلها، أو أي وسيلة تواصل تؤدي بي إليها؟

- بكل تأكيد، انتظري.

تخيلت أسيا المرأة وهي تترك السماعة على الطاولة التي اشترتها لمياء خصيصاً للهاتف، وتبتعد، ثم سمعت صوت حركتها وهي تقترب من الهاتف، وتملي رقم هاتف آخر على أسيا.

- شكراً لك. قالت أسيا ذلك، ولم تنتظر رداً، بل أغلقت الهاتف.

6

11:08 صباحا / الوادي الغربي

سمعت أسيا صوت رنين مطول، لم يكن يتسبب لها بالملل، بل الخوف أيضاً. كانت قلقة من أن تجد هذا الباب مغلقاً أيضاً، وهو حتى الآن كل ما تملك. فجأة سمعت صوت حركة سريعة، وأجاب صوت ذكوري بملل ليسأل عن هوية المتصل فوراً.

- هل هذا منزل لمياء؟

- أجل، هو. من هناك؟

عرفت أسيا عن نفسها، بالاسم الأول، ثم أردفت بصفة الصديق. لم يبد على الرجل أنه يفهم ما تقوله لذلك اكتفى الرجل على الطرف الآخر بالصمت. ودت أسيا لو أنها تسأله عن هويته، لكنها لم تفعل.

- هل يمكنها أن تعاود الاتصال بي؟

- على الرقم ذاته؟

- أجل. - أجابت أسيا

ثم أغلقت السماعه، وأدركت بأن البريق المصحوب بهذه المحاولة، قد زال، وأصبحت باهتة الآن، لكنه لم يحرمها من الانتظار وحرقة. تركت محاولاتها في البحث عن الحقيقة، وجلست بلا هدف منتظرة الوقت حتى يمضي بها إلا أي تحول آخر.

أعلن صوت باب المنزل، عودة أفراده، في البداية دخلت زهرة حاملة حقيبتها، ومن دون أن توجه أي كلمة لوالدتها اختفت عبر السلم، ومن ثم دخل عمر ومعه جميل، وكلاهما يظهر عليه التعب. حمل عمر بيده أكياس طعام خارجي، كما لو كان يعلم بأن أسيا لن تعد طعام الغداء لهم.

ساعدته أسيا في حمل الطعام إلى المطبخ، وأفرغته في أطباق المنزل، بينما كان زوجها في غرفتهم يغير ثياب العمل غير المريحة. تجمعوا من جديد على المائدة، وكانت زهرة هي آخر الواصلين.

- أنا آسف، لأنني لم أعد الطعام لكم.

- لا عليك يا عزيزتي. - قال عمر ذلك.

تدخلت زهرة فجأة وقالت بغیظ:

- هذا ليس أمرا جديدا.

دهشت أسيا لسماع تلك الكلمات، ووجهت نظرها نحو ابنتها التي لم تمس طعامها، بل تركت طبقها في مكانه حيث وضعت أمها. رمى عمر نظرة غاضبة على زهرة، وبسبب ذلك نهضت الفتاة، وتوجهت إلى حجرتها من جديد.

لم تتناول أسيا غداءها، وكان عمر يجبر نفسه على فعل ذلك، بينما جميل، لم يظهر عليه أي اهتمام لما يحدث، بل إنه لم يفهم ما يجري حتى. انتظرت أسيا زوجها وابنها أن يفرغا من تناول الطعام، ثم حملت ما تبقى منه ووضعت في البراد، وقامت بتنظيف الأطباق.

أتى صوت رنين الهاتف الأرضي كمفاجأة حطمت السكون الذي ولد حديثاً بعد إن اختفى أفراد العائلة. تركت أسيا الأطباق في حوض الغسيل، وتحركت بسرعة نحو طاولة الهاتف. حملته وبطريقة آلية ضغطت إصبعها على زر الإجابة.

- أسيا! - أتى صوت حاد ومزعج على الطرف الآخر، وكان بإمكان أسيا تمييزه بسهولة.

- لمياء. - تنهدت أسيا، ثم كررت - لمياء، هذه أنتِ حقاً. إنها أنتِ.

خرج الصوت من حنجرة أسيا مصحوبة بارتجافة سببها الفرح. كانت سعيدة لأنها أخيراً وجدت شيئاً واحداً منطقي منذ أن استيقظت في المستشفى. تلاشت كل الشكوك التي صاحبت أسيا

تجاه صديقتها، كونها تعيش في منزل آخر، ويجيب رجل غريب على هاتفها.

- من الجيد سماع صوتك بعد كل هذا الانقطاع. أين كنت؟

أبعدت أسيا الهاتف عن أذنها، وهمست أمام الجهاز المحمول بيدها: "انقطاع". عن ماذا تتحدث؟ لم تنقطع أي منهن عن الأخرى. بل كان آخر تواصل بينهما قبل أسبوع واحد، قبل أن تسافر لمياء في رحلة لتنسيق معارض فنية مع الوكالة التي تعمل بها. ولولا عمل لمياء لكانت رأتها في عيد ميلاد حبيبة.

- اتصلت على منزلك فأجابت..

قاطعها صوت لمياء:

- أخبرتني والدتي بالأمر. تخيلت أسيا ابتسامة صديقتها متبوعة بالصوت المبتهج - إنها تعيش في منزلي، أما أنا فمنزلي بالقرب من الساحل، يمكنك أن تزوريني يا أسيا. أنا حقاً سعيدة لأنك وجدتني بعد كل هذه المدة الطويلة.

- أنت محقة، يجب أن أراك. إنني أعيش في الوادي الغربي، ويمكن لإحدانا أن تزور الأخرى.

ترددت أسيا أثناء اختيارها للفرص المناسبة، فعمر سيفسد الأمر

بكل تأكيد، ولن يدعها تقابل صديقتها. فاختارت لمياء يوم السبت في فترة الغداء. لم تعترض أسيا على ذلك، وفكرت في أنها ستجد حلاً للوصول إلى لمياء، وإن اضطرت للكذب.

5:42 مساءً / الوادي الغربي

- الجو يبرد أكثر، ألا ترغبين من الدخول؟

ألقي عمر سؤاله على أسيا، فغيرت توجه بصرها الذي كان يتبع ضوء الشمس الأخير قبل غروبها خلف الأفق البعيدة التي قتل الخريف خضارها، ونظرت إلى عمر الذي ما زال يحتفظ بملامح بريئة كاذبة، يجعلها تصدق قلقه عليها. أخبرته بأنها لا تشعر بالبرد، وما زالت ترغب في الجلوس هنا.

سار هو ببطء، وجلس إلى جوارها، فكان هذا يمثل طفلاً غريباً لخلوة أسيا التي فقدت بهجة العالم، وسقطت من عينيها فجأة. ما عادت أمسيات الخريف حميمة كما كانت، ولا وحشة الشتاء المنذرة بالشتاء والألفة شيء محبوب لديها. شعرت بأنها تهوي وتتلاشى. إنها تقترب من النهاية الخطرة، وما سيأتي لا تستطيع تخمينه أبداً.

- أتذكر أيام زواجنا الأولى. أتعلمين بأنها رغم جمالها إلا أنني لا أحييها في خيالي غالباً. نظرت أسيا إليه بتساؤل فقال - بل أحب

الأيام التي أتت فيها زهرة على هذه الحياة. أفضل أن أتذكر الطريقة التي تحولنا فيها من فردين إلى مجموعة محبة.

- وماذا حدث الآن؟ تدمر هذا كله؟

قال بطريقة دفاعية أبوية:

- لا! الجزء الكبير لا يزال بحوزتنا. فقدنا بعض صفحات الحكاية، لكن المزيد بحوزتنا. لم يكن لنا سلطة، ولا نستطيع تغيير ما حدث مع حبيبة، لكننا على الأقل نملك القوى للاستمرار.

"لا تصدقيه". حذرت أسيا نفسها، من دون أي صوت ظاهر. لكنها سمحت له برؤيتها مستسلمة لظنونه بأن كلماته قوية عليها. تلاشى كل ذلك السكون، وطفح سؤال وحيد في خيالها، ولم تكتمه، بل قالت:

- كيف ماتت حبيبة؟

- ألم تكتفي من هذه الحكاية؟ كانت تلهو هنا. أشار للمرج ثم أكمل - قبل أن تجرّها خطواتها لتقطع الطريق، فيصدمها سائق شاحنة صغيرة. لم يدرك أحد منا بأنها في الخارج، كانت دائماً بارعة في التسلل إلى الحديقة. لم نتصور بأن هذا سيحدث.

- وما الذي حدث للسائق؟

- لم يكن خطأه يا أسيا. الفتاة هي من قطع الطريق فجأة، لا يمكننا لومه، بل علينا أن نلوم أنفسنا. لكن هذا قدرها، وقدرنا سيأتي مهما حاولنا أن نعكس ذلك. نحن لا نختار واقعا آخر، ولا يمكننا تغيير الوقت. الوقائع تهبط علينا سواء قبلنا بها، أو رفضناها.

سألت أسيا بضعف عن مكان قبر حبيبة، فتنهد قبل أن يخبرها بأن القبر هنا، في الوادي الغربي، وهي مدفونة بجوار والديها. فطلبت منه أن تزور قبر الفتاة. أراد عمر أن يعترض، لكنه تذكر بأن كل الأحداث القديمة محيت من رأسها، وإن كان هذا سيضغط على جراحها، قد يساعدها أيضاً على استرداد ذكرياتها.

- سنزوره غداً. - قال مستسلماً.

- شكراك. - قالت أسيا ذلك، وهي تعتقد بأن هذا حقها، ولا يستحق أن تشكره عليه.

بعد حلول الظلام بوقت قصير، رجاها عمر أن لا تبقى جالسة في الخارج فالحجو أصبح أبرد مما كان عليه قبيل الغروب. نهضت أسيا، وتبعته إلى الداخل، حيث كان جميل وحده من يجلس في غرفة المعيشة، ويلهو بكراسة تلوين لم ترها أسيا لديه من قبل.

صعدت أسيا إلى غرفة ابنتها زهرة، وطرقت الباب، لكن الفتاة لم تجب. دفعت الباب برفق فرأت زهرة جالسة أمام مكتب صغير،

والسماعات تحجب قدرتها على استيعاب وجود والدتها هنا. نقرت
أسيا على كتف ابنتها فقفزت الفتاة خائفة، وانزلت السماعة من
أذنها.

- أُرعبتني. - قالت بلهجة التذمر.

- أعتذر عن هذا يا زهرة. كما أنني أعتذر عن كوني أبدو لك غريبة.
لم أخطر أن أظهر بهذه الصورة التي لا ترضيك.

قالت الفتاة معترفة، وغير مكترثة لشعور والدتها:

- لست وحدي من يرى هذا. الجميع يعتقد ذلك.

- لا يمكنني أن أعتذر للجميع، لا أحد منهم يعينني. أنا أعتذر لمن
يهمني رضاهم فقط. لم أخطر حكايتي، ولا أقبل بالمعاناة، فهي ليست
أمرًا اختياريًا. لم يعرض على أحد السعادة، ويرفضها ليختار الحزن.
أنا أعاني، وهذا واضح يا فتاة. وأنا والدتك، أعنيك أكثر مما يعتقد
الآخرون عني، لذلك لا تكوني خصمي مع الحياة. بل ساعديني
لأتجاوز هذه المرحلة السيئة.

هزت الفتاة رأسها بتفهم، وظهر عليها العجز. فمدت أسيا أطراف
أصابعها لتلمس بها وجنة زهرة.

- لا يمكنني أن أعدك بشيء، لكن عليك أن تدركي بأن محبة الأم

لا تحتاج وعودا، كما أنها ليست مشروطة. إنني أحبك مهما حدث،
ومهما بلغ حجم العطب الموجود في رأسي. حتى إن سرقني
الجنون، فأنا أحبك خلف جنوني، وسأبقى كذلك.. سأحبك من خلال
هذا الهذيان.

أخفضت الفتاة رأسها، قبل أن ترفع كفها الصغير وتمسك ذراع
والدتها وتقول:

- وأنا سأبقى قوية، لأنني أعلم أن حبك لي، لن ينتهي.

- هكذا.. أكملها.

نظرت أسيا لابنتها مترقبة إياها أن تكمل العبارة التي كانت دائما
تردها لها، قبل ذهاب الفتاة للمدرسة، لكن زهرة راقبت والدتها
بصمت، دون أن تفهم ما كانت تعنيه.

- هكذا، دائما.

قالت زهرة مرعدة العبارة خلف والدتها كما لو أنها تعرفها للمرة
الأولى:

- هكذا دائما.

أختف أسيا خيبتها من نسيان زهرة لتلك العبارة التي كانت تردها

لها كل يوم تقريباً، وكانت الفتاة تكملها عنها. لكنها لم تعط الأمر أكبر من حجمه، فهي سعيدة لأنها جبرت كسر الفتاة الصغير قبل أن ينتهي هذا اليوم.

13 سبتمبر / 2019

9:00 صباحا / مركز العاصمة التأهيلي

قطعت أليكس طريقها إلى مكتب ليث، ولم يكن في رأسها أية أفكار جديدة، فحتى بقايا الأفكار المتعلقة بالدراسة، تلاشت مع بداية يومها الجديد. تحركت أليكس بمرونة وهي تشعر بجسدها مشدودا بسبب رياضتها الصباحية المعتادة. عندما دلفت إلى الحجرة الصغيرة التي يتواجد بها زميلها، أبعدت شعرها الذهبي الذي ينسدل على جانب واحد من رأسها. أهدته ابتسامة، فاستقبلها هو بكلمات الترحيب. جلست على الكرسي المقابل له، وقالت بحماس:

- سأبشر علاج الحالة الجديد. لقد بدأنا بالعقل، لكن لم نجد أي خطوة محسوبة حتى الآن. أما الآن فأنا أفكر في اتخاذ أساليب جدية في العلاج.

تلاشت ابتسامة ليث، وقال:

- هل الأساليب الجدية، تتضمن تركك للحالة ترحل من هنا.

- لا، لم يكن هذا جزءاً من العلاج. لكنني أؤمن بأنها لم تصل إلى التدهور الذي يتطلب دخولنا ورعايتها لها. لماذا لا ندعها تخرج، وتكتشف حقيقة الأمور وحدها؟ سيكون العثور البطيء على الإجابات، أقل إيلاماً من الإحساس بالعلاج الإجباري.

زم الطبيب شفتيه، وبدا مقتنعاً وهو يقول:

- أنتِ أعلم بمهامك يا أليكس.

- لم آت إليك لتخبرني بذلك. بل كنت أريد أن تعتقد بأنك ثقتك بي لا تزال في مكانها الصحيح، أنا أتسلم زمام الأمور الآن. أليس هذا ما أردته؟

- وهو بالفعل كذلك. أنا أثق بك مهما بدت طرقك غريبة علي.

دعت أليكس زميلها، ليشاركها الجولة الصباحية حول المرضى الموجودين في المستشفى، وكانت خلال جولتها تنعزل عن مفاهيم العالم الثابتة، لأنها تتنقل بين قصص لا يصدقها العقل، ومعتقدات مجنونة لا تحتمل. هؤلاء المرضى، كانوا يبعثون بالأسى على قلبها، لكن الحزن الموجود أصبح شيئاً اعتيادياً تستطيع أليكس أن تتجاوزه.

- هل لا تزالين على تواصل مع فيرا؟ - سألها زميلها.

- وسأبقى كذلك.

لقد جمعت علاقة قديمة بين ليث، وشقيقة أليكس، لكنها لم تكن سوى تجربة لم تحي أي مشاعر في قلب أي منهما. لكن هذا لم يمنع ليث من الحزن على فيرا حين تزوجت من رجل آخر.

ولدت الذكريات القديمة في ذهنه، وتلاشت مع شعور بالحنين غير المؤذي، فليث يعيش حياته بطريقة تناسبه تماماً الآن. أشاحت أليكس ببصرها عن الطبيب، ووجهته إلى الأوراق الموجودة بيدها، والتي كانت تحتوي على بيانات المرضى بأرقام أسرتهم.

- وأنت أخبرني يا ليث، كيف تسير حياتك؟

- كما يجب أن تسير حياة أي طبيب وحيد في هذا العالم، لا شيء مهم، ولا شيء جديد. والجزء الأهم لا شيء يؤذيني أو يزعجني.

- هل الوحدة هي ما يحميك من الإزعاج.

صح لها ليث:

- العزلة هي ما يحميني من الصخب المؤذي.

- لكن عزلتك طالت كثيراً إلى أن أصبحت قيد.

لم يتمكن ليث من الاعتراض على تعريفها لحالته، ولم يؤيدها. فهو يدرك بأن في كلماتها مفهوما صعب الشرح، والجزء السطحي والمباشر بعبارتها، كان سليما.

لم تدم جولاتهم كثيراً، فهذا الروتين يتكرر طوال أيام العمل، ولسنوات، حتى باتت أليكس تعرف جيداً كيف يمكنها تلخيصه. ساعدها ليث في تدوين البيانات الجديدة، والتي لا تختلف عن كل مرة تقوم فيها أليكس بجولاتها بين المرضى.

عبرت أليكس برفقة ليث إلى العنبر التالي، وهناك وجدت إحدى المريضات التي تعلقّت بها أليكس بطريقة قوية خلال الأيام الأخيرة في المركز. كانت راجية سيدة حكيمة، تسير في عقدها السابع، لكنها لم تتخل عن قوتها الجسدية. ما أتى بها، كانت نوبات النسيان التي تطورت ليتم تشخيصها بالزهايمر. لم تكن قد وصلت إلى حالة ميئوس منها، بل كانت تنسى تفاصيل بسيطة بين حين وآخر. ولأن ابنها الوحيد، لم يكن بالقرب الكافي منها ليحميها من عقلها، فأنت هي بنفسها إلى هنا، حتى لا تتسبب بأي خطر على نفسها، أو محيطها في المستقبل.

- كيف حالك هذا النهار يا راجية؟

تذمرت بكلمات غير مفهومة، عقدت حاجبها حتى ضغط التجاعيد على جبهتها كلها. وحين أدركت بأن أليكس لا تفهم كلماتها، كررت ما

قالته ببطء:

- لم يقدموا لي مربى التوت هذا الصباح، وحين أطلبها فهم يعاندون رغبتى، ولا يأتون لي بها. لا يجلبون لي ما أحب إلا حين لا أكون راغبة بوجوده.

ابتسمت أليكس، ثم علقت ساخرة:

- هذا هو مبدأ الحياة. ما نريده لا يكون بحوزتنا، وحين نكتفى من رغبتنا تجاهه يأتي. لذلك عليك أن تكفى في طلب المربى، وستأتيك من تلقاء نفسها.

تلاشى غضب راجية، وابتسمت. ثم سألت أليكس عن أحوالها اليوم. لم تكن أليكس متأكدة ما إذا كانت راجية تذكرتها فجأة أم لا، لأن هذا الغضب لا يظهر عليها عادة.

خرجت أليكس من العنبر الأخير وسارت بجوار ليث الذي علق على حالة المريضة الأخيرة:

- مسكينة هذه المرأة. لقد استسلمت للأمر من تلقاء نفسها، خوفاً من أن تجرّها الوحدة إلى مكان لا تجد فيه من يساعدها.

- هذا صحيح. إننا نثق بقوتنا تجاه الأشياء، لأننا على يقين من أنها آخر سلاح لدينا. لكن حين تتداعى قوتنا نحن ولا نجد أي شخص

آخر، فهذه تكون الضربة الأقسى.

قطع الحديث، شعور أليكس بأن هاتفها كان يهتز في جيب بدلتها. جرت له للخارج، ورأت رقم منصور عامل المختبر يظهر على الشاشة أمامها. رغبت في أن تنتظر وصولها إلى المكتب، وتجيّب على المكالمة من دون وجود ليث، لكن فضولها منعها.

- أليكس، هل أنت في المركز؟

- أجل. ما الأمر يا منصور.

- أعتقد بأن هناك شيئاً يجب أن تراه في تحاليل حالتك الأخيرة. يجب أن تطلعي عليه أنت قبل وصوله لإدارة المستشفى.

10:02 صباحاً / الوادي الغربي

لم يكن في نية أسيا، أن تعد الطعام لعائلتها، لكنها عندما تذكرت تعبير الأسى على وجه زهرة شعرت بأن عليها أن تفعل ما يوحي لها بأنها لم تتخل عن واجبها كأم بعد. لذلك فكرت في الأطباق التي كانت تجيد إعدادها، ودونت ما تحتاج إلى شرائه من البقالة، ثم تأكدت من مقدار المال الموجود في حقيبتها. كان لديها ما يكفي ويزيد قليلاً عن حاجبتها. لم تجد بطاقات ائتمان، بل مجرد قوية، ورخصة قيادة وبعض الأوراق النقدية.

طوت أسيا ورقة البقالة ودستها في حقيبتها، ثم حملت حقيبتها، وسارت مبتعدة عن المنزل عبر الطريق المرصوف، وصولاً إلى الطريق الواسع المؤدي إلى قلب البلدة. لم تحب أسيا أن تتجول في هذه البلدة، بل كان مقصدها الوحيد هنا، هو المنزل الكبير الموجود خلفها. كانت تأتي من أجل والديها في أيام العطل، ولم تشعر بالرغبة في تفقد المدينة، لكن بما أنها قضت أياماً عديدة في هذا المكان، وهو مرتبط بطفولتها، لم يكن من الصعب عليها أن تجد محل البقالة.

توزعت المحال في أماكن متفرقة كان هناك صالون نسائي صغير، لم تر أسيا أي امرأة تدخل أو تخرج منها. وهناك أيضاً صالون آخر رجالي بعيد عنه، وكانت تعرفه لأنه موجود منذ أيام صباها.

عندما وصلت أسيا إلى محل البقالة، كان المكان خالياً، وعبر
الواجهة العريضة الزجاجية، كانت شمس النهار تقتحم المكان بقوة
مضيئة الفراغات الموجودة بين الممرات، وجاعلة ظل الرفوف يهبط
مائلاً على الأرض. تجاوز أسيا رف المعلبات، وصولاً إلى الثلاجة ذات
الأبواب الشفافة، لكن قاطعها صوت منادياً:

- أسيا. كيف هي أحوالك الآن؟

التفتت أسيا، ونظرت باستنكار للمرأة ذات الجسد الممتلئ، والتي
تقف على مقربة منها بحيث يصبح قصر قامتها واضحاً لأسيا. بدت
المرأة صديقة، أكثر مما هي فضولية.

- أنا بأفضل حال.

- من الجيد رؤيتك تخرجين يا عزيزتي.

ابتسمت أسيا مجاملة المرأة الغريبة، ولم تعلق بأي كلمة. اقتربت
المرأة وقبضت على يد أسيا وتلفظت بكلمات مواساة لم تكن أسيا
بحاجة إليها.

- عزيزتي. أنا دائماً بجوارك. يمكنك زيارتي كما اعتدت أن تفعلي
عندما انتقلتم إلى هنا. ما حدث لكم أمر محزن، لكنني أفقد
صديقتي جداً، وكم أرغب في أن تزوريني وأن نجلس سوياً أنا وأنتِ

كما اعتدنا أن نفعل حين يخرج الأطفال.

أرادت أسيا أن تخبرها بأنها لا تعرفها، ولا تتذكر حتى مكان منزلها.

- سمعنا جميعاً بما حدث معك قبل يومين. يبدو الأمر غريباً حقاً.
ألا تتذكرين كيف حدث لك هذا. أصبح الجميع هنا يلفق الحكايات
البعيدة عن الصحة، لكننا ما زلنا نجهل الحقيقة.

- أعتقد بأن لصاً تهجم علي، وحاول سرقة ما أملك. لهذا أنا لا أتذكر
أي شيء. أتت الضربة على رأسي وأفقدتني كل ما أتذكره. لا أحتفظ
إلا بتفاصيل قليلة جداً، كالعائلة، وطفولتي.

سألتها المرأة:

- حتى أنا لا تتذكريني؟

- لا. - شهقت المرأة وابتعدت خطوة عن أسيا.

- أنا رسيل، جارتك على الطرف الآخر من الطريق. لقد تعرفنا على
بعضنا منذ أول يوم انتقلتم به إلى هنا. وأصبحنا صديقتين بسرعة
كبيرة حتى.

اهتز جوف أسيا لشعورها بالعجز. شكت بأن الخداع يقتحم
حديتهم، لكن أكثر ما كان واضحاً بالنسبة لها هو شلل قدرتها على

فعل أي شيء. لمعت عينيها بدموع مفاجئة. إنها هنا وكأنها لم تفقد شيئاً، إنها تتماشى مع شكل الحياة الغريب عليها. أصبحت آسيا تتصرف برضوخ لهذا الواقع.

- لا عليك يا عزيزتي. أعلم بأن الأمر خارج عن قدرتك. لا داعي لهذا الحزن. سأعود معك إلى المنزل ونتحدث في الأمر إن أردت.

- علي أن أحضر الغداء لعائلتي.

ضغطت رسيل على كتف آسيا وقالت:

- هيا أخفي هذه الدموع، كلنا نقف إلى جانبك. سأزورك أنا، وأساعدك في تحضير الغداء. لا أريد أن تشعرني بأنني أتطفل على حياتك. لكنني أرغب حقاً في مساعدك.

لم ترفض آسيا عرض رسيل، فهذه المرأة قد تساعدها في اكتشاف الحقيقة. إما أن تكون جزءاً من خطة عمر، أو أن آسيا حقاً من فقد صوابه.

لم يتدخل أحد ليعكر خلوة زهرة خلال فترة الفسحة، بل تجرأت هي من تلقاء نفسها على الخروج من الفصل، والسير إلى فناء المدرسة الخلفي. تناولت جزءاً من طعام الغداء، وتركت ما تبقى

منه في مكانه. كانت الثقة التي اكتسبتها بفعل كلمات والدتها في الليلة الماضية، قد أتت بمفعولها. لم تشعر بأن نظرات الطلاب الآخرين غريبة عليها، بل كانت تشعر بأنها بعيدة عن عالمهم الطفولي الصاخب.

ظهرت أمامها من جديد الفتاة الصهباء التي تشاجرت معها في الليلة الماضية. كانت الفتاة تنظر مباشرة إلى زهرة، وتسير نحوها. خمنت زهرة في أن مشكلة ما آتية في الطريق، لكن ملامح الفتاة الأخرى لم تظهر أي شيء. بل كانت تترقب الوصول إلى زهرة التي تجلس وحدها.

- أردت فقط أن أعتذر عما حدث بالأمس.

ثبت رأس زهرة، وهي تنظر للأعلى تجاه الفتاة الواقفة.

- انتهى هذا الأمر الآن. أنا لم أقصد ما قلته كذلك.

جلست الفتاة بجوار زهرة، وهي تعرف عن نفسها:

- أنا سالي بالمناسبة.

- وأنا زهرة.

لم تكن زهرة قادرة على تحديد ما إذا كان ما يحدث الآن هو بادرة

لصداقة قادمة، أم أن الفتاة كانت تشعر بالذنب، وأرادت أن تمحو شعورها فقط. بكل الأحوال كانت اللحظة سعيدة بالنسبة لها، فهي لم تعتد على التقاط اهتمام أي أحد خارج محيط العائلة.

- يمكننا أن نتناول طعامنا معاً، لا داعي لأن تجلسي وحدك.

- أنتِ لديك صديقات، ولا أود أن أكون دخيلة.

اتجه نظر الفتاة بعيداً، باتجاه الباحة الخالية. رسمت زهرة صورة مغايرة لسالي، وهذا بسبب الفتيل الذي أشعلته سالي بالأمس. لا يوجد بين سالي وزهرة فارق في السن، وهن الآن يعبرن خلال مرحلة انتقالية، ترسلهم إلى المراهقة وإلى طريقة حادة في فهم العالم المحيط بهم. لم يعد العالم ساذجاً بالنسبة لهم، والسطحية الأولى زالت، ولكنهن بعيدات حتى الآن عن وضوح العالم، وهذا ما يجعل زوايا العالم حادة بالنسبة إليهن.

أرادت سالي أن تشرح لزهرة، كيف أن الفتيات الأخريات، لم يكن صديقات أبداً. إنهن يفضلن اللهو، واللعب بما تملكه هي، وهذا ما يجعلهن صديقان. لم تكن سالي نفسها تفهم الأمر بهذا الوضوح، لكنها أعجبت بتسامح زهرة، وهذا كان أول تمهيد للصداقة بينهما.

- يمكننا أن نتناول طعامنا أنا وأنتِ.

لم تود زهرة أن تسرق سالي من عالمها الممتلئ، لكنها أعلنت عن

موافقتها بابتسامة.

تتقلص الحلول أمام الإنسان، كلما تشابه الواقع بالكذب في حياته. نحن نصنع الكذب أحياناً، ولا نقدر حجم السوء فيه، إلا عندما نعيش فيه. أقسى أنواع الخداع هو ما نصنعه لنعيش فيه نحن. لأننا نجهل فيه طريق العودة، أو غالباً ما ننسى أن نصنع له مخرجاً، نرمي أفكارنا فيه هروباً من الواقع، وحين يحتاج الواقع إلى عودتنا، فإننا نجهل السبيل إلى ذلك.

تركت أسيا أكياسها على طاولة المطبخ، وشرعت في إفراغها، لكنها كادت أن تقفز مجفلة، عندما رأت رسيل تقتحم المطبخ عليها. أدركت جارتها أنها تسببت في خوف أسيا فقالت:

- الباب، كان مفتوحاً. اعتدت أن أفعل ذلك فيما مضى، اعذريني.

قهقهت أسيا، عندما أدركت مقدار السخف في مظهرها الخائف، ثم قالت ملوحة بيدها:

- لا عليك. لم أتوقع وجود غيري هنا، هذا كل ما في الأمر.

جاملتها رسيل بابتسامة بلهاء، لم تخف بها شعورها بالإحراج مما قامت به. اعتذرت من جديد لأسيا على تطفلها، فتجاهلت أسيا هذا

الاعتذار مثبتة بذلك، أن ما حدث ليس أمراً ذا أهمية. قامت أسيا بتفريغ الأكياس، ونقلت ما فيها إلى البراد.

- ساعد لنا الشاي. - عرضت أسيا.

نهضت رسيل، وهي تقول:

- أنتِ اشرعي في إعداد طعام الغداء، وأنا ساعد الشاي لنا.

لم تتمكن أسيا من إخفاء شعورها بالحذر. كانت ترمي نظرات تفقد إلى رسيل بين حين وآخر. فهي لا تعرفها، ولا تثق بها رغم كل ما أوحى به من راحة تجاهه. كانت أسيا بارعة في إظهار شعورها بعدم القلق، لكنها كانت خائفة من هذه المتطفلة، وطريقة اقتحامها الغريبة للمنزل. لا بد من أن عمر أعطائها هذه التعليمات.

- كيف حال الأطفال؟

أتى السؤال متأخراً عن وقته، لكن أسيا أجابت بواقعية، وأخبرت رسيل بأن الأطفال مشتتون بعض الشيء، لكنهم يحاربون لكي تبدو حياتهم طبيعية. لم تود رسيل التطرق إلى أمر حبيبة، فتجاهلت الموضوع، وسألت عن أحوال عمر، وعمله الجديد. عقدت أسيا حاجبيها، فعمر لم يغير عمله فهو أحبه على الدوام.

- إنه يسير على ما يرام.

عندما فرغوا من شرب الشاي، تدخلت رسيل في عمل أسيا، وساعدتها في إعداد الطعام. تحدثت رسيل عن أحوالها الشخصية، واسترسلت في التذمر من عمل زوجها الذي يتطلب سفره أوقاتاً عديدة خلال العام. وبعد أن عم الهدوء استغلت أسيا الفرصة وسألت جارتها:

- هل تتذكرين حبيبة؟

تظاهرت رسيل بالحزن، وأجابت بتوعدك واضح:

- بكل تأكيد أتذكرها. كانت كالفراشة.

قبضت الكلمات قلب أسيا، لكنها لن تتداعى قبل أن تحصل على المزيد من جارتها. فسألتها عما تتذكره دون أن ترفع عينها عن الطبق الذي كانت تعد فيه الطعام.

- أتذكرها منذ أول لحظة انتقلتم بها إلى هنا، قبل عام تقريباً. لم يدم بقاءكم طويلاً قبل أن.. يقع الحادث، وترحل الفتاة. أتذكر حتى والدك في أيامه الأخيرة قبل أن يورثكم هذا المنزل.

- حقا؟ - سألت أسيا رافعة حاجبيها.

- أجل. ما حدث يدعو للحزن. حط الموت على العائلة بطريقة

غريبة، في البداية كانت والدتك قبل عامين، وفور موتها بسبب السرطان، انطوى والدك على نفسه، وأصبح غريباً. تحول هذا المنزل البهيج إلى منزل أشباح معزول، حتى والدك اختفى عن أنظار أهل البلدة، وبدأ الشك في أن الجنون أصابه ينتشر بين سكان البلدة.

رمت أسيا جارتها بنظرة تساؤل، فقالت رسيل بتجهم:

- أعتذر.. أنا حقا آسفة.

- لا عليك، أكمل.

سألتها رسيل:

- أنتِ حقاً لا تتذكرين هذه الأحداث. - فهزت أسيا رأسها نفياً. - بعد رحيل والدتك عزل والدك نفسه في هذا المنزل، حتى أصيب بنوبات غريبة في النهاية ومات في المستشفى. ثم أتيتم أنتم إلى هنا، وبعد انتقالكم، بشهرين أو ثلاثة، لست متأكدة، وقع ذلك الحادث.

ذهلت أسيا لكون الموت قاسياً في هذه الحكاية التي سردها رسيل. الجنون والموت ترافقا ليدمروا هذه العائلة، دون هوادة حتى. لكن ليس هذا ما تذكره، ولم تكن الحكاية في ذاكرتها تبدو حزينة كما ترى رسيل الأمر. كانوا عائلة سعيدة، هي وعمر والأبناء الثلاثة. يعيشون في منزل عصري، وعمل عمر كان يوفر لهم ما يكفي من

المال ليعيشوا بمستوى جيد. والدها يعيش هنا برفقة والدتها، ولم يقترب الموت من أي منهم حتى آخر لحظة تتذكرها. كل تلك الأمور، لم تعد سوى وهم شكله عليها المرض.

أو أن عمر بدل ذلك الواقع، بطريقة بشعة ليستولي على ما تملكه هي.

رحلت رسيل قبل عودة عمر والطفلين إلى المنزل. أعطتها أسيا جزءاً من طعام الغداء، فما طهته كان يكفي عائلتها، ويزيد عن ذلك حتى. شكرتها رسيل، ووعدها بأن تعيد لها حافظة الطعام. لم تشعر أسيا بالألفة تجاه هذه المرأة، ولم تتمكن من تصديق أي كلمة قالتها. ما الذي وعدّها به عمر لتكون في صفه؟

لا يمكن لأسيا أن تنسجم مع أي شخص تقابله، ولا هذا المكان حتى. لا تشعر بأن عائلتها طبيعية كما ألفتها أبداً، ولا كل من عرفتهم، هم الأشخاص الموجودون ذاتهم في حياتها من قبل. كل شيء مختلف.

4:03 مساء / مقبرة الوادي الغربي

توقفت سيارة عمر عند بوابة المقبرة الحديدية، ورغم أن المدينة كانت تبدو قديمة، إلا أن المقبرة بدت مسورة بسود لم يتداع كما هو الحال عند المرافق العامة في البلدة. شعرت أسيا بفقدان السيطرة على يدها بينما هي تزيح حزام الأمان عن يدها. كانت ترتعش، كل جزء من جسدها غير قادر على العبات.

ما أن فرغت العائلة من تناول طعام الغداء، ألحت أسيا على عمر أن يأخذها إلى المقبرة كما وعدها. في البداية تكاسل عمر عن فعل ذلك، وطلب منها تأجيل ذلك إلى يوم آخر، لكنها ذكرته بوعده لها. لذلك قرر أن يأخذها إلى هناك قبل وقت الغروب.

بينما كانت تترجل من السيارة، ناداها عمر مستوقفا اندفاعها، وقال:

- عليك أن تكوني قوية، لا تجعليني أندم على القيام بهذا.

- حسنا. قالت بغضب، لكن سرعان ما تلاشى هذا الغضب، وقالت - سأكون قوية.

عبرت برفقة عمر الذي كان أخبر منها في الطريق المؤدي إلى القبور الثلاثة، عندما وصلت إلى هناك المصطبة الحجرية التي تحيط القبور الثلاثة، والشواهد ترتفع خلفها. وقعت عينها المشككة على الشاهد الذي نقش عليه اسم حبيبة، ورأت التاريخ المحفور تحت الاسم:

10 سبتمبر 2009 - 3 مارس 2019

أي حيلة ذكية هذه؟ ليكن هذا أي شيء آخر غير ما تراه. لن تصدق أسيا هذا الحجر. هذا النقش الذي يخبرها بأن ابنتها لم تتم عامها العاشر، بينما كانت تحتفل معها قبل أيام قليلة بعيد ميلادها. لا يمكن أن تكون كل هذه الدلائل القطعية صحيحة.

هذا العالم كاذب.. كل شيء هنا يخدعها، يتآمر عليها.

أخفت هزيمتها، لأنها وعدت عمر أن لا تفعل. ولماذا عليها أن تكثر لوعودها تجاهه، إنه مخادع، لكن مشاعر الحب التي استيقظت عليها أسيا تجعلها راضخة، ولا يمكنها أن تتغير لمجرد وجود شكوك صغيرة. ودت لو أن تصرخ لكل هذا التضارب الداخلي فيها. توثيق وتشكيك.. واقع وأوهام.

- أسيا، ستكونين قوية. - أتت كلمات عمر لتعيد زوجته للواقع.

- أنا قوية.

اقتربت أسيا من قبر ابنتها وجلست دون أن تدري بأن في هذا إعلان استسلام لكل أفكارها. حركت كفها فوق التراب الناعم الذي يغطي القبر، وأرادت لروحها أن تستشعر وجود ابنتها هنا. لكن لم تشعر إلا بدنو الموت منها هي. تقلص العالم، وانحصر في مشهد واحد، ودت لو أن يكون الأخير، وتنتهي الحياة بعد ذلك.

تفاقم الألم في داخلها، ولم يكن من النوع المؤلم والذي يعلن عن نفسه، بل كان يشبه السم الذي يقتلها ببطء. أصبحت الثواني طويلة لا تنتهي. أرادت أن تبكي، لكنها لن تحنث في وعداها. ها هي الآن تستسلم لكل الأفكار التي أرادت أن تصدق ما ينافيها.

- الأمر حقيقي، لكنه لا يعني النهاية.

- كيف لا يعني النهاية؟ - ارتجف صوت أسيا ثم كررت بصوت أوضح - كيف لا يعني النهاية يا عمر؟

- تماسكي يا أسيا. لا أحد يستطيع تغيير القدر، ولا ردعه. ما حدث كان آت. الأمور السيئة تأتي سواء قبلنا أم رفضنا، نحن لا يتبقى لدينا إلا أن نستأنف الحياة بما تبقى لدينا. وهناك طفلان في المنزل يكبران، ويريدان لعائلتهما أن تعود طبيعية كما عرفاها. هما أيضاً يفتقدان شقيقتهما، لكنهما يعلمان جيداً، أن الحزن لن يستمر، وإذا استمر فهو لن يعيد لهما حبيبة.

قبضت أسيا على ذراع عمر، ونهضت بتكاسل من مكانها، ووافقت

على أن تترك المكان، ولو أنه قبض على جزء من روحها، والتي كانت مشتتة وضائعة من قبل.

خرجوا من المقبرة عائدين إلى السيارة. وبعد ذلك تحركوا عائدين باتجاه المنزل. في الطريق القصير، ذكرها عمر بأهمية حضور الجلسات في الأسبوع القادم، وهذا جعلها تتنبه لأن تخبره عن أمر لمياء.

- لدي صديقة قديمة، تواصلت معي بالأمس. إنها لمياء.

- لمياء؟ مضى وقت طويل على تواصلكم!

- أعلم، هذا ما قالت لي حين طلبت مني أن نلتقي، وحددنا بطريقة عشوائية يوم السبت، وهو غداً. أردت أن أخبرك بالأمر.

قال عمر بصوت طفولي:

- خططت للأمر بالفعل، وتخبريني الآن.

- حدث هذا بالأمس، وأخبرك اليوم. لو كنت أتذكر هذا لأخبرتك حينها. حدث الأمر بطريقة مفاجئة. اتصلت بي، وأخبرتني بأنه مر وقت طويل على آخر لقاء بيننا، تود لو أننا نلتقي.

سألها عمر ونظرة الغموض ترسم في عينيه:

- هي من طلبت.

أجابت أسيا بعقة:

- أجل، هي من وجدتي، وأخبرتني بأنها بحثت كثيراً. في الواقع لم أجد سبباً لرفض مقابلتها، قد يساعدني الأمر على استرجاع شكل حياتي كما ألفته قبل الحادثة.

كلما تذكرت أسيا حادثة السرقة التي تعرضت لها، تشعر بالغموض يدور حول الأمر. لماذا هي؟ تلاشت التساؤلات القصيرة مع صوت عمر، وهو يعلن موافقته على أن تقابل لمياء، لكنه اشترط عليها أن يقلها إلى هناك بنفسه.

- يمكنك أن تفعل ذلك، لكنني سأقابل صديقتي وحدي.

- سأكتفي بالتواجد بالقرب منكم.

هل هو قلق بشأنها؟ أم أنه يخاف من أن تكتشف أمر ما من خلال مقابلتها مع لمياء؟ لم تفهم أسيا سبب عرضه، لكنه على الأقل لن يعيقها كثيراً.

عم الهدوء بطريقة غريبة على المنزل. عرضت أسيا على عائلتها أن تعد لهم الكعك المحلى على طريقة والدتها الخاصة. حينها عقد عمر حاجبيه، وقال وهو يظهر نصف ابتسامة بأن والدتها لم تصنع الكعك المحلى أبدا. بل كانت بارعة في صنع حلوى الكريمة.

- لا تتدخل بالأمر، بل دعني أقوم بهذا على طريقتي أنا.

- طريقتك أنت، وليست طريقة والدتك. اتفقنا؟

ابتسمت أسيا وأمام عين جميل المترقة قالت:

- إن أعجبكم الكعك، فستكون طريقتي الخاصة. فإذا كان سيئا فسنعزي الأمر لوالدتي.

بعد أن اختفت أسيا ظهرت زهرة، وبدأت أكثر مرحاً هذا اليوم. جلست الفتاة بجوار شقيقها، وعلى الجانب الآخر، جلس عمر وحده وهو يحمل جهاز التحكم في التلفاز. كانت أسيا تسمع أصوات الأشخاص الثلاثة في الخارج ممتزجة بالضوضاء الصادرة من التلفاز. ابتسمت رغماً عنها، لكن تلك الابتسامة لم تدم طويلاً، عاد إليها الشعور بالوحشة. رفعت رأسها لتراقب من خلال نافذة مخرج المطبخ. لا تشبه هذه المدينة أي شيء تعرفه، ليست الأضواء هي الأضواء ذاتها. لم يكن المساء يشبه كل مساء رأت فيه الشمس تغيب،

ولا هذا الليل هو السكون الذي عاشت تحته. لا هذه العائلة تنتمي إليها، ولا هذه حكايتها. كتمت شعورها بالأسى، وعادت إلى الواقع وهي تشتم رائحة شيء يحترق. أدركت بأنها أحرقت الكعك.

اقتحم عمر المطبخ وسألها فوراً بينما هي تجر الكعك:

- هل أحرقته؟

هزت أسيا رأسها بخجل، فقال هو:

- لا بد من أنها طريقة والدتك. - ثم انفجر بالضحك، فتبعته هي بضحكة عالية.

عرض عليها أن يطلب العشاء من أي مطعم خارجي، فوافقت أسيا فوراً، وتصورت أن يكون هذا تعويضا عن الحماس الذي بددته بعد أن حرقت الكعك.

تناولوا طعام العشاء في غرفة المعيشة، ولم ترغمهم أسيا على الانتقال إلى غرفة المعيشة. لم تتلاق أعينهم ببعض، بل جميعهم وجهوا تركيزهم نحو التلفاز الذي كان يعرض فيلم تم إنتاجه قبل عقدين من الآن. وبعد أن فرغوا من تناول الطعام، وانتظروا الفيلم حتى ينتهي، أمرتهم أسيا:

- هيا وقت النوم قد حان. وأنت يا عمر ساعدني في نقل الأشياء

إلى المطبخ.

لم يظهر عمر أي اعتراض ولوهلة بدا هو ذاته الشخص الذي عرفته طوال حياتها. صعد الطفلان ليغسلا أسنانهما، ومن ثم سيأويان للفراش. في الوقت ذاته كانت أسيا تملأ كيس القمامة ببقايا الطعام، وعمر يساعدها في تفريغ علب الطعام الكرتونية. رفعت رأسها فجأة وسألته:

- هل أحملك ما هو فوق قدرتك؟

- ماذا؟ - لم يفهم ما تعنيه، لكنه بعد أن فكر في السؤال قال مندهشاً - لماذا تقولين هذا؟ أنا.. أعني أنتِ كل شيء يعني، وسأتحمل أضعاف هذا لو تطلب الأمر.

- هل هذه الإجابة تؤيد نظريتي؟

قال عمر معترضاً:

- قطعاً. لا يجب أن تري الأمر بهذه الطريقة.

تذكرت أسيا كل الخداع الذي رسمته، لماذا تستسلم الآن أمامه؟ هل تعترف له بما سمعته في حجرة الطبيب ليث، ذلك الحوار الذي دار بين الطبيب وعمر. هل تفسد كل الأمر بينما هي تبحث عن الحقيقة في الوقت ذاته.

- أسيا. مهما ساءت الحياة، وكنت أنتِ بجواري خلالها، سيشفع لها هذا. سأقبل أي شيء من الحياة إلا أن أفقدكِ أنتِ. لا يزال في داخلي متسع كبير لأكثر وأكثر. لكن أنا على يقين من أن القادم لن يحتاج إلى هدر كل طاقتنا. بل إنه سيكون أفضل.

خرج عمر ليلقي القمامة في الخارج، وعندما عاد طلبت منه أسيا أن يسبقها فهي تحتاج لإزالة ما تبقى من الفوضى التي تسبب الأطفال بها. وافق عمر، واختفى فوراً. بينما هي اتجهت إلى الحاسوب الموجود في الطابق السفلي، وتفقدت المدونة المزيفة التي صنعتها لنفسها. حينها رأت بأن رسالة واحدة موجودة في الصندوق الوارد. فتحتها ونظرت إلى محتواها القصير:

مرحباً يا سيدة أسيا، أعتقد بأنك تخلطين بيني وبين شخص آخر.

لم أتعرف على أية امرأة تدعى أسيا في حياتي كلها.

أنتها الرسالة من صديقها ياسر، والذي كان يظهر بالصور القليلة على هيئة رجل أكبر سناً، وأكثر بدانة. إنه يدعي بأنه لم يعرفها في حياته أبداً، وهذا أمر غير ممكن. إنهم أصدقاء. أطفأت أسيا الحاسوب بسرعة، وكأنها رأت شيئاً مرعباً على الشاشة. نهضت بسرعة، لكنها فقدت توازنها فثبتت يدها على الحائط، وقبضت على معدتها التي تقلصت، وباليَد الأخرى ثبتت جسدها على الحائط. تجمعت الدموع في عينيها، لكنها أغلقت جفنيها بقوة لتمنع سقوطها.

صعدت إلى الطابق العلوي فرأت عمر قد استلقى في جانبه الخاص من الفراش، وكان في انتظارها، بدا التوعك واضحاً عليها، وما أن رآته جالساً حتى انتابتها نوبة غثيان، فسارت إلى المرحاض، وتقيأت كل ما تناولته خلال العشاء.

انحنى عمر إلى جوارها وقال:

- يبدو أن الطعام كان ثقيلاً، لم تتناولي أي وجبة كاملة طوال الأيام الماضية.

بدا لها تفسير عمر منطقياً، ورغم أنه عرض عليها الذهاب إلى الطبيب، إلا أنها أيدت ما قاله وأخبرته أن معدتها لم تتقبل الوجبة الثقيلة بعد هذا الوقت من الحرمان. ساعدها على النهوض والسير إلى الفراش. رقدت أسياً في جانبها وعمر إلى جوارها، ولم تستغرق وقتاً طويلاً، قبل أن تغفو بسبب التعب.

11:32 مساءً / مركز العاصمة التأهيلي

لا تزال رائحة المختبر عالقة بأنف أليكس، التي خرجت للتو منه وسارت عبر الرواق الفاصل بين مركز المبنى، وبين جناح المختبرات الهادئ. كانت الساعة قد تأخرت بالفعل، وهي لم تقض هذا القدر من

الوقت أبدأ في المركز التأهيلي، فهي رغم حبها لعملها، إلا أنها تملك شغف دراساتها الخاص في المنزل، وتتوق لأن تعود إليها بأسرع وقت. لم يتجاوز الوقت ساعة الدراسة المخصصة لأليكس، بل إنه وقت نومها. شعرت بإنهاك شديد، وكانت عيناها تحرقانها كلما رمشت. تحتاج لأن تخلص إلى فراشها، لكنها ليست متأكدة من قدرتها على هذا اليوم.

بدا وقع خطواتها واضحا، بينما كعب حذائها يرتطم بأرضية الممر الخالية، والذي فقد أضواءه الساطعة. عبرت شبكة الممرات، ووصلت إلى الكافتيريا الجانبية الصغيرة. كان المطعم خاليا فأليكس لم تلاحظ سوى صوت التلفاز المعلق في زاوية الحجرة. لكن ايما ظهرت في زاوية المكان لتكسر هذا الاعتقاد. كانت ايما شابة يوحى مظهرها بأنها لم تتجاوز سن المراهقة بعد، لكنها كانت تسير في عقدها الثالث بالفعل. لها شعر أسود قصير اعتادت على قصة هي بنفسها، مما جعل خصلات شعرها غير متساوية الطول. على عكس تسريحتها المثيرة للاشمئزاز، كان وجه ايما بارع الجمال، وعيناها واسعتان بلون البندق، يعتقد من يراها أنها رسمت فوق هذا الوجه.

نهضت ايما من فوق كرسيها، ودفعته للخلف وتقدمت باتجاه اليكس ثم قالت بطريقة طفولية مستفزة:

- لم تذهبي للمنزل بعد.

- كان لدي بعض الأعمال يا أيما.

- دائما ما تكونون كذلك. هذا العالم بأكمله لديه بعض الأعمال. الجميع مشغولون بأعمال لا نراها، ولا يمكننا أ، نعرفها، وأحيانا أنتم لا تدركون ما هي هذه الأشياء التي تشغلكم. إلا أنكم لا تستطيعون البقاء خالين.

لم تفهم أليكس يوماً ما هي مشكلة هذه المرأة، عوضاً عن كونها لا تعالجها، كانت ايما حالة عصية على الفهم. إنها تعيش حياة جيدة، ولا تفتقر لأي شيء، ورغم هذا، هي تقضي فترتها الثالثة كنزيلة في المركز. خرجت من هنا مرتين، وعادت إليه بإرادتها لتحمي نفسها من أفكارها السوداوية. حاولت ايما الانتحار مرتين في حياتها. في المرة الأولى حين كانت طالبة جامعية، تناولت كمية من الأقراص كانت كافية بقتلها، لولا أن زميلتها في السكن أنقذتها. أما المرة التالية، فكانت محاولة فاشلة للقفز من فوق الجسد، انتهت بكسر في ساقها اليسرى، وضلعين. شفيت أيما تماماً من كل تلك الإصابات، ولم تزج في السجن لمحاولاتها، لأن والدها استطاع أن يحصل لها على سجل المركز التأهيلي.

تعرضت ايما لجلسات علاجية طويلة، ولم يغير أي منها حالتها. لا الأقراص كانت نافعة، ولا النشاطات التي عرضها عليها الأطباء. كانت الفتاة تغرق في أعماقها شيئاً فشيئاً، وترى أبهج لحظات العالم مغطاة بطبقة من الغبار الأسود تمنع السعادة من الوصول إليها. لم يكن الاكتئاب الحاد وحده هو ما تم تشخيصها به، فهي تعاني من أزمات نفسية عديدة، وجميعها وصلت إلى روح الفتاة بطريقة غامضة لم

يتمكن أحد من تحديدها. فحسب ما قاله والديها، هي لم تتعرض للمعاناة من قبل، ولم تتعرض لتجارب قاسية حتى.

فكرت أليكس، في أن هذا قد يكون سببا كافيا. أن لا يملك المرء حبة لحكايته، وإن كانت تنتمي إلى المعاناة، فهذا يجعل حياته مملة، لا معنى لها. ليست السعادة هي ما يصنع الحكايات، بل أحيانا الحزن يقوي جودتها، وعندما لا تتعرض لأي العواطف الحادة فإن حياتك تصبح روتينية مملة.

أخفضت ايما بصرها فظهرت الهالة السوداء الموجودة تحت عينيها بوضوح. نصحتها أليكس أن تخرج للتنزه في مرج المركز، فضوء الشمس قد يساعدها. إن أقراص الفيتامينات وحدها لا تعالج. الموارد الطبيعية تكون أقوى.

- أخرج أحيانا، لكن هذا ممل.

- يمكنك قراءة كتاب تحت ضوء الشمس. سيساعد هذا على كسر الملل.

زمت ايما شفيتها ثم قالت:

- حاولت أن أقرأ الصحيفة، لكن سمير لم يدعني وشأني.

سمير هو نزيل آخر، أتلّف موت عائلته صحة عقله، فأصبح يسير

في الأروقة ويهذي بأنه يرى ابنه وزوجته يلوحان له على الدوام من خلف النوافذ المكشوفة. لذلك كان حريصاً على أن يغطي النوافذ بالستائر. كانت هوايته المفضلة كذلك، هي تمزيق الصحف.

- سأطلب من الممرضات أن يبقينه بعيداً عنك.

- أنا آسف. - ظهر الأسى على وجه ايما فجأة - لم أقصد تأخيرك.

- أنت لا تؤخريني، بل أنا منهكة بالفعل. - ابتعدت اليكس عن ايما وقالت لها بصوت مرتفع - كوني قوية، لا تدعي الأفكار التي لا وجود لها تسيطر عليك. والتزمي بالقراءة، فهي تساعد.

هزت ايما رأسها، لكن أليكس لم ترها.

خرجت أليكس إلى مواقف السيارات، ووجدت الصف الذي تركت به سيارته، قد أصبح خالياً بعد أن كان ممتلئاً في الصباح. جلست في مقعدها، واستغرقت وقتاً قصيراً في التفكير بأشياء عشوائية، قبل أن تسقط على الواقع بهدوء، وتذكر بأن عليها العودة للمنزل. سيكون عليها أن تصفي ذهنها للعديد من الأفكار القادمة.

لا تنصف الحياة أحد، إنها ببساطة تعطيه رواية لخاصة بما فيها من أجزاء جميلة وسيئة. أما الكمال فالبشر بعيدون عنه دائماً. يمكننا تحويل تفاصيل الحكاية إلى أشياء تساعدنا، إلا أن الأحداث الفاصلة والحاسمة في شكل حكايتنا، لا تكون بالضرورة ما نختاره نحن. قد

نختار من نشاركه حياتنا، أو من أحببناهم ونرغب في قضاء الوقت معهم، لكن ليس بالضرورة أن نتمكن من إبقائهم معنا، لسنا قادرين دائماً على الحفاظ عليهم.

لم تأت ظنون أليكس كما تخيلتها هي. استلقت على الفراش، وحقيبتها سقطت على الأرض، وغفت بينما هي مصحوبة بأفكار يصعب فهمها.

14 سبتمبر / 2019

00:11 صباحاً / ...

- أوسكار هل حددت المكان؟ هل وجدتها؟

- في الواقع لم نجد أي إشارة تدل على مكان وجودها، لقد اختفت تماماً.

خرج الصوت الأول ثقيلاً مرتجفاً، وهذا يدل على تقدمه بالسن، فيما أوسكار، كان واثقاً من كلماته التي تحمل الخيبة، والفشل. فهو لا يفشل غالباً. في اعتقاده الفشل هو محاولة عالته ما لم يجده في النجاح، بينما النجاح قد تأجل قليلاً. لم يفشل يوماً مهما تأخر، ولن تؤخره مهمة كهذه.

- عليك أنت تجدها قبل، أن تحدث ما هو أسوأ، نحن لا نعلم ما الذي تعرفه تلك المرأة. إنها دخيلة، ولا بد من أنها خطرة علينا. كفف نشاطك في البحث عنها، وجدها.

- سيدي، إننا لا نعلم ما مدى معرفتها بهذه الأمور، ثم إننا لا نملك أي معلومة عنها. نحن نبحث عنها على طريقتنا الأبسط، وهذا يستغرق وقتاً أطول. لكننا سنعثر عليها عاجلاً أم آجلاً.

ثنى الرجل المسن على قدرات أوسكار، ولم يتردد في أن يعزز قوته بأن يلقي عليه الإطراء. أوسكار ماهر في تنفيذ مهامه، وهو لا يترك أي أثر عادة. لا بد من أن تكون هذه المهمة صعبة لأنهم لا يملكون ما يكفي من المعلومات، لكن لديهم أساليبهم الخاصة في إيجاد الدخلاء.

ترك أوسكار الرجل الذي كان أعلى منه رتبة، وسار عبر رواق مظلم طويل لا تكفي المصابيح الفلورية الصغيرة، لأن تكسر عتمته. أخرج هاتفه وفور أن وضعه على أذنه نطق: "هل وجدتم أي إشارة جديدة". ثم أخبر الطرف الآخر بأنه سينتظر، لكن صبره لن يدوم طويلاً.

مد أوسكار يده، وتحسس السلاح المطلي بطبقة كروم إضافية. كان السلاح بارد ثقيل، لطالما أحب أن ينهي مهامه عبر فوهة هذا السلاح الذي لم يخله يوماً. أما تلك المتطفلة فكان أوسكار يسلي نفسه، فهي تصور ملامحها، أو تخيل المشهد الأخير لها في هذا العالم.

انعكس وجه أوسكار على زجاج القاتم لسيارته الأوستن مارتين الفضية. بدت انحناءات وجهه حادة، والأجزاء البارزة أكثر قسوة

مما يظهره تعبير وجهه الجدي. كان شعره الثلجي القصير ثابتا فوق رأسه بعد أن سرحه للخلف. لمعت طبقة شفافة فوق شعره، وكان هذا بسبب ما يستخدمه لتثبيت تسريحته السهلة.

جر باب سيارته، فانبعث ضوء خافت عند أطراف أرضية السيارة. دلف إلى السيارة وجر الباب باتجاه معاكس ليغلقه. لم تهتز السيارة لخفة حركة أوسكار على الرغم من وزنه الثقيل. أدار المحرك فأصدرت السيارة صوتا حادا، ولم ينبعث منها أي هدير مزعج، وهذه الحالة استمرت معه حتى وهو يقطع الباحة المغطاة بالحجر ليصل إلى الطريق الخالي، فالساعة تجاوزت منتصف الليل بقليل، وهذا يعطيه حرية الحركة في المدينة، دون أن يشعر بأن زحام المرور يبتلعه.

أحب الليل، وتعجبه الحركة تحت ظلمة السماء. قطع الطرقات المتعرجة، ليتجاوز المنطقة التي كان بها، أدار سيارته نحو الجسر الفاصل بين هذا الجانب، وبين العاصمة التي كانت هي وجهته القادمة.

8:20 صباحا / الوادي الغربي

استيقظت أسيا مصحوبة بشعور خائق.

لا تزال تحتفظ ببعض الصور لمنام، لا تتذكره جيداً، لكنها استيقظت عاجزة عن جر ما يكفي من الهواء، ورغم أن الطقس كان بارداً، إلا أنها كانت تشعر بالحر، ومفاصلها رطبة بسبب العرق. رأت عمر وهو يلف نفسه بالجزء الأكبر من اللحاف، لكنها على عكسه، كان جسدها مكشوفاً وحاراً.

ابتعدت عن السرير، وسارت إلى دورة المياه، وراقبت ملامح وجهها الناعسة عبر المرآة، كان لونها الطبيعي قد زال، وحل محله لون أصفر باهت. لم تكن أسيا تشعر بالمرض لكن بشرتها توهي بعكس ذلك. ملأت يدها بالماء، وبللت رقبتها، ثم غطست وجهها بين كفيها الممتلئين بالماء. شعرت ببعض الانتعاش، لكن بشرتها كانت لا تزال باهتة. غسلت أسنانها وهي مكتفية من النظر إلى وجهها، وبعد أن فرغت من ذلك خرجت لتجد عمر نصف جالس فوق فراشه.

- تبدين شاحبة. - قال لها، ففكرت في أن هذا واضح جداً، أكثر مما تصورت هي.

- لم أنم جيداً. - فسرت أسيا الأمر.

نهض هو من مكانه وبينما كان يدلف إلى دورة المياه، أخبرته أسيا بأنها ستوقظ الأطفال من نومهم وتعد الفطور لهم جميعاً. لم تكن مستعدة لذلك، لكنها لا تزال تحاول أن تؤدي دور الأم الذي وعدت نفسها في أن تظهر به من أجل الأطفال على الأقل.

قضت زهرة ساعات النهار في حل واجباتها المنزلية، أما جميل فقد ساعدته والدته في مراجعة دروسه. ما أن فرغوا من ذلك، عادت زهرة إلى حجرتها وقامت بوضع أسطوانة موسيقية عبر جهاز التشغيل، ولم تستخدم سماعات الرأس الخاصة بها. لم يزعج الأمر أياً من أفراد العائلة، بل كان كلّ منهم منشغل بأمر ما. عمر يجلس خلف مكتبه الصغير في الطابق السفلي، وأسيا تحاول مساعدة جميل في الرسم، بعد أن فرغوا من الدراسة.

مر الوقت بطيئاً قبل أن يحين موعد لقاء أسيا بصديقتها لمياء. عرض عمر عليها أن يتصل بشقيقته لتبقى مع الأطفال، لكنها رفضت، وفضلت أن يتصل بالمربية بدلاً من ذلك. خطرت في رأسه فكرة مفاجئة، فقال لها:

- لماذا لا يرافقونني، بينما تذهبين أنتِ للقاء صديقتك.

- لن آخذ كفايتي من الوقت يا عمر، لا أريد أن تنتظروا من أجلي أنا.

- لن ننتظر، سنذهب إلى أي مكان قريب، سيفرح الطفلان بهذا.

تذكرت أسيا بأنها لا تحمل هاتفاً محمولاً، ولن تكون قادرة على التواصل معه، فعرض عليها أن تبقى هاتفه هو معها. لم توافق، لكنها كانت فكرة معقولة في كل الأحوال. سيتمكن هو من إيجادها من خلال هذه الطريقة. لكن هذه الثقة تلاشت فجأة، وفكرت أسيا، ماذا

لو كان يريد التنصت إليهن عبر هاتفه؟ هل يعقل أن يحاول عمر القيام بهذا أيضاً؟ أزاحت الفكرة عن بالها فوراً، لأنه لن يكون ساذجا إلى هذا الحد، ويعطيها هاتفه الخاص، بينما يحاول أن يخفي عنها أمراً ما.

3:15 مساءً / مركز المدينة

توقفت السيارة أمام واجهة محال مطلة على الشارع. كانت أسيا قد رأت لافتة المطعم المعني على الطريق. دست هاتف عمر في حقيبتها الصغير، وتأكدت من وجود ما يكفي من المال لديها، ثم دفعت باب السيارة لتتدخل منها. في اللحظة ذاتها نطق جميل:

- ألن تأتي أُمي معنا؟

التفتت أسيا، وقالت:

- سأعود قريباً يا عزيزي. عليك أنت أن تبقى مع والدك وشقيقتك، واحرص على أن يبقيا بخير. هل هذا مفهوم؟

رفع جميل يده وثبتها بجوار رأسه ليحيي والدته، ثم يردد:

- حاضر كابتن.

- سألتقي بصديقة لي وأعود قريباً. - كررت أسيا ذلك لزهرة التي

بدت متفهمة سبب غياب والدتها. قفزت الفتاة لتجلس في مكان والدتها بجوار عمر، بينما جميل كان متكئا على الدرج الذي يفصل بين شقيقته وأبيه.

راقبت أسيا السيارة تبتعد على طول الشارع، ثم سارت تحت لافتات المحال المكتظة بالغرباء، حتى وصلت إلى نهاية الطريق حيث كان المطعم الذي اتفقت مع لمياء، على أن يكون اللقاء فيه. كانت أسيا ترتدي سروال جينز تراه في خزانة للمرة الأولى، ولكنه أتى على قياسها تماماً. وكان يحزنها أنها لا تتذكر لحظة اقتنائها للأشياء الموجودة لديها.

جر عامل المطعم الباب ليستقبل أسيا، وقع بصرها فوراً على لمياء صديقتها حيث كانت تجلس بالقرب من واجهة المطعم. أدرك العامل أن هناك معرفة بين الزبونة الجالسة، والتي وصلت حديثاً فسمح لأسيا بالوصول إلى صديقتها.

اندفعت أسيا واحتضنت لمياء بحرارة، وكان عناقها للمرأة قويا وطال لعوان بدت غريبة للمياء، التي كانت جامدة في مكانها، ولم تتفاعل مع هذا الاستقبال الدافئ. عندما ابتعدت أسيا عن لمياء، رمت كل منهن الأخرى بنظرة تفقدية. بينما بدت لمياء أكبر مما تتذكره أسيا، كانت أسيا لا تزال تحتفظ بحيوية وبعض شبابها. لم يمض وقت طويل على آخر لقاء بينهما، بالنسبة لأسيا، وفي ذاكرة أسيا، كانت لمياء مختلفة عن التي تقف أمامها.

- مضى وقت طويل. - قالت لمياء ذلك وابتسمت لتتفادى ما أصيبت به من إحراج.

- وقت طويل؟ هل حقاً مضى وقت طويل يا لمياء؟

جلست أسيا فتبعتها لمياء، وهي تراقب أسيا بتساؤل. شعرت الأخرى بأنها تفقد السيطرة على أسيا المنفعلة، والتي لا يمكن توقع ما تقوله. أكدت لمياء ما قالته، وكررت أن لقاءهم الأخير كان منذ وقت طويل جداً. ظلت أسيا صامتة تحاول فهم ما تعنيه لمياء.

- أنا سعيدة لأنك حاولت التواصل معي. نحن لم نلتق منذ أن تخرجنا.

لم تبد أسيا دهشتها للأمر، رغم أنها كانت تشعر بصدمة بالغة حيال ما قالته لمياء. لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً، هناك حلقة مفقودة ويعتقد الآخرون أن سببها هو الضربة التي تلقتها أسيا. تماكنت أسيا نفسها، وقالت بهدوء:

- وأنا سعيدة لأننا نلتقي من جديد. كيف سارت حياتك في السنوات الأخيرة.

أظهرت لمياء بعض الارتياح، فالنقاش يتخذ مجرى طبيعياً الآن:

- لقد تزوجت، ولدي ابنة وحيدة تشغل وقتي كله.

- أنا سعيد..

رفضت الكلمات الخروج من فم أسيا. لمياء ليست متزوجة، ولم تفكر في هذا يوماً. هذا ما كانت تردده على الدوام، ولم تندم على مرور سنوات حياتها.

- أنا سعيدة لسماع هذا يا لمياء. لا يوجد أجمل من إنشاء العائلة.

- وأنت؟ كيف سارت حياتك يا أسيا؟

كيف عليها أن تجيب. هل تخبرها الحقيقة؟ أم تحاول تليفق حكاية تتماشى مع هذا الموقف. حاولت أسيا أن تتماسك، وأن تبدو طبيعية، لكن في جوفها تنبعت دوامة من التناقضات.

- أنا أيضاً، أنشأت عائلة. أعيش الآن في منزل والدي بعد أن توفي.

- أنا آسفة لذلك.

شكرتها أسيا، وحاولت أن تسرد لها التفاصيل الأخرى، والتي لم تكن متأكدة من دقتها أساساً، لكنها تراجعت عن فعل ذلك. لا جدوى من البوح بكل تلك التفاصيل المؤلمة، ولن تنفعها كلمات المواساة من لمياء الغريبة التي تجلس أمامها الآن.

مضى الوقت بسرعة بين لمياء التي بدت بالفعل سعيدة لرؤية صديقتها القديمة، وأسيا التي حاولت أن تخفي صدمتها إلى أن صدقت ما تسمعه في النهاية. تناولن الغداء سوياً، وبينما كانتا تفعلان ذلك، سمعت أسيا صوت رنين غريب ينبعث من حقيبتها. تذكرت بأن هذا هو هاتف عمر. أخرجته وللمرة الأولى تلاحظ بأنه مختلف عن هاتفه الذي تعرفه. رأت اسم المتصل "جين"، أجابت وتركت السماعة على أذنها دون أن تنطق بأي شيء.

- مرحباً عمر.

لم تجب أسيا التي توقفت عن تناول الطعام، بل تساءلت عن هوية هذه المرأة التي اندفعت بثقة لترحب بعمر. عندما لم تجد جين استجابة، نادى من جديد:

- عمر؟

- عمر ليس هنا. أنا زوجته. أسيا.

- أوه أسيا. كيف حالك؟ أتمنى أن تكوني بأفضل حال. كنت أتصل بعمر لأسأله عن جدول جميل الجديد. أعذر عن تطفلي. - لم تجب أسيا فقالت الأخرى بتردد - وداعاً.

راقبت لمياء ما يحدث، لكنها لم تر أي حدث غريب فيما جرى. أعادت أسيا الهاتف لحقيبتها وأخفت قلقها، لكنها لم تقو على تناول

الطعام، بل كانت تتظاهر بذلك.

في طريق العودة إلى المنزل لم يصمت جميل أبداً، وفي اللحظة التي لا يتفوه فيها بأي كلمة مفهومة، كان يقلد صوت الطيارة التي يحملها بيده ويطيئها. جلست أسيا وهي تراقب العالم الذي بدا لها بأنه يتحرك بينما زجاج النافذة هو الثابت. أرخت رأسها على الجانب البعيد عن عمر. تذكرت فجأة هاتفه في حقيبتها، فجرته، وأعطته له.

سألها عمر:

- كيف سار اللقاء؟

- كان جيداً، مضى وقت طويل، لم نلتق فيه، وكان هناك الكثير مما كان علينا قوله، لكن الوقت كان أقصر مما يكفي. لكننا استمتعنا. حتى إنها طلبت مني أن نبقى على تواصل في الأيام القادمة.

لم تكذب أسيا في ما قالتها، غير أنها وصفت السعادة بطريقة مبالغ بها، لكنها بكل الأحوال لم تندم على وقتها مع لمياء، وبالفعل طلبت منها صديقتها أن تبقى على تواصل معها. ودت أسيا لو أن تلتفت وأن تصرخ بوجه جميل حتى يكف عن إصدار الإزعاج، فرأسها لم يعد يتحمل تداخل الأفكار والأصوات بهذه الطريقة.

عندما وصلوا إلى المنزل انتشروا من جديد، كل منهم كان لديه أمر غير مهم يقوم به. وبينما كانت آسيا تجلس وحيدة عاد إليها عمر وتسأل إلى جوارها. ثم سألها:

- لم تخبريني بأن هناك من اتصل بي.

- هل اتصلت لتشكوني إليك؟ هل أزعجها أن أجيب أنا على الهاتف بدلاً منك؟

بدا عمر سعيداً لأن آسيا تهتم لشأنه، لكنه برر الأمر بطريقة أبسط:

- إنها معلمة جميلة. اتصلت لتسألني عن أمر متعلق به، واعتذرت لأنها قد تكون تسببت بسوء فهم بيني وبينك. كان عليك أن تسأليني عن الأمر، ولا تكتميه وأنت تحملين تفسيراً سيئاً حياله.

- اتصلت بك؟ من جديد؟ إن كانت خائفة من كونها تسببت في سوء فهم بيننا، هذا يعني أن ليس عليها أن تعاود هي الاتصال بك. ثم إن معلمة جميلة ليس عليها أن تتواصل معك هي شخصياً. يمكنها أن ترسل رسالة على الأقل.

ابتسم عمر لأن آسيا تتصرف بطريقة طبيعية، فهو يعتقد بأن ما أصاب زوجته من حزن جعلها بعيدة عنه، ولو رآته يخونها مع جين فلن تندهش لهذا. لكنها الآن تتصرف معه بطريقة تظهر له مدى أهميته لديها.

الأحد

15 سبتمبر / 2019

9:00 صباحاً / العاصمة

لم تكن أسيا تحتل إلا جزءا صغيرا من أفكار أليكس، وتراودها صورتها، في أوقات قليلة متفرقة. لكن الآن هي تتطلع للقاء التالي بها، والذي من المفترض به أن يكون غدا. بدأت تجري، وهي تتخيل بأنها تسابق الوقت، وللمرة الأولى تشعر بأن انتظارها أربعاً وعشرين ساعة أخرى، أمر بالغ. قضت اليومين الماضيين في ترقب طويل جداً. إن أليكس تكن احتراماً لكل ساعة تمضي في الحياة، ولا تستطيع أن تهدر جزءاً من وقتها دون أي معنى. على الإنسان أن يقدر ما يضع فيه وقته، لأنه ببساطة يهدي جزءاً من حياته إلى ما تبدد فيه هذا الوقت. لذلك حين تهدي وقتك لأحد، عليك أن تدرك بأنك تسلمه جزءاً بسيطاً من حياتك بأكملها. الحياة ليست إلا وقتاً في النهاية.

اتصلت فيرا بأليكس، فضغطت على زر الإجابة، بينما الهاتف لا يزال معلقاً عند كتفها. خفضت أليكس سرعتها تدريجياً، حتى أصبحت تمشي بجوار البحر.

- ألا تنامين؟ حتى في أيام العطلة يا أليكس؟

- بل أناام أكثر مما تفعلين أنتِ، إنني أحترم ساعات النوم احتراماً جماً، لكنني فقط أختار الوقت المناسب لأبدأ جولتي مع النوم.

- لا تبدأ في إلقاء محاضرات نسمعها في برامج الصباح، ولا نطبق منها شيئاً. إن لم تتذوقي تعب قلة النوم فأنتِ لم تري المتعة الحقيقية في الحياة.

توقفت أليكس، واقتربت من الحاجز الحديدي، وقالت بسخرية:

- أي متعة في التعب؟

- إنها العائلة، لا ينامون باكراً، وأضطر لأن أبقى معهم. في الليلة الماضية أصرّوا على أن نشاهد فيلماً كرتونياً، لذلك بقيت مستيقظة طوال الليل، والآن علي أن أحرّمهم من النوم، حتى يناموا باكراً.

ابتعدت أليكس عن الواقع، فذكر العائلة أتى بمفعول سيئ. لم تعرف يوماً كيف يكون شعور المرء حين يرتبط بعائلة تعنيه وحده، وحين اقتربت من ذلك، حرمتها الحياة من ذلك. لم يكن في مكالمته فيراً أي شيء طارئ، غير أنها كانت تتفقد أحوال أليكس التي إن لم تطمئن عليها، فستغيب في غمرة عملها وأوراقها دون أن تشعر هي نفسها بذلك.

قبل أن تنتهي المكالمة رأت أليكس أن مكالمة أخرى قيد الانتظار، وكان الرقم الظاهر هو رقم المستشفى. أنهت الحديث مع شقيقتها، وأجابت على مكالمة المستشفى فأثارتها صوت أحد العاملين ينادي:

- دكتور مونتغمري؟

- أجل، ما الأمر؟ - سألت باهتمام. فصوت السائل كان مندفعاً.

- نحتاج إليك هنا، الأمر ضروري. حاولت إحدى المريضات الانتحار لولا أننا تدخلنا في اللحظة الأخيرة، وهي الآن تشن هجوماً فوضوياً على الجميع.

سألته أليكس:

- من هي؟

- إيما براون.

- وأين طبيبها الخاص؟

قال الرجل على الطرف الآخر:

- لن يعود قبل أسبوعين.

- حسناً أنا قادمة، لا تقدموا على فعل أي شيء، لا تدعوها تفقد الوعي حتى.

أغلقت أليكس الهاتف، وقادت سيارتها باتجاه المركز التأهيلي. لم يكن مقر عملها بعيداً عنها، لا يغضبها أن تضطر للتواجد هنا، حتى في يوم عطلتها. وصلت إلى هناك، وتذكرت بأنها ترتدي زياً لا يتناسب مع المكان. لكن هذا لن يعيق مهارتها في حل الأمور المعقدة.

سألت الممرض الذي استقبلها:

- أين هي؟

- إنها في حجرة عزل، لم نفقدها وعيها خوفاً من أن تكون بعض الأقراص لا تزال في معدتها. لقد تقيأت ثلاثة عشر قرصاً دفعة واحدة، ولا نعلم إن كان هناك المزيد أم لا، لكنها غالباً لا تملك عدداً كبيراً منها، وهي حتى الآن لا تزال بكامل نشاطها.

توجهت أليكس إلى الحجرة التي تحتضن ايما. لم يكن غضب الفتاة، قد تبدد بعد، لكنها دخلت في حالة من الخمول، ولم تعد منفعة كما كانت قبل ساعة من الآن. كانت أليكس على ثقة من قدرتها الخاصة، لذلك طلبت من الجميع أن يتركوها وحدها مع ايما.

غرفة العزل مراقبة للحالات الطارئة، ورغم ذلك، لم يساور أليكس

أي شك في أن أيما قد تؤذيها. امتزج الغضب مع ملامح أيما الجميلة، وشتت رقة ملامحها لتظهر في سنّها الحقيقي.

- هذه المحاولة الفائلة إذا؟

لم تتجاوب أيما، لكن الدموع انهمرت من عينيها فجأة.

- يمكنك أن تختاري طرقاً أخرى، أسرع. لن يستطيع أي شخص إنقاذك حينها. أما ما أنا آسفة من أجله فهو عجزنا عن إحراز أي تقدم، وتلك الأقراص التي تبددت دون أي نفع يا أيما.

- هل الأقراص هي ما أنت قلقة بشأنه؟

- أنا قلقة بشأن كل شيء يا أيما. حياتك عائلتك، والوقت.. والمحاولات أيضاً. أقدمي على الانتحار، وحينها لن تكوني محط اهتمام أي أحد. سيحزن الجميع عليك يوماً أو اثنين. ثم ستدفنين وينساك الجميع، ما عدا والدتك التي ستسأم من الحزن بعد عام. حينها ستكونين جزءاً من الماضي، لا يتذكره إلا قلة من الأشخاص. لن تكون هذه الحكاية أسطورية، أو مثيرة للاهتمام. لن تغير مجرى التاريخ، ولن تصنع السينما فيلماً يتعلق بحياة أيما براون غريبة الأطوار التي هربت من أسى الحياة.

بكت أيما بطريقة مفاجئة، سالت الدموع من عينيها بشكل غزير. ضربت اليكس كتفها، ثم حركت باطن كفها عليه، وهي تقول:

- أعرف مدى عمق ما تفرقين به. هناك عمق لا تعود معه الكلمات مسموعة. حتى الأيادي الممدودة لا تصل إلينا لتنقذنا. هذا إن كان هناك من يرغب في إخراجنا من العتمة أساساً. يتلاشى الضوء، ولا نعود نرى إلا بريق الشعاع على السطح كأنه وعد ببهجة لن نصل إليها. لأنك ما أن تطفين إلى السطح من جديد يكون اللعان قد زال. هذه هي الحياة، تجعل الجانب الآخر دائماً محاطاً بالفضول، والسعادة المزيفة. لذلك نشعر بالملل مما لدينا. لكننا ما أن نقفز للجانب الآخر، نجده شبيهاً بما كنا عليه. إما أن نتعايش مع هذا الملل، أو نموت. نحن من يختار.

- لكن هذا الملل لا يحتمل.

- لا شيء في الحياة يحتمل. يموت الإنسان من فرط الضحك أحياناً، والسعادة البالغة قد تعطل القلب عن عمله. لا شيء يحتمل، لا الحزن، ولا السعادة، ولا حتى الملل. لكن يمكننا أن نعيش بجرعات قليلة من كل شيء.

غرقت أيماناً في زوبعة تفكير، وهذا التفكير بعثها إلى تأنيب الذات، وإلى الغضب لفكرة الفشل. كان هناك ما يعيقها عن الوصول إلى النقطة المضيئة التي تراها في نهاية الطريق، لكن الحياة تجرّها للخلف، حيث هذا الفراغ الممل.

- أعجز عن الوصول.

علقت أليكس:

- لكنك تضعين وجهة، وتطمحين للوصول إليها.

- ليس تماماً. أشعر بأن هناك ما يجب أن أصل إليه، لكنني لست أفهم ما هو.

- بدلا من أن تؤنبي نفسك لكونك في هذا الفراغ، حاولي اكتشاف ما هو هذا الهدف الغامض الذي تطمحين للوصول إليه، لكنك تخشينه.

رفعت ايما عينيها وعلق:

- لم أقل بأنني أخشاه.. لكن.. أنا بالفعل أخشى المجهول. أخشى أن يكون رتبيا كما نحن الآن.

تتفهم أليكس كل كلمات أيما، بل إنها وهي الشخص الذي يساعد في تبديد هذه الحالة، كانت تملك ما يشبهها. من الطبيعي أن يمر الإنسان بمثل هذه المشاعر، وهذا الفتور وارد. لكن من غير المقبول، أن تسمح للملل أن يمحو ألوان الحياة كلها.

- أتركي ما هو آت لوقته، ولا تبدي الحاضر. نحن إما نخشى المستقبل، أو نعيش على ما تبقى من حنين الماضي، وننسى أن

وقتنا الحالي يهدر دون هدف.

- إن أردت الموت، فلن يمنعك أي أحد في كل مرة، لكن تذكرني بأن هذه هي النهاية، لا يوجد أي فاصل قادم مليء بالإنارة بعد ذلك. إن كنت تبحثين عن التغيير، اصنعيه، ولا تهربي من هذا الفراغ.

لم تكن أليكس متأكدة، ما إذا استطاعت أن تبدد حزن الشابة، لكنها على الأقل أعطتها بعض الكلمات التي ستساعد في إخماد قوة الدوامة التي دارت بداخلها لبعض الوقت. رأت عيني أيما وهي غارقة تحت طبقة من الدموع التي عارضت الجاذبية، ورفضت الانهمار. أشاحت أيما بوجهها بعيداً، وأخفت ضعفها عن أليكس التي لم تكن موكلة بعلاجها.

همت أليكس بالنهوض، وسارت مبتعدة عن أيما التي شوش الحزن جمالها. سارت نحو الباب وخرجت من الغرفة المراقبة بالكاميرات، تاركة الشابة وحيدة هناك. كان الفريق الذي يراقب الأمر مدركاً لما أحدثته أليكس من تغيير، ليس لأنها اختارت الكلمات المناسبة، فليس من الصعب أن تختار كلماتك، بل أحياناً يكون الاختبار، هو طريقة إيصال هذه الكلمات. لذلك كانت أليكس بارعة في إرسال رسائلها من القلب مباشرة، وحتى إن كانت قاسية، فهي تختار معناها بدقة.

حين عادت أليكس لمكتبها، أدركت أن قدراً جيداً من الوقت قد سار، وأن هذا اليوم لم تتجمد ساعته كما كانت تتوقع. جلست في

المكتب وهي تتخيل اللقاء القادم بأسيا. لماذا هي؟ لا تعلم أسيا، لكنها تملك شكوكها الخاصة حيال تلك المرأة، وهناك أفكار لا يعلمها أحد حتى الآن، هذا الأمر منحصر بينها هي ومنصور فقط.

1:07 مساءً / الوادي الغربي

لم تر أسيا الدهشة على وجوه أفراد عائلتها، لتطفل رسيل على منزلها مرة أخرى، بل كان جميل متقبلاً لدعابات رسيل، وتماديها في تدليله، فيما زهرة كانت هي من بادر في تحية رسيل، وكذلك فعل عمر والذي أظهر امتناناً مزيفاً لزيارتها. أعادت الجارة حافظة الطعام إلى أسيا، ولكنها ملأتها من غداءها الخاص.

- لماذا تكلفت عناء هذا؟ - قالت أسيا.

- عناء ماذا؟ كنت أعد الطعام، ولم أر ضيراً في مشاركتكم به. أنتم جيراني، وأصدقائي أيضاً.

شكرتها أسيا، ودلفت إلى المطبخ لتضع الحافظة هناك، تعد ما يمكن أن تشربه مع رسيل، فوجدت المرأة تتبعها إلى هناك. جلست رسيل على الكرسي الخشبي المقابل للطاولة الصغير في المطبخ، ولم تتدخل في عمل أسيا، وهذا جعل أسيا تتصرف بحرية أكبر.

- أخبريني إذا، كيف هي أحوالك اليوم؟

أدارت أسيا وجهها بينما جسدها كان مقابلاً للموقد.

- أنا أفضل حالاً اليوم. إنني أتقدم كل يوم، وهذا يشعرني بالارتياح نوعاً ما. لا تزال هناك بعض الأسئلة المجهولة في رأسي، لكنني لا أرهق نفسي على الأقل.

- هذا مذهل، ويسرني أن أسمعك تقولين هذا.

أرخت رسيل جسدها على الطاولة الخشبية الخالية، ومع تلك الحركة تداعى كل التماسك الذي بدت عليه عندما أتت. ظهر الإرهاق على وجهها، وملامح الملل كذلك. حملت أسيا كوبي الشاي، ووضعت أحدهما أمام رسيل، ومن ثم جلست بينما كانت تراقب جارتها التي تبدو كسولة.

- ما الأمر؟ - سألتها أسيا بداعي الفضول فقط.

- لا أعلم. إنه أمين، الأيام التي يسافر فيها تبدو مملة، لا شيء يمكنني أن أفعله بينما لا يكون هو هنا.

لا تعرف أسيا بشكل دقيق، كيف تبدو حياة رسيل، لكنها بحثت عن أسهل الحلول، وقالت:

- هذا النمط، لا يقتل اللهفة بينكما. ثم إن الوقت الذي لا يكون فيه هو بالمنزل، يمكنك أنت أن تقومي بما تشائين دون رقابة أو قيود. لا أحد سيقطع عليك وقتك الذي تقضينه مع هواياتك مثلاً. فكري في أنك لن تكوني ملتزمة به، وأن هذا الوقت ليس إلا إجازة من تلك الحياة.

عبر جميل أمام مدخل المطبخ، ثم تجاوزه كما لو أنه قط يتبع طرف خيط. لم يفهم المهمة التي دارت بين والدته ورسيل، ولم يهتم لأن يترجم تلك الكلمات، بل تركهم وراح يتبع ما ظن بأنه حقيقي.

أتى الصوت من الطابق السفلي، ولم يكن الصوت الذي يصل لمسامعه، يشبه صوت والدته. قد يكون الأمر شبيها نوعاً ما بصوت زهرة، لكنها ليست زهرة بكل تأكيد. خرج من حجرته، وتبع الصوت عبر السلم، ثم إلى الطابق السفلي.

قضى الصبي وقتاً طويلاً في منزل جده، والذي هو الآن منزلهم الجديد، لكنه حتى الآن لم يعتد على العيش هنا. هذا المنزل قديم وكبير، ولا يشبه كل الأماكن التي رغب يوماً في أن ينتقل إليها، بل كان يشبه المنازل الموجودة في الأفلام القديمة، والتي تحمل في أقبيتها أسراراً دفينية، وأحياناً يكون في العلية شبح عالق لرجل مسن، أو امرأة شعرها يغطي وجهها. كان الطفل بارعا في بناء الحكايات المربعة تماماً كما كان بارعا في الرسم.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها تلك الأصوات الغريبة والتي مثلها بالرسوم الموجودة في أوراقه. لكن أحداً من عائلته لم يحاول ترجمة تلك الرسوم حتى الآن. بل إن أفراد عائلته لا يصدقون كل تلك الروايات المرعبة التي كان يرويها لهم عن هذا المنزل الكبير. يقول والده بأن المنزل قديم، وكل تلك الأصوات جزء طبيعي منه، أما والدته فقد ابتلع المنزل روحها وأصبحت قريبة من الجنون.

تحول صوت زهرة الجدي، إلى صوت ضحكات مرحة، فهمس الطفل لنفسه:

- حبيبة.

هذا هو صوتها، وأراد هو أن يتبع صوت شقيقته التي أصبح الصمت يبعدها عن ذاكرتهم. تحركت خطواته بسرعة عبر الممر الطويل وهو يحاول بعجز أن يقبض على الصوت غير المرئي. حبيبة ليست موجودة الآن، لكن صوتها هنا. رحلت الفتاة بطريقة غامضة، لم يتمكن الطفل من معرفة تفاصيلها، لأن والدته كانت أكثر حزناً من أن تبوح له بها، ووالده كان قلقاً بشأنه، فلم يخبره.

ضحكت الفتاة، فنادها جميل بجرأة أكثر:

- حبيبة.

وصل جميل إلى مدخل القبو، وسمع صوت همهمة شبيه بالصوت الآتي من المطبخ. أسند رأسه على الباب الخشبي المقفل، وبسطة صوان أذنه على الباب فتلاشى الصوت. لكن موجة أخرى عبرت محملة ببعض الأصوات غير المفهومة، ثم تلاشت. أبعد الطفل أذنه عن الباب، وتبع صوت الحركة الآتي من الأرضية.

- حبيبة، إنني جميل.

رفع الطفل رأسه، فوجد ظلا أسود نحيلًا يحجب النور الموجود في نهاية الممر. شهق الطفل، وعاد للخلف بضع خطوات قبل أن يفقد توازنه ويتهاوى على ظهره.

- هل أخفك؟ أنا آسفة؟

أصبحت صورة الظل واضحة، وتعرف الطفل على والدته التي كانت تساعده في النهوض وتعتذر منه في آن واحد. جلست والدته على ركبتها، وأصبحت قريبة منه ثم سألته:

- هل كنت تنادي حبيبة؟ - لمعت عيني أسيا ببريق غريب رغم الظلام المحيط بهم.

- أنا.. لم..

- أخبرني، لا تخف. سأصدق ما تقوله.

- أعتقد.. بأنني سمعت صوتاً ما، يشبه صوتها. لكنها ليست هنا.

أحاطت أسيا كتفي ابنها بذراعيها، ورجته أن يقول ما يفكر فيه:

- كنت ألهو فقط.

تركها الطفل وفر منها خائفاً. فراقبته يبتعد وشعور بالخيبة يولد بداخلها.

16 سبتمبر / 2019

9:15 صباحا / مركز العاصمة التأهيلي

- تم التواصل مع طبيب ايما بالفعل، وهو يقول بأنه فكر مسبقاً في أن يجعلها تخضع لجلسة علاج كهربائية، والآن المستشفى لا يحتاج إلا لموافقته للقيام بالأمر. يبدو الأمر مخيفاً لو أدركت هي بأن هذا ما سيجري، لكنه على الأقل حل أفضل.

شرح منصور الجالس أمام أليكس، حالة أيما. شعرت أليكس بالأسف لأن هذا الحل أصبح وارداً قبل أوانه، لكنه سيساعدها بكل تأكيد. كان منصور أحد أكثر الأفراد كفاءة في طاقم العمل بالمركز. استطاع بوقت قياسي أن يترك بصمته في الكثير من الحالات، رغم أن عمله لا يقتضي أن يكون هو في واجهة المركز، لكنه بارع في تحليل التفاصيل الصغيرة التي تحول الحالات العلاجية، من قضايا نفسية إلا حالات مرضية، تتطلب علاجاً صحياً أكثر. بفضلته تم اكتشاف أكثر من عشر حالات تعاني من خلل في الدماغ، لم يتم اكتشافه بوضوح. لا يوحى مظهرة بهذا الذكاء، فهو نحيل وقصير القامة، وله أسنان بارزة، لكنه تمكن من الاستحواذ على ثقة أليكس

بسهولة، ويشكل معها فريقا استثنائيا يعد الأقوى في المركز.

- هل ستقابلينها اليوم؟ - سأل

- نعم، يفترض أن يكون لقاءنا بعد ساعة من الآن.

نهض منصور من مكانه، وذكر أليكس قبل أن يخرج:

- لا تنسي أن تطلب منها أن تجري الفحص الضوئي، ولا تنسي أخذ عينة دم أخرى.

هزت أليكس رأسها، وهي بالفعل لم تنس تلك التفاصيل، ولم تكن لتفعل. تشكل أسيا حالة محاطة بالغموض بالنسبة لأليكس، ولن يردعها أي شيء لأن تكتشف هذا السر المحيط بها. حاولت أليكس بعد رحيل منصور أن تقضي ساعة الانتظار في رحلة الكشف السريع على المرضى الموجودين في المستشفى. حملت ملف الفحص، وسارت إلى الجناح المخصص لغرف النزلاء.

نقطة الوقوف الأخيرة في رحلة الاستطلاع الصباحية، كانت عند راجية. أرادت أليكس أن تستمد منها بعض الشعور بالاطمئنان. لم تبدو المرأة غريبة، بل كانت في كامل وعيها، وأظهرت ترحيبا حارا بأليكس.

- مضى وقت طويل، لم تأت لتريني فيه.

- حقاً؟ يجب أن أعتذر عن ذلك يا راجية.. أنا أسف لهذا الإهمال الصادر مني. ستكون هذه هي المرة الأخيرة.

لم يكن هذا حقيقياً، فأليكس تزور راجية في كل يوم عمل، ولا تنقص الزيارة إلا في نهاية الأسبوع، حين لا تكون أليكس في المستشفى. جلست أليكس على طرف سرير راجية، رفعت المرأة ظهرها بصعوبة، لتتيح مكاناً يكفي أليكس. مدت يدها لتمرر كفها على ذراع أليكس، ثم سألتها:

- لماذا تبدين حزينة؟ ألا يعاملك زوجك بطيب هذه الأيام؟

لو طرح السؤال على أليكس في أي وضع آخر، لكانت قد انفجرت من الضحك، لكنها بدلاً من ذلك نظرت بإجفال إلى عيني راجية، ونقلت بصرها إلى أعرق جزء فيها. طفح الحزن في عين أليكس، وكانت دفقته أكبر من أن تستطيع السيطرة عليها. التزمت أليكس الصمت، وكذلك فعلت راجية التي لم تعد تنتظر الإجابة، لكنها قالت فجأة:

- ها. أليكس عزيزتي، ها أنتِ ذي. - تبدد حزن أليكس في تلك اللحظة.

- نعم يا راجية، هذه أنا كما ترين. - ظهرت بعض الشفقة في صوت أليكس.

- لا تبدين على ما يرام يا أليكس؟ ما الأمر اليوم؟

أظهرت أليكس بعض الاستعداد على محياها، ثم قالت:

- هناك شيء أترقب حدوثه اليوم. قد لا يكون بالأهمية التي تتصورينها، لكنها طبيعتي، أهوى ترقب الأمور حتى يستنزف هذا طاقتي.

- ما هو قادم سيأتي بوقته، وما هو لك ستكونين في طريقه عندما يصل.

- ليس الأمر هكذا يا راجية. لا نعول الأمور على الانتظار دائماً، هناك طرقات يجب أن نتقاطع معها بذكاء، وإلا فإن الرحلة ستنتهي قبل أن نصل إليها. ليست الحياة ببساطة الارتكاز على القدر والحظ. إنما هناك حسابات تحتاج إلى تفكير وذكاء أكثر من فرصة حظ عابرة قد تصيبنا أو لا.

عادت راجية لتغرق في نوبة صمت غريبة. ظنت أليكس بأن نوبة جديدة قد سرققتها من الواقع، لكنها نطقت فجأة، وبطريقة لا تشبه أسلوبها في الكلام:

- طالما الإنسان يدرك أساليب الوصول، لا يهم طول الرحلة إذا. أليس كذلك؟

- هو كذلك؟ - أيدتها أليكس، ثم ابتسمت بنصر.

10:30 صباحاً / مركز المدينة التأهيلي

سارت أسيا، وهي تسبق عمر إلى مكتب أليكس. نهضت أليكس لتحيي الحالة التي أتت في وقت دقيق إلى مراجعتها. ثم أثارت لها لأن تجلس على الكرسي الموضوع أمامها مباشرة، بينما عرضت المقعد الآخر على عمر الذي كان يشعر بأن وجوده أقل أهمية مما كان يعتقد، فلمعان عيني الطيبة تجاه أليكس، كان يعني بأنها هي الهدف.

- من الجيد أن نلتقي من جديد يا أسيا.

- ليس جيداً تماماً. - ابتسمت أسيا ثم أردفت - ليس هذا قليلاً منك أنت، إنما أنا أعني وجودي هنا يعني بأنني لست كما يفترض بي أن أكون.

بادلتها أليكس الابتسام قبل أن تعلق:

- في هذا أنت محقة. لو كان لقاؤنا بعيداً عن هذا المكان، قد لا يحمل معه الطابع الذي ترسمينه لنا.

- المعضلة هي ما أنا فيه. لا يتعلق الأمر بشخص، أو مكان.

زمت أليكس شفتيها، فمن حسن الحظ، أنها الآن تجلس مع حالة متفهمة للمرض، وهي ذكية أيضاً. لا تبدو أسيا خائفة أو قلقة مما هو آت، بل كانت تتفهم هذا السوء وما يظهر لأليكس، بأن أسيا تتعايش مع الحالة، ولا تحاربها بطريقة فوضوية تفسد الأمور.

- من الجيد أن تكوني على هذا القدر من التفهم. لم تكن البداية جيدة، وهذا بسبب الصدمة يا أسيا، واعتقد بأنك تتذكرين التفاصيل كلها. لكن الآن، أنتِ على مقدار جيد من التفهم، وهذا ما نتطلع إليه نحن. إن هذه هي العتبة الأولى في رحلة العلاج.

- آمل أن تكون هذه الرحلة، أقصر مما أتصور.

التفتت أليكس فجأة إلى عمر وسألته:

- وأنت يا عمر، كيف تسير الأمور معك؟

- إلى حد ما، كل شيء يبدو جيداً. أسيا تتقدم، بل ولاكون أكثر صراحة. نقل عمر بصره بين أليكس وأسيا بحذر لكي لا تجرح كلماته زوجته - إنها تبدو أفضل مما كانت عليه قبل أن تقع لها تلك الحادثة الغريبة. لقد كانت أسيا تفرق في حالة من الاكتئاب والحزن، حتى أن عزيמתها تبددت فجأة، لا تريد أن تتقدم ولا تتصرف كما لو أنها على

قيد الحياة. إنها تستيقظ وتبقى منتظرة لموعد نومها القادم. أما الآن فهي تبدو لي طبيعية أكثر، لكن آثار الصدمة لا تزال موجودة.

سألته أليكس كما لو أن أسيا ليست هنا:

- وهل هذه الآثار مستمرة أم أنها تزول هي الأخرى؟

أجاب عمر بفخر:

- إنها تزول. ما أن تستوعب أسيا الأمور، حتى تزول صدمتها حياها.

- هذا جيد. - علقت أليكس ثم دونت أمرا ما على أوراقها.

قامت أليكس بإعادة ترتيب أوراقها، قبل أن تحملت وتضعهم في الجرار الأول أسفل سطح مكتبها. شبكت أصابعها معا ثم راقبت الاثنين معاً قبل أن تعلن بشيء من الإحراج عن أنها تود بأن تتحدث إلى الحالة على انفراد. تفهم عمر الأمر ولم يعترض عليه. خرج وترك أسيا بصحبة الطبيبة.

بينما كانت أسيا تراقب الطبيبة بتطلع، قالت أليكس:

- أخبريني بكل صراحة يا أليكس. هل تشعرين بما أدلى به زوجك؟ هل الأمور تصير على هذه الطريقة السريعة من التقدم؟ أم أن هناك

ما لم ترغبني بالإفصاح عنه أمام زوجك؟

فكرت أسيا في كلمات أليكس التي ألقتها في دوامة من الأفكار المتضاربة. هل تعترف بالحقيقة؟ أم تكذب حتى تبعد عنها تهمة الجنون العالقة بها؟ لكنها قررت أن تعترف في نهاية الأمر.

- في الواقع.. هذا ما يراه هو، هذا ما أحاول أن أكون عليه. لكنني استيقظت على حياة لا تشبه حياتي. فتحت عيني على وحشة لا مثيل لها. كأنني عدت إلى منزلي وحدي بعد أن قضيت رحلة ممتعة بعيدة. أشعر بالوحدة وأنا بين أفراد أسرتي. أشعر بأن العالم فقد بريقه رغم أن شيئاً لم يختلف.

- قد يكون سبب هذا هو أنك لا تزالين قيد محاولة تفهم الواقع، هناك حقائق فقدتها يا أسيا.

- أعلم، هذا صحيح تماماً. لكن هناك أمور مختلفة كلياً. عمر لا يبدو لي هو الشخص ذاته الذي أعرفه. أفكر أحياناً بأنه يخدعني، لكن الواقع يقول عكس هذا. أشعر.. كما لو أن العالم كله يتآمر علي، لكن كل الحقائق تعبت أن عقلي هو الشيء المتعارض مع العالم كله. هذا أمر لا أفهمه.

نظرت أسيا مباشرة إلى عيني أليكس ثم قالت:

- أنا أحمل ذكريات لكل يوم في هذا العام، يمكنني أن أخبرك بكل

شيء أعرفه حدث في هذا الشهر، والشهر الماضي، وما هو قبل ذلك. كل تلك الأشياء لا يمكن أن تكون من صنع أوهامي إنها دقيقة وتتماشى مع الواقع بطريقة طبيعية. أما ما أراه الآن فهو مختلف.. مختلف تماماً.

بدأت عيني آسيا جاحظة بينما هناك طبقة شفافة لامعة تغطيها.

- أخبريني إذا أي معلومة تعرفينها من ذكرياتك السابقة. معلومة نستطيع جميعنا أن نطلع عليها.

هتفت آسيا بحماس:

- الرئيس تنحى عن منصبه قبل أربعة أشهر.

- هذا لم يحدث. بل إنه لا يزال يحكم. نظرت اليكس إلى صورة الرجل الأشيب المعلقة على جدار مكتبها.

- لقد.. لا يهم هذا.

طلبت أليكس من آسيا معلومة أخرى:

- في الشرق، أصيبت المدن الساحلية بزلزال قبل تنحي الرئيس بأسبوع واحد.

- هذا لم يحدث قط أيضاً يا أسيا. تماماً، كما أن احتفالك بعيد ميلاد حبيبة لم يكن حقيقياً.

شعرت أسيا بوجود حجر ثقيل في أمعائها، كادت أن تتقيأ في مكانها، لكنها تماكنت نفسها، وحاولت النهوض، لا يمكن أن تكون مخطئة. أعادتها أسيا للواقع، وهي تطلب منها أن تقوم ببعض التحاليل الإضافية.

- حسناً. وافقت أسيا بعجز.

تم دفع الصفيحة الصلبة التي نامت عليها أسيا إلى داخل آلة أسطوانية باردة، بدأت تصدر طيناً طويلاً، واهتزازات لم تكد أسيا تشعر بها. استغرق هذا وقتاً طويلاً، وظنت أسيا بأنها رأت آلات مماثلة لهذا من قبل، لكنها واقعياً لم تر هذا الجهاز من قبل. عندما خرجت من الآلة كان الرجل القصير ذو الأسنان البارزة والوجه النحيل، يساعدها على النهوض. مرت عيني أسيا على بطاقته التعريفية، ولم تهتم لأن تتذكر اسمه المكتوب "منصور". تجاهلته وخرجت من الحجرة الباردة، متجهة إلى المختبر الصغير المكشوف، حيث يتم أخذ عينة من دمها هناك.

تبعها منصور ليسلمها ما تركته في الحجرة. مد كفه لترى أسيا فيها، أقراط الأذن الصغيرة، والسوار الذي عليه علامة اللامتناهي. ارتدت أسيا أقراطها بسرعة، وبينما كانت تشد السوار، تذكرت أنه هدية حبيبة، والتي تلقتها قبل أشهر قليلة.

"حبيبة" كادت أن تهمس بصوت مسموع، لكن صوتها لم يخرج.
كيف يمكن أن تملك هذا السوار قبل شهرين، بينما الطفلة ماتت في
الربيع؟

جاورها عمر وسألها ليقطع حبل أفكارها:

- ما الأمر؟ ماذا قالت لك الطيبة؟

- لا شيء ذا معنى. عليهم أن يجروا بعض التحاليل الأخرى،
وسألتني عما إذا كنت حقاً بخير، أم لا؟ لا تقلق يا عمر فلا يوجد ما
أخفيه عنك.

ظهرت علامات الاطمئنان على وجه عمر، ولم يعد مولياً تركيزه
إلى أسيا، حتى وصلوا إلى المختبر. جلست على الكرسي، وأتت
إحدى الممرات لتسحب عينة من دم أسيا تحت إشراف منصور أيضاً.
أشاحت أسيا ببصرها عن الأنبوبة التي تدفقت الدماء فيها.

- انتهينا. - قالت الممرضة.

حاولت أسيا النهوض، لكن دواراً مفاجئاً أصابها. التفت منصور إلى
عمر وحذره:

- عليها أن تشرب العصير، أو أن تتناول أي شيء، حتى تزول نوبة

الدوار هذه. هز عمر رأسه متفهما، وأعطى يده لأسيا حتى تتشبث به، لكنها شعرت بالمبالغة في ذلك. قبضت على يديه لعانية واحدة ثم أفلتها، وسارت بجواره.

لم تتمكن أسيا من الوصول إلى نهاية الممر، قبل أن تدرك بأن العالم يضيق داخل حلقة سوداء. ضاقت تلك الحلقة وازدادت العتمة حولها. فقدت توازنها كلياً، ولم تدرك بأنها ترقد على الأرض. كانت تظن بأنها لا تزال واقفة، لكنها فتحت عينيها لترى العالم مائلاً، وليس كما توقعته. فقدت بعد ذلك وعيها بتدريج سريع.

12:50 مساءً / مركز المدينة التأهيلي.

- حامل؟

لم يكن بالحجرة سوى أسيا وأليكس. ابتسمت أليكس، لكن تلك الابتسامة لم تكن كافية، فخرجت ضحكة قصيرة من فمها، ثم رأت جهاز تحليل الحمل الصغير في يد أسيا، وأكدت لها بأنها حامل بالفعل. غطت أسيا فمها بيدها، ولم تعد قادرة على فهم ما يحدث معها، هل كانت تضحك، أم تبكي. شعرت بوجنتها تتورم لشدة ما كانت تبتسم، وفي الوقت ذاته سالت الدموع حارة على وجنتيها.

- هذا مؤشر جيد، لأن تندفعي أكثر في الحياة، وقد يكون تعويضاً عن خسارتك. قالت أليكس تلك الكلمات، فتلاشت ابتسامة أسيا، وتذكرت حبيبة فجأة. رغبت لو أن تتلفت حولها، وأن تنادي حبيبة. هي لا تصدق حتى الآن بأن الفتاة اختفت بغمضة عين دون تفسير واضح.

لم يكن في المستشفى أي إمكانية لفحص أسيا والتأكد على أنها حامل أم لا، لكن أليكس شكت في ذلك، عندما نهضت أسيا وشرحت لها الأعراض التي كانت تصيبها في الأيام الماضية، لذلك طلبت سراً، إحضار هذا القلم. كانت شكوك أليكس وأسيا صحيحة،

فالمراة بالفعل حامل، وتعرف أسيا كيف تكون تلك الأعراض. لكنها على الأرجح لا تزال في البداية فلا شيء واضح، غير تلك الأعراض الأولية.

- لن أخبر عمر، حتى نصل إلى المنزل.

علقت أليكس:

- ستكون مفاجأة يحتاج إليها بكل تأكيد.

- هذا صحيح. - ابتسمت أسيا وهي تتخيل دهشة عمر حين يعلم بذلك.

قامت أليكس بمسيرة أسيا حتى وصلت إلى باب الحجرة، فتحت أليكس حقيبتها ودست قلم التحليل فيها، بعد أن غطته بمناديل ورقية. أرسلت ابتسامة للطبيبة التي تفهمت سبب قيامها بذلك، ثم انطلقا للخارج، حيث كان عمر القلق ينتظر خروج زوجته.

احتضنت أسيا يد عمر، ومن ثم التفتت لتودع أليكس:

- سأراك في موعدنا التالي.

- ولن يكون هذا بعيدا جداً. - علقت أليكس ثم أردفت قائلة -
كوني حذرة يا أسيا، وأنت يا عمر عليك أن تهتم بزوجتك جيداً.

- أفعل ما بوسعي. علق عمر الذي رفع حاجبيه دهشة.

عند ذلك الممر الواسع، تفرقت أسيا واليكس، حيث عادت الطيبة إلى عملها، وكانت تسابق خطواتها لتصل إلى منصور، بينما رحلت أسيا وهي تقبض على يد زوجها الدافئة.

3:10 مساءً / الوادي الغربي.

- لا أعلم كيف علي أن أبوح لك بذلك.

أخفت أسيا ابتسامتها وجرت الحقيبة إليها. كان وجهها يوهي بالمكر، وهذا زاد فضول عمر الذي نظر إليها بترقب حتى يعرف ما الذي تمهد زوجته لقوله. راقبها وهي تدس يدها في الحقيبة، ثم تخرج حفنة من المناديل الورقية، وبعد أن أزالته قالت بحماس طفولي:

- أنا حامل يا عمر.

تلاشت كل التعابير عن وجه عمر، وبدلاً من الدهشة، ظهر الجمود على وجهه. تحول إلى تمثال وبصره موجه نحو القلم فقط. تحركت أسيا من مكانها، وسارت باتجاه زوجها. وضعت أسيا يدها على

كتف زوجها الواقف أمام ضوء النهار الآتي من النافذة. رفعت يدها وأرختها على كتفه القاسي، ثم رفعت القلم، وكررت:

- أنا حامل.

ضرب عمر كفها، فطار القلم، وتدحرج على الأرض، ثم دار حول نفسه دورتين قبل أن يوقفه الجدار. ظلت يد آسيا معلقة في الهواء كما لو أنها لا تزال قابضة على القلم. جر عمر يدها بعيداً عن كتفه. وتركها تسقط مرتخية. راقبته آسيا بتساؤل، فقال:

- ما تقولينه لا يمكن أن يكون صحيحاً؟

- لماذا فعلت هذا؟ ظننت بأن هذا الأمر، سيغير ولو جزءاً بسيطاً مما نعيشه.

كادت آسيا أن تصرخ لشدة ما أصابها من إحباط، لكن عمر كرر:

- هذا أمر غير معقول. ما تقولينه يعني دمار عائلتنا.

- عمر، أنا.. لا أفهم. أقول لك بأنني..

أغلق عمر عينيه، وفتحهما فجأة، وتقدم خطوة من زوجته. ثم سألها عن ما قالت له لتكرر هي الأمر ذاته. أخبرته بأنها حامل، لكنها لم تفهم لماذا يبدو عمر على هذا القدر من الغضب. فكرت في أنه

غاضب، لأن خطته في الخلاص منها ستفشل مع حملها. عادت
شكوكها تجاهه إليها.

- حامل؟ كيف؟ بل متى حدث هذا؟ - جر عمر معصم أسيا وراح
يهز جسدها.

- اترك يدي. ماذا دهالك؟

- لم نقم بأي شيء منذ أن ماتت حبيبة. بل إنك بالكاد كنتِ على
قيد الحياة. كيف يعقل أن تكوني حامل الآن؟ ما الذي كنتِ تقومين
به ولا أعلمه. بل أين كنتِ في تلك الليلة التي وجدوك فيها عارية
على قارعة الطريق. إن لم تتعرضي للاغتصاب، فهذا الأمر حدث
بإرادتكِ إذا.

رفعت أسيا كفها الحر، وبطريقة مفاجئة صفعت عمر.

- كيف تجرؤ؟ ما أنت إلا بقايا حقيرة لإنسان كنت أعتقد بأنني
أحبته. كيف تجرؤ على التفكير فقط بهذا الأمر؟

دفعها بعيدا عنه، فترنحت أسيا قبل أن تسقط على الأرضية
الخشبية:

- أنت من يستحق الاحتقار. لم نقترّب من بعضنا لأشهر عديدة،
واليوم تقولين إنك حامل. كيف تريدني أن أصدق هذه اللعبة.

بل أنا من عليه أن يسألك عن هوية والده هذا الشيء الذي ينمو في أحشائك.

نهضت أسيا، وودت لو أن تقفز على عمر وتضربه من جديد، لكنها خافت منه. ترنحت بينما هي تقف. وبعد أن استجمعت قواها صرخت قائلة:

- كفاك. قد أبدو غريبة، لكن ما تتخيله أنت لا وجود له إلا في رأسك.

سألها عمر:

- أخبريني إذا متى حدث هذا؟

- كنا نقوم بالأمر على الدوام يا عمر. هذا ما أتذكره أنا.

- تتذكرينه؟ - ابتسم عمر بسخرية ثم قال - هذه الذاكرة المعطوبة لا تتذكر شيئا. أنا الذي لم ينس شيئا، ولم أصب بالخرف بعد.

صرخت أسيا:

- هل تشمت بي؟

- أنت من يهزأ بي. لا يمكن أن يكون ما تقولينه حقيقيا، وإن

كان كذلك، فهذا الطفل ليس ابني أنا. لا أتذكر أي شيء حدث بيننا طوال الأشهر التي تلت موت ابنتنا. أنت من عليه أن يجد تفسيراً لكل الغموض الذي يعيش فيه. أجذك عارية في الطريق ولا أقول أي شيء. حاولت تصديق تعرضك للهجوم، ولم أسألك عن سبب وجودك في العاصمة ذلك المساء. كل الأيام التي سبقت تلك الحادثة، اختفاؤك عن المنزل لساعات، وتصرفاتك المجنونة كلها، لم أبحث عن أي تفسير لها. كنت أعتقد بأنك تأثرت لموت حبيبة، ولهذا تتصرفين على هذا الوجه. لم أعتقد بأنني مغفل وأن زوجتي تخونني طوال تلك الأيام.

- لم أخنك. - تبدد صوت أسيا - أقسم لك بأنني لم أقم بهذا. كان الأمر يحدث بيننا على الدوام. أنت من لا يرغب في تصديق الأمر يا عمر. ما أتذكره أنا يختلف تماماً عن ما أراه الآن. أنت تخبرني بأشياء لا وجود لها. كيف لا يكون هذا الإنكار جزءاً من خطتك أنت.

عقد حاجبيه وسألها:

- خطتي؟ وما هي خطتي؟

- أنت من يريد أن يزيّف الواقع أمامي. كل هذا الجنون، أنت من خطط لأن يوقعني به. والآن تتهمني بالخيانة. إلى أي مدى تريد أن تصل معي بهذه الخطة. كم تهمة عليك أن تلفق لي قبل أن تنجح؟

- ما هذا الهراء؟ - قالها ثم ضحك بطريقة مزيفة وهو يشيح بوجهه

عن زوجته.

- هذا ليس هراء، إنها الحقيقة.. حقيقة خطتك الغبية. لا أعلم كيف استطعت أن تزيف الواقع، وأن تغير كل الحقائق، لكنك بارع في ذلك.

كور عمر قبضته بغضب وقال:

- لا تبرري فعلتك بهذه الطريقة المثيرة للشفقة. يمكنك الهروب من هذا بالاعتراف، ليس عليك أن تتهميني بما لم أقم به، فقط للهروب من الواقع.

- بل أنت من يراوغ الآن.

نظر إليها وقال بسرعة:

- هذه ليست خطوة ذكية للهروب من الكارثة التي اقترفتها. الحقيقة هي أنك حامل.

- عليك أن تخرس الآن. إن كنت تريد أن تستولي على كل ما لدي، تستطيع القيام بذلك، لكن أعد لي حبيبة وحياتي السابقة، وخذ ما تريده أنت بعد ذلك.

صرخ عمر بصوت تسمعه أسيا للمرة الأولى:

- كفى.. توقفي عن جنونك هذا. ما الذي تملكينه لأستولي عليه.
هذا المنزل؟ الذي أعيش فيه الآن. لا وجود لحياة سابقة، وحبوبة
ماتت. ابنتنا ميتة افهمي ذلك.

رفعت أسيا معصمها بوجه عمر وهي تشير بيدها الأخرى للسواد
المعلق فيه، لم يفهم عمر معنى ذلك فقالت وهي تحرك أصبعها لتشير
إليه بوضوح أكثر:

- وهذا؟ ألم يكن هديتك لي في عيد ميلادي؟ ألم تختره حبيبة
لي؟ كيف يمكن أن تختاره حبيبة وهي ميتة قبل ذلك كما تدعي؟
أم أنك نسيت أن تخفي هذا السوار عني، كما أخفيت كل ما يثبت
وجودها. لماذا حبيبة فقط؟ لأنها الأحب إلي؟ هذا لا يصيبني
بالجنون بل إنه يشعل غضبي وقهري.

نظر عمر مطولاً إلى السوار، وظهرت الخيبة على وجهه. شعرت
أسيا بالنصر لأنها وجدت على الأقل ثغرة ضعيفة في خطته، وبدلاً
من أن يجيب على سؤالها، أولاها ظهره، وخرج من المنزل مهرولاً.
ودت لو أن تتبعه وأن تأمره بالتوقف.

فشلت خطته الآن، ولم يبق لديه ما يمكن فعله، كانت محقة وما
تعيشه الآن لم يكن أوهاماً. بل خطة خبيثة ومحكمة جداً شكلها
زوجها حتى يوقع بها.

تجاهلت أسيا انسحاب عمر، وبدلاً من ذلك. سحبت مفتاح سيارته

المتروك على الطاولة الخشبية المجاورة للمدخل، وهاتفه الذي لم يأخذه معه، وكل ما كان موجودا من مال في محفظته، ثم خرجت من المنزل.

بينما كنت أسقط

1

الاثنين

16 سبتمبر / 2019

5:11 مساءً / ...

توقفت الأوستن مارتن، أمام المبنى المشيد بطريقة عصرية. احتل الزجاج الجانبي الأيسر من المنزل، والذي كانت شمس الغروب تسلط الضوء عليه، دون أن تشحن جدرانه بالحرارة. إنما الشروق فقد كانت أشعته تواجه الجدار القرميدي العريض من الجهة الأخرى للمنزل.

ترجل أوسكار من سيارته، لكنه لم يقفل الباب من خلال جهاز التحكم الخاص بها. كان المكان خالياً، ولن يعبر أحد هنا، هذا ما هو أكيد منه. لا يعرف لماذا يعتقد بأن كل أفكاره أكيدة، لكنه يحب أن يثق بما يظنه، وما يخطط له. الثقة بما نخطط له إحدى وسائل النجاح، وهذا ما يعطي القوة الكافية للاستمرار في الاتجاه المطلوب وإن كان غير صحيح.

لم تكن علامة العين المطبوعة على جلد أوسكار واضحة. رسفه

مخفي تحت جزء من كم القميص الأبيض الذي يرتديه تحت المعطف الأسود. لكن جزءاً منه أصبح واضحاً، عندما رفع يده ليضغط على الجرس مرة واحدة. تحرك بعيداً عن الباب، بينما كان ينتظر الإجابة على طلبه. نظر إلى الحاجز الذي يحتضن المنزل العصري المشيد فوق التل المطل على العاصمة. بدأت أضواء المدينة الكبيرة تبزغ، وتنتشر بطريقة مزعجة تشتت من يراقبها.

فتح الباب من خلفه فاستدار ببطء، ليواجه المرأة الطويلة التي فتحت الباب لتستقبله. تحركت برشاقة لتتيح المساحة الكافية لأوسكار حتى يدخل. انزلق أوسكار بحركة خفيفة إلى داخل المنزل. ثم سار إلى الواجهة الزجاجية التي تتيح له المنظر ذاته الموجود في الخارج.

- ألا يزعجك النظر إلى هذا الكم من التداخلات. الألوان المباني متفاوتة الطول.

- شكل المدينة يصبح ساحراً في المساء. الأضواء، واللمعان الذي يحدث يشعرني بأن الحياة تسير على الطريق الصحيح حتى الآن.

أحنى رأسه باتجاهه المرأة ذات الشعر الأسود الناعم.

- هذا يشئت تركيزي. إنها ضوضاء مرئية.

- لكل منا نظرة مختلفة للأمر. إنها ضوضاء مكتومة لا نسمعها، لكن

نراها ونشعر بأن هذا العالم موجود بالفعل. أحتاج أحياناً لأن أذكر نفسي بأن الحياة تستمر بالمضي يا أوسكار. ما نقوم به يفقد الحياة معنى الأمان فيها.

- نحن نقوم بالأمر السليم

زمت شفتيها ثم أظهر ابتسامة ساخرة أمامه. استدارت وأشارت له بينما هي تبتعد عنه لأن يجلس. لكنه لم يجلس بل تحرك في الفسحة الواسعة والتي كان الأثاث شحيحاً فيها. أصبح منظر المدينة تحت شمس الغروب وهب تستعدي الليل خلفه تماماً، لكن في ذاكرته تلاشى هذا المنظر ولم يعد مهماً.

- أراقب غروب الشمس وشروقها هنا كل يوم. ولم أدرك حقيقة ما نقوم به. أشعر أحياناً بأننا نحاول أن ندفن البحر، وهذه المهمة تعجيزية. لا يمكننا ببساطة أن نوصد الأبواب كلها.

- نحن نحاول..

- عقود مرت ونحن نحاول يا أوسكار. قاطعته.

استسلم أوسكار، وجلس دون أن يشعر بأي تساهل مع أفكاره. إنما هو يثق بهذه المرأة التي عمل معها في مهام عديدة، وساعدته في إنجازها كلها. كانت ذكية، وتعرف كيف تستخدم التكنولوجيا التي جعلت العالم شفافاً.

- أخشى أنني أخيب ظنك يا أوسكار، لكننا لم نجد الكثير من المعلومات. تمكنا من تحديد قوة العملية وتأثيرها. المؤشرات تعطي إحداثيات المكان. وبالتزامن مع الوقت والزمن، وجدنا الدخيلة. تم تسجيل دخولها إلى المستشفى فجر الأربعاء. إنها تتطابق مع كل المواصفات التي لدينا، وكل علامات الاستفهام حولها تؤكد ذلك.

- هل تملكين عنوانها؟

- تمكنا من الوصول إلى بعض البيانات. لدينا عنوان سكنها الحالي، لكن الغريب هو دخولها إلى المستشفى عدة مرات. يبدو لي بأنهم حتى الآن لم يكتشفوا الحقيقة حولها، وهم يتعاملون مع الأمر بطريقة طبيعية. سيكتشفون الحقيقة، ومن ثم سيتم تحويلها إلى السلطات لتحاول اكتشاف حقيقتها قبل أن نتخلص منها نحن.

زفر أوسكار بملل وقال:

- هذا ما أحاول القيام به.

- عليك أن تسرع إذا. جدها وتخلص منها يا أوسكار.

- عليك أن تحدد مكانها بالضبط. راقبي هاتفها، حركة كل شيء قريب منها. علينا أن نحاصر كل الحدود التي يمكن أن تصل هي إليها.

تغيرت نبرة المرأة ذات الشعر الأسود وقالت:

- الغريب هو أنها تعيش مع أشخاص لا يدركون حقيقة الأمر. قد ينقلب هذا عليهم. إنهم معرضون للخطر يا أوسكار وعليك أن تنقذهم من الخطر الذي يعيش بينهم.

من دون أي هدف واضح، قادت أسيا سيارتها بعيداً عن مسقط رأسها، حيث ترعرعت وقضت الجزء الأكبر من أيامها. قادت سيارة عمر التي لم تكن سيارته من قبل عبر الطريق الضيق المغطى بالأشجار العالية من كلا الجانبين. لم يكن وقت الغروب قد اقترب بعد، لكن الشمس لن تبقى هكذا عندما تصل إلى العاصمة. كأن الشمس جزء من بلدتها الصغيرة، كانت تهبط كلما ابتعدت أسيا عن منزل والدتها.

قضت وقتاً أطول من المعتاد للوصول إلى العاصمة، فهي تقود بتردد، ولا تضغط على الدواسة بالسرعة الكافية لأن تصل بالوقت الذي حددته في خيالها. كانت تبكي طوال الطريق، ولا تسمع سوى صوت بكائها في غمرة الهدوء الموجود في جوف تلك المركبة.

ما كل هذا الكذب؟ من الذي وضعها في كل هذه الأوهام التي لا مخرج منها؟ عليها أن تجد حل هذا اللغز، قبل أن تؤمن حقاً بالجنون.

أصبح الجميع بمن فيهم أطفالها يشكون في قدرة عقلها. تركت الأطفال وحدهم في المنزل، دون أن تقدم لهم طعام الغداء بعد يومهم الدراسي. بدا كلا الطفلين طبيعياً اليوم، ولم يحدث أي شيء يثير شكوكها تجاههم.

قفزت من باطن الأرض قمم المباني المرتفعة الموجودة في مركز المدينة، ويمكنها أن ترى ذلك على الجانب الأيمن للطريق الخالي، وهذا يعني اقترابها من وجهتها، أما انخفاض الشمس، وتغير لونها، فهو يعني أنها استغرقت أطول مما تحتاج هذه الرحلة. لم تنظر إلى هاتف عمر الذي رمته في حقيبته، وتركته معه اعتقاداً منها بأنها قد تحتاج إليه.

تلاشى البر من حولها، وأصبحت المباني تحيط بها، وأغلب تلك المباني كانت قصيرة مخصصة للمصانع. قادت سيارتها أبطأ مما كانت عليه سرعتها، وتجاوزت مداخل الضواحي الجانبية على الطريق الرئيسي للعاصمة. لم تدخل إلى مركز المدينة، وإنما سلكت الطريق الجانبي البعيد عن الساحل، لتصل إلى الضاحية التي كانت تسكن بها، والتي أعطت عنوانها للمستشفى حين استيقظت يوم الأربعاء.

غربت الشمس، ولم يبق سوى وهج أحمر يشبه الجمر في الأفق. تركت أسيا السيارة وعبرت مرج منزلها المعشوشب، لكنه بدا مشذباً حديثاً، والتمائيل الحجرية بجوار البوابة وضعت للتو، فهذا لم يكن ذوقها هي.

رأت سيارة مرسيدس بينز زرقاء تقف عند مدخل المرآب، فتساءلت عن صاحبها. كانت الأضواء خلف النافذة مضاءة، ورأت أسيا ظلا يعبر خلف الستائر، ثم يختفي. هرولت باتجاه الباب، وطرقت بكفها على الباب، ثم ضغطت على الجرس مرات متتالية.

فتحت امرأة قصيرة ذات عيين صغيرتين الباب، وظلت متشبعة به، وهي تسأل أسيا عن سبب طرقها للباب بهذه الطريقة. ثم تناست السؤال، أو استبدلته بآخر:

- من أنتِ؟

- بل أنا من عليه أن يسألك. من أنتِ؟

ظهر الغضب فجأة على المرأة وقالت بتعجب:

- تطرقين باب منزلي، وتسألين من أنا؟ هل أنتِ مجنونة؟

- هذا ما يقولونه، وعلى الأقل هذه التهمة تتيح لي القيام بما أشاء. والآن، إن لم تخبريني من أنتِ وما الذي تفعلينه في منزلي فإنني لا أستطيع تخمين ما الذي سأقوم به.

دلفت أسيا إلى المنزل بعد أن دفعت المرأة، فرأت أن الأرائك الصغيرة الموجودة في البهو، قد تغيرت، ولم تعد بيضاء. وأن

الجدار الذي علقت به رسومات اشترتها من رحلتها الأخيرة، لم تعد موجودة. بل كان هناك برواز فضي ضخّم مزود بإضاءة داخلية يحيط بتحف بيضاء غريبة الشكل.

- غيرتم كل شيء هنا. هذا محكم للغاية. هل أنت متواطئة معه؟

- مع من؟ - سألت المرأة ثم هددت أسيا - سأطلب الشرطة.

حذرتها أسيا:

- لن يكون هذا من صالحك.

- لقد طلبت من المستشفى أن يتأكدوا من عنوان منزلي، واتصلوا ليخبروني بأن زوجين يعملان في مجال الهندسة يعيشان هنا. لكن هذا هو منزلي أنا. هل تخفون حبيبة هنا؟ هل هي هنا.

- أنت هي التي اتصلت من المستشفى في ذلك الصباح؟ لا أعلم من تكونين، أو حتى من هي حبيبة. لم أتواطأ مع أحد. الآن عليك أن تخرجي من منزلي، وحالاً.

تقدمت أسيا باتجاه المرأة، ولم يكن من السهل تفادي الغضب الموجود على محياها:

- كفاكم تلاعباً بي. أنت وهو كاذبان. اطلبي الشرطة وسأخبرهم

بالحقيقة. سأقول لهم كيف كذبت علي أنت وعمر. سيكتشفون هم الحقيقة.

- لا أعلم عن ماذا تتحدثين. لماذا لم تذهبي للشرطة إذا قبل أن تأتي إلى هنا.

صرخت أسيا:

- لأنكم ستخفون ابنتي عني؟

- اسمعي. - قالت المرأة بخوف - سيعود زوجي قريباً ولن يكون هذا في صالحك.

استسلمت أسيا للانهيان، وبدأت بالبكاء، وهي ترجو الغريبة الواقفة أمامها في أن تقول الحقيقة لها. أشفقت المرأة على أسيا، وطلبت منها أن تجلس لتفهم حكايتها على الأقل. شعرت أسيا بأن المرأة الغريب حقاً تجهل ما يدور الآن. جلست مستلمة. فعرضت عليها صاحبة المنزل أن تجلب لها كوب ماء.

اختفت المرأة القصيرة، ثم عادت بعد لحظات وهي تحمل كوباً شبه بيضاوي وتعطيه لأسيا. ثم تجلس على الكرسي الفردي المجاور لها. رفعت أسيا عينيها لترى تفاصيل المنزل التي لا تشبه ما قامت بترتيبه، لكنها ستعيد كل شيء كما كان ما أن تجد الحقيقة.

- أخبريني ما الأمر.

- أنا أعيش هنا، لكنني تعرضت لهجوم غريب، واستيقظت بعده لأجد أن حياتي قد تغيرت كلياً. يقول زوجي بأن ابنتي ماتت، وبأننا نعيش في منزل آخر، ولم نكن هنا يوماً. هذا منزلي وأنا أعرفه تمام المعرفة صدقيني. الطابق العلوي يحتوي على خمس غرف، اثنتان رئيسيتان، واثنتان مشتركة، والأخيرة والأصغر موجودة في الجزء الخلفي.

جذب الوصف تركيز صاحبة المنزل، فقالت بدهشة:

- هذا.. هذا صحيح. لكنني أعيش منذ ثلاث سنوات فقط، والعديد من السماسرة يعرفون هذا.

قطع الحديث صوت رنين الهاتف، فقفزت صاحبة المنزل في مكانها. فقبضت أسياً على ذراعها، ورجتها أن لا تفعل أي شيء:

- لن أقدم على أي شيء صدقيني. لكن لا تخبري أحد عن مكاني.

- لا تقلقي، إنه زوجي فقط. يخبرني بأنه قادم. ابقِ هنا لا تتحركي سأعود حالاً.

بدت المرأة محل ثقة بالنسبة لآسيا. تركتها آسيا تنسحب من غرفة المعيشة وتتجه للهاتف. كان ترتيب المنزل أكثر جمالاً مما كان عليه

حين كانت أسيا تعيش فيه. قطع الأثاث كانت أقل، ولا يبدو بأن هذه العائلة لها أي أطفال.

نهضت أسيا، وتسالت خلف صاحبة المنزل، وكان الهاتف هو الشيء الوحيد الذي لم يتغير مكانه عند الممر المجاور للسلم. أصغت أسيا لهمسات المرأة وسمعتها تقول:

- أجل هذا هو عنواني. سأبقيها هادئة، حتى تأتون. أرجوا أن تسرعوا.

استدارت أسيا وبدأت تجري نحو المدخل، غير آبهة لصوت خطواتها المسموع. جرت الباب وعبرت المرج وصولاً إلى سيارة عمر. أدارت المحرك، وابتعدت عن المنزل فوراً. لا تتذكر إن كان هناك أي كاميرات في الخارج ستحفظ رقم المركبة، لكن عمر لن يتأخر في البحث عنها.

سطعت الأضواء حول منازل جيرانها القدامى، وودت لو أن تقف وأن تطرق الباب على أي منهم لتتأكد من وجودهم، لكن لا وقت لذلك. ستأتي الشرطة إلى هنا قريباً، وآخر ما تريده هو أن يتم القبض عليها وتثبت لهم بأنها مجنونة.

للعالم صور ثابتة، لا تتغير. إن وضعت الشاه على أي رقعة بيضاء كانت أم سوداء، فإنه يبقى هكذا. والقلعة التي تكون زاوية اللعبة عند البداية تبقى قلعة، حتى يحركها أحدهم، فلا يتغير سوى موضعها، بينما شكلها لا يتغير. هذا هو العالم ببساطة، إنه لا يتغير، لكن طريقتنا لرؤية الأشياء ما تتغير. البريق الذي نرى فيه العالم، يكون دائماً من ضمن الماضي، لأننا لا ندرك سطوعه في لحظة وجوده. أما العتمة التي نراها حول العالم فهي موجودة في أعيننا فقط. الحزن هو ما يصنع هذه الوحشة التي تهبط على العالم، والتي بدورها تشكل الشعور بالاغتراب. الأشياء ثابتة، وما يتغير هو أهمية وجودها في كل موضع مختلف، وهذا ما يحدث مع معطيات العالم الذي تعيش به، أن تبقى كما أنت، حتى تصبح في موضع آخر، فتشعر بالاختلاف المزيف للحقيقة. لا تعود بعد ذلك قادر على تمييز شكل ما تغير بسهولة، إلا حين تعود إلى النقطة الآمنة التي كنت تقف عندها.

بدت أضواء منازل جيران أسيا ساطعة بطريقة لا تغير وحشة السماء. ودت لو أن تركن سيارتها، وأن تطرق الباب عليهم لتتأكد من أنهم لا يزالون هنا، وبأنها محقة. لكن لا وقت أمام أسيا، عليها أن تبتعد قبل وصول الشرطة، فأخر ما تريده الآن، أن تثبت للعالم أنها

حقاً مجنونة.

قطعت الجسر الفاصل بين الضاحية، وبين مركز المدينة، وكانت وجهتها التالية، هو المجمع السكني الذي يعيش فيه ياسر صديقها الذي يهوى الموسيقى.

في الوقت ذاته كان عمر قد عاد للمنزل، ووجدت أطفاله في حالة نعر بعد أن اختفت والدتهم. أدرك وجود خطب ما، عندما لم يجد سيارته تقف أمام المنزل، لكنه لم يعتقد بأن الأمر قد يصل إلى حد الهروب. كان هذا بحد ذاته يثبت تهمة الخيانة التي ألقاها عليها. لو لم يكن عمر محققاً لما كانت لتهرب.

- أين هاتفي؟ - سأل عمر موجهاً سؤاله لجميل، وزهرة معاً. لكن كلاهما هز كتفه.

صر على أسنانه، فهذا يعني أن هاتفه مع زوجته. تحرك في المنزل وهو لا يعلم ما الذي عليه أن يفعله الآن. تحرك نحو الهاتف حتى يتصل برسيل لتأتي إلى منزله وتبقى مع الطفلين. لكنه قبل أن يرفع السماع دوى صوت رنينها في الأرجاء.

- سيد عمر. - قال صوت غريب.

- أنا هو.

- حاولنا الاتصال بهاتفك مراراً، لكن ما من مجيب. نحن نتصل من مركز الشرطة، فهناك من قدم بلاغا ضدك بالتهجم على منزله.

أملى الشرطي رقم المركبة على عمر، فأكد عمر أن هذه هي مركبته، لكنه ليس هو من كان يقودها، بل هي زوجته. أراد أن يشرح للرجل أن زوجته مريضة لكنه لم يجد الوقت الكافي لذلك.

- سأتي إلى المركز بنفسي. إن سيارتي مع زوجتي، وعلينا أن نجدها قبل أن تقدم على أي شيء مجنون آخر.



وصلت أسيا إلى السور المحيط بالمجمع السكني الذي كان ياسر يعيش فيه، لكنها شكت في أنها تسلك الطريق الخطأ. كان الطريق أكثر عتمة من المعتاد، وأعمدة الإنارة المحيطة بالطريق ليست مضاءة. لكن أسيا قادت سيارتها وصولاً إلى وجهتها.

انتهى الطريق المرصوف، ووجدت نفسها تسير فوق طريق ترابي. كان السور يحيط بجمع سكني آخر قيد الإنشاء، والمكان الذي قصدته لم يكن موجوداً. للمرة الأولى تشعر أسيا بالخوف بسبب العتمة، وبدا الظلام المحيط بها غريباً. رغم أن الوقت لم يتأخر، لكن العتمة في هذا المكان توحي بأن الوقت قد تجاوز منتصف الليل.

راقبت عبر الزجاج الحطام المحيط بها. وبينما هي جالسة خلف

الزجاج كادت أن تبكي لشدة ما كانت تشعر به من عجز في تلك اللحظة. فشلت مجدداً. كل محاولاتها لا تجدي نفعاً، لكنها لا تريد أن تستسلم لفكرة أن ابنتها الوحيدة ماتت حقاً.

- هذا لا يجوز. - قالت محدثة نفسها.

دخل عمر إلى مركز شرطة العاصمة، وهناك قابل المحقق سليم مرة أخرى. كان المحقق يتذكر جزءاً من حكاية أسيا، كما يتذكر تفاصيل لقائه بها في المستشفى. لكنه الآن يلتقي بزوجها. دعا عمر للجلوس أمام مكتبه، وبعد ذلك شرع يشرح له عن تفاصيل تهجم زوجته على منزل الزوجين.

- إن الأمر ليس كما تعتقد. - قال عمر ثم حاول أن يشرح - إن زوجتي تعاني من صدمة وفاة ابنتنا، وهي تتلقى الآن علاجاً نفسياً.

تلاشت فكرة خيانة أسيا لعمر، وزال ذلك التشوه الذي أحدثته زوجته في حياته فجأة. كل ما كان يشعر به عمر الآن هو القلق عليها، أراد أن يجدها حتى لا تتسبب بالضرر لنفسها.

- لقد التقينا أنا وهي من قبل في المستشفى، ولم يبد لي حينها بأنها مريضة.

- لسنا نحن من نشخص هذا. بل المركز التأهيلي.

اقتحمت الزوجة التي تهجم أسيا على منزلها، مكتب المحقق، وجلست على الكرسي المقابل لعمر. عرفه سليم عليها، حينها ظهر الرجاء على وجه عمر، وقال لها متجاهلاً وجود المحقق.

- إن زوجتي مريضة. ليست بكامل وعيها، ولم تقصد التهجم على منزلكم.

اعترضت المرأة:

- لكنها كانت تعرف تفاصيل منزلي كلها. لا يبدو لي بأنها رأت منزلي للمرة الأولى. بل شرحت لي بنفسها، كل جزء من أجزاء المنزل، وهذا مخيف حقاً.

لم يفهم عمر كيف لهذا أن يحدث حقاً، فهو لا يعرف ذلك المكان، ولا يتذكر بأن أسيا زارته، أو حتى كانت تعرفه من قبل. هذا يعزز الغموض الذي عاشت به أسيا في الأشهر الأخيرة. هل تعرف أسيا زوج هذه المرأة، فكر عمر بذلك، لكنه طرد الفكرة من رأسه فوراً.

- إنها لم تفعل ذلك عن عمد.

قالت المرأة:

- أنا أحاول أن أتفهم الأمر، لكن أخبرني أنت، كيف لها أن تعرف منزلي من الداخل، بينما أعيش فيه أنا لعلاث سنوات.

- أنا أيضاً لا أعرف ذلك. ستخبرني هي حين نجدها. إنها تتلقى علاجاً نفسياً، وهي تقوم بأشياء لا أحد يفهمها. لكن يستحيل أن تقدم أسياً على إيذاء أحد.

- أنا لا اعرف كيف سأنام هذه الليلة.

سأم عمر من مبالغة هذه المرأة، لكنها قد تكون محقة، فلو كان هو مكانها لعلقت الفكرة في رأسه أياماً عديدة. هذه المرأة تبدو هشة وبكل تأكيد سيؤثر بها ما أقدمت أسياً عليه. لكنه حين يثبت بأنها تتلقى علاجاً نفسياً ستقع تهمتها، ولن تكون ذات جدوى.

- سيدي.- استدار عمر ووجه كلماته للمحقق - إن هاتفي معها، ويمكننا أن نجدها من خلاله. سنتصل أيضاً بالطبيبة التي تعالجها، وهي ستخبركم الحقيقة.

هز سليم رأسه بتفهم، لكن لم يظهر أي تعبير على وجه المرأة صاحبة المنزل.

لم تسأل رسيل عن أي شيء. بل جلست برضا تام مع زهرة

وجميل. كان كلاهما وديعا ولم يحدث أي منهم إزعاجاً يجعلها تندم على موافقتها. ثم إنها كانت دائماً خير صديق لهذه العائلة، وعندما أدركت وجود خلل ما لم تتردد في أن تكون مصدر عون لهم.

جلست هي وزهرة أمام التلفاز في حالة سكون. كتمت الفتاة الصغيرة خوفها مما حدث طوال هذا اليوم الغريب، لكنها لم تطلب تفسيراً، لأن الوقت يحمل إجابات لكل شيء. أما جميل فلم يلق بالآكل الجلبة التي حدثت في المنزل، ولم يلاحظ كل هذا الخوف الذي انتشر في المنزل.

راح يتنقل في الأرجاء، ويلهو محاولاً قتل الوقت. تسلق السلم وصولاً إلى حجرته وأخرج كراسة التلوين، وبدأ بتشكيل أشكالاً عشوائية على الصفحة البيضاء بما وجدته من أقلام. كان يقبض على اللون البني، ويترك الأخضر والأصفر على الأرضية الخشبية بجواره.

راوده صوت غريب بينما كان يجلس وحيداً. كان صوت جهاز تشغيل موسيقى بعيد جداً يذيع أغاني قديمة. أفلت القلم وتركه يهوي ويرتطم بالورقة البيضاء، ثم نهض وهو يشعر بالألم في مفاصله التي امتصت برودة الأرضية الخشبية.

لم يكن الصوت الآتي هو صوت حبيبة مجدداً. بل مجرد موسيقى بعيدة لم تكن موجودة في المنزل. بل كانت آتية من مكان آخر بعيد، قد يكون خلف جدران هذا المنزل الكبيرة. خرج من غرفته وسار باتجاه الصوت حتى اكتشف بأن الصوت الخافت ينبعث من غرفة

والديه.

دفع الباب المفتوح، ونظر إلى داخل الغرفة. فوجدت جده يقبض على ذراعي جدته التي ارتدت رداء منزلياً أبيض طويلاً وعريض الكمين. كان كلاهما يرقص ببطء وكسل، والسعادة على وجهيهما. ابتعد عن المدخل وهو يشعر بالخوف، فجذته ماتت وتبعها جده.

هبط إلى الطابق السفلي لينادي زهرة، حتى ترى ما رآه هو، لكنه وجدها تشاهد التلفاز باندماج، ورسيل تجلس بجوارها ككلب حراسه، يمنعه من إقحام أفكاره المجنونة إلى هنا. تراجع عن فكرته ولم يبح لهم بأي شيء، فصوت الموسيقى قد اختفى الآن، والفكرة كلها باتت محض خيال لا وجود له.

10:13 مساءً / العاصمة

جلست أسيا في المقعد الجلدي الوثير، وتركت وأزاحت ما تبقى من الطعام بعيداً عنها. سدت شعورها بالجوع، بالرغم من أنها لم تكن لديها أي قابلية للأكل، بل كانت تستطيع أن تحارب جوعها لوقت أطول. لكن الدوار الذي أصابها ذكرها بأنها تحمل جنيناً بين أحشائها، وعليها أن تغذيه هو الآخر.

لماذا أنكر عمر انتماء هذا الطفل له؟ ما الذي يخطط له؟ هذه أقسى

طريقة يمكن أن يستخدمها ليزج بها في مستشفى المجانين ذاك. لا يحق له أن يجرح عفتها بهذا الشكل. شعرت أسيا بالحق، والغضب. نظرت من جديد إلى هاتفه الذي لم يتوقف عن الرنين، وفكرت في أن تغلقه نهائياً، لكنها أجلت هذه الفكرة لوقت لاحق، لأنها قد تحتاج لأن تبحث فيه الآن.

يمكن للإنسان أن يخفي الحقيقة، لكن لا بد أن يكون هناك مكان واحد على الأقل تبقى فيه، رغما عن صاحبها. أسيا تريد أن تجد هذا المكان، ولو كان في ذهن عمر وحده.

اهتز الهاتف بيدها معلنا عن وصول رسالة أخرى من رقم غير مسجل:

أسيا، إنه أنا، عمر. هل أنت بخير؟ أجيبي على اتصالي أرجوك.

تجاهلت أسيا تلك الرسالة، ودست الهاتف في حقيبتها، حتى لا تقلقها المكالمات التي تتوافد عليه. آخر ما تريده هو أن تشعر بأنها تفعل الشيء الخاطئ الآن. لقد قفزت دون تفكير وهذا هو الجزء المهم الآن.

مرت النادلة بجوار أسيا، وحملت صينية الطعام، ثم سألتها إن كانت ترغب في إضافة أي شيء آخر، أو حتى قطعة من الحلوى، لكن أسيا رفضت ذلك بلطف مزيف.

- سأطلب الفاتورة فقط.

- سأتي بها إليك حالاً. - رمت النادلة ابتسامة مصطنعة هي الأخرى، ثم اختفت.

عادت النادلة حاملة المغلف الجلدي الذي يحتضن الفاتورة، وتركته بلطف على زاوية الطاولة. أخرجت أسيا المال من حقيبتها، ورغم أنها لا تملك قدراً وفيراً من المال، إلا أنها تركت بقشيشاً بسيطاً للنادلة، وخرجت من المطعم متجهة إلى سيارتها.

سارت تحت أضواء الإعلانات المبطنة بمصابيح نيون تزعج البصر. عم السكون في الطريق البارد. أدركت أسيا أن كل الخطط قد نفدت الآن، ولم يعد لديها أي وجهة معلومة الآن. لكنها ستفكر ما أن تباعد عن هذا المكان. لكن لسوء الحظ الهدوء لم يدم طويلاً. فسيارة الشرطة ظهرت فجأة في نهاية الطريقة، وعلى الجانب الآخر ظهرت سيارة مدنية بيضاء.

توقفت السيارتان عند أسيا، التي لم تجد أي مهرب في تلك اللحظة. ترجل عمر وحده من السيارة، وواجه أسيا، ثم حاول أن يقترب منها بحذر. تلفتت هي حولها، وحاولت أن تميز هؤلاء الغرباء الذين يحيطون بها. أدركت بأن الأمر محسوم الآن، وهذه هي النهاية البائسة التي لم تكن تتوقعها لنفسها.

- أسيا. لا بأس، لا تخافي. إننا هنا لنساعدك.

تراجعت أسيا و أولت ظهرها لعمر، لكنها فوجئت بأن أليكس تقف أمامها الآن. ظهرت الثقة على وجه أليكس بمقدار أكبر مما كان عمر يبدو عليه.

- لا تقلقي. كما قال عمر، نحن هنا للمساعدة. نحن لسنا هنا لنقبض على مجرم فار من العدالة، بل نحن هنا لمساعدة مريضة يجب أن تتلقى العلاج المناسب يا أسيا.

- لكنني لست مريضة. أنتم مخطئون. تصدقون ما ترونه فقط. - استدارت لتواجه عمر مجدداً، وقالت - قد تنجح خطتك الآن، لكن هذا لن يطول يا عمر.

مسح عمر جبهته بيده، وقال

- تقولين هذا مجدداً. لا يوجد أي خطط يا أسيا، إن هذه ليست إلا أوهاماً من صنعك أنت. أنا أحبك ولا يمكن أن أؤذيكَ. لكنك أنتِ..

رأت أسيا اتهام الخيانة في عيني عمر التي راقبت بطنها.

- أسيا يجب أن تتقبلي الحقيقة.

- الحقيقة أنت تزيفها. أيها الكاذب. - زمجرت.

تدخلت أليكس:

- لا يوجد حقيقة أو كذب يا أسيا. ستكون الأمور أوضح بعد أن نناقشها معاً. ستتلقين العلاج المناسب لتعرفي ما هي الحقيقة، وما هو الخداع. الآن دعينا نأخذك إلى المركز، وهناك يمكننا جميعاً أن نرتب كل الأفكار معاً.

شكت أسيا في أن دموعها انتهت، لكنها فوجئت بالطبقة الضبابية التي غطت بصرها. اختفى وجه عمر عن نظرها، لكن ظله لا يزال موجوداً وقد امتزج مع ألوان واجهات المحلات المجاورة لها.

- لماذا تفعل هذا بي. - انهمرت دموعها، فعادت الرؤية واضحة.

تقدم عمر، ومسد شعرها، ثم قبل رأسها:

- هذا من أجل الأطفال يا أسيا. هم لا يستحقون هذا الخوف كله.

17 سبتمبر / 2019

7:30 صباحا / الوادي الغربي.

شعر عمر بالأسى على حال زوجته، وهذا لم يمكنه من النوم طوال الليل. كما كان يشعر بالإحراج من جارتة رسيل، التي تركت ورقة مضمونها هو أنها ذهبت إلى المنزل بعد أن نام الطفلان. لم يكن هذا واجبها، وليس عليها أن تتحمل إلى هذا الحد.

في الصباح قام هو بإيقاظ زهرة من نومها، وكان رد فعلها الأول عندما فتحت عينيها هو أن سألت عن والدتها. لم يعرف عمر كيف عليه أن يجيب على الأمر. لذلك انحنى ليصبح قريباً من الفتاة الناعسة، ويقول لها:

- أنتِ تعلمين أن والدتك لم تكن على ما يرام في الأيام الأخيرة، وكان عليها أن تتلقى العلاج المناسب. ظهرت الخيبة على وجه الفتاة، وبدأت كما لو أنها على وشك البكاء، لأنها تشعر بالمفاجأة قادمة. أضاف والدها - لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً. ستتلقى والدتك علاجها، ومن ثم تعود إلينا.

رفعت الفتاة جسدها، وقد زال الكسل، ثم قالت:

- لكن أُمي بدت طبيعية في الأسبوع الأخير.

- هذا صحيح، لكنها انتكست فجأة. سنناقش هذا حين يأتي الوقت المناسب. الآن استيقظي، واستعدي للذهاب إلى المدرسة، بينما أيقظ أنا جميل، وأرجو أن لا تقولي له أي شيء.

- حسنا. - قالت زهرة ذلك ودفعت اللحاف بعيدا عنها.

اتجه عمر إلى حجرة جميل، حتى يُوقظه، ومن ثم عاد إلى حجرته هو وأسيا ليحمل إليها ما تحتاج إليه في المركز التأهيلي. قام بحشو الحقيبة المتوسطة الحجم، بتياب منزلية مريحة، وفرشاة شعر، فرشاة ومعجون أسنان. بحث بين الجرارات عن ما قد تحتاجه، ففوجئ بدفتر يومياتها الذي لم انقطعت عن الكتابة فيه منذ أسابيع عديدة.

كتابة اليوميات كانت وسيلة علاجية تفرغ فيها ذكرياتها المتعلقة بوفاة ابنتها، لكنها توقفت عن خوض هذا العلاج فجأة. حمل الدفتر الأسود، ودسه في الحقيبة معتقداً بأن محتواه قد يساعد أسيا في تذكر الأشهر الماضية التي فقدتها بعد تعرضها للهجوم الغريب.

تطفلت سالي على زهرة، وقطعت حبل أفكارها:

- لا تبدين بخير يا زهرة.

- أشعر ببعض التعب، هذا كل ما في الأمر. - كذبت زهرة، فهي كانت تفكر في والدتها معظم الوقت، وتتساءل عن ما يجعلها تنتكس بعد أن بدت بخير.

جلست سالي بجوار زهرة، لأنها شكت في أن تلك هي الحقيقة. في لقائهما الأول، استهزأت سالي بزهرة، وهذا ما يعدم الثقة بينهما الآن، وما يمنع زهرة من قول الحقيقة. لم ترغب سالي في أن تجر الحقيقة عنوة من زهرة، لكنها أرادت أن تجعلها تشعر بوجودها معها. رغم عمر صداقتهن أيام معدودة، إلا أن سالي كانت مندفعة لأن تكتشف جوهر زهرة.

- ألا تشعرين بالجوع؟ - سألت سالي.

- بلى. دعينا نذهب ونتناول الغداء.

ترددت سالي بعض الشيء، فهي شعرت باستياء صديقاتها الأخريات حين رأوها تتناول الغداء مع زهرة، لكنها لم ترفض ذلك. خرجتا إلى الكافتيريا معاً، وجلستا على طاولة واحدة. بينما كانت زهرة تفصل طعامها عن طعام سالي، مرت فتاة أخرى ذات شعر بني

قصير، وسألت سالي:

- ألن تجلسي معنا اليوم أيضاً؟

رفعت سالي بصرها، لتواجه نظرة الفتاة الحادة، قبل أن تجيب بالنفي، فهي بالفعل تجلس مع زهرة، ثم عرضت على الفتاة أن تجلس معهما. لكن الفتاة تجاهلت هذا العرض، ورحلت راسمة نصف ابتسامة على وجهها.

- لن أمنعك من الجلوس معهن. إنهن صديقاتك.

حركت سالي يدها في الهواء وقالت:

- دعك من ورد، إنها فتاة متطفلة.

شعور زهرة بالتشتت ما بين فكرة الاستمتاع مع سالي، وأنها سلبتها من صديقاتها، لم يختف رغم أنها حاولت أن تدعي عكس ذلك. لم تلاحظ سالي الأمر، أو حاولت أن تتناساه وشرعت في تناول طعامها.

عادت ورد، وبصحبتها فتاة أطول قليلاً لها لون الشعر البني ذاته. وقفت الفتاة عند طرف الطاولة، ووجهت نظرتها الغاضبة إلى سالي، ثم قالت بلهجة هجومية:

- هل ترفضين البقاء معنا من أجل هذه الفتاة.

- كفي عن هذا يا صبا. إنها صديقتي، كما أنكم أنتم صديقاتي أيضاً.

اعترضت صبا، بينما تراجعت ورد خلفها:

- هي لا تشبهنا. متى أصبحت صديقتكِ؟

- منذ الآن؟

تدخلت زهرة أخيراً وكان في صوتها نبرة هجومية تمنعهم من استضعافها:

- أنا بالفعل لا أشبهكن، ولا أطمح لأن أكون كذلك.

- ماذا قلتِ؟ - سألتها صبا باستهجان.

شرحت سالي ما قالته زهرة:

- ما سمعته يا صبا. هي لا تشبهكم وهذا ما يجعلنا صديقات. ولا أنا أريد أن أكون شبيهة بفتيات لا معنى لما يفعلونه طوال الوقت. لذلك اتركينا الآن، واعلمي بأنني سأجلس هنا كل يوم، ومن يريد رفقتي فليجلس معنا هنا.

حاولت زهرة أن تعود إلى سكونها السابق، حتى بعد أن رحلت صبا وتبعتها ورد الذي افتعلت هذا كله، ولم تحاول تصحيح الأمر. حاولت سالي أن تطمئن زهرة، لكنها لم تستطع أن تعود إلى هدوئها السابق، وتركت طعامها فوق الطاولة، ولم تتناول إلا جزءاً صغيراً منه.

- اسمعي، لا تلقي بالاً لهن. إنهن فتيات مدلات، ولا يفقهن أي شيء. ما رأيك في أن تأتي لزيارتي في منزلي، هناك الكثير مما يمكننا أن نقوم به. يمكننا حتى أن نراجع الواجبات المنزلية سوياً.

- أنا؟ لا.. لا أعلم، إن كان والدي سيوافق أم لا. لكنني سأطلب منه.

رغم أن والدة سالي تحمل صورة سلبية لعائلة زهرة، لكن سالي كانت على ثقة من أن والدتها ستستقبل الفتاة بأفضل طريقة، وستضع كل تلك الأفكار الوهمية على جنب.

بدت الفكرة مغرية بالنسبة لزهرة، لكنها لا تعلم إن كانت ستستطيع أن تقوم بذلك، وأن تترك جميل وحده في المنزل، لكنها ستعرض الفكرة على والدها في كل الأحوال، وإن وافق فإنه سيجد حلاً مناسباً.

10:15 صباحاً / مركز العاصمة التأهيلي.

قامت أليكس باستقبال عمر مرة أخرى في مكتبها، لكن هذه المرة لم تكن لمناقشة حالة زوجته التي أصبح الجميع على دراية بتفاصيلها. بل كانت هنا لتنصحه بتجنب إرهاق أسيا. أخبرها عمر بأنه لا يريد أن يعود، لكنه لم يقل لها السبب، ولم يتطرق إلى حمل أسيا المفاجئ، والذي دمر مشاعر الحب بينهما. لكن أليكس تدخلت وقالت له:

- لقد أخبرتني أسيا بشأن الحمل. أنا آسفة لأنني أتطرق إلى هذا الأمر، لكن هل أنت متمسك بما تعتقد يا عمر؟ هل تظن أن لزوجتك جانباً آخر مخفياً؟

أجفل عمر لأن هذه الفكرة بدت مكشوفة. شعر بأنه مغطى بالعار، وكان خجلاً من أن يتطرق لهذا، لكنه قال الحقيقة في النهاية:

- لا يوجد تفسير آخر لهذا الحمل. لم يحدث أي شيء بيننا، منذ أن ماتت حبيبة.

- إنها تنكر ذلك. - قالت أسيا.

- إنها لا تتذكر أي شيء. أليس هذا ما تدعيه؟ كيف يمكنها أن تتذكر هذا؟

ولدت دوامة الشك في قلب أليكس. يبدو عمر محقاً، بينما ضعف أسيا يحيطها بالحقيقة هي الأخرى. لكنها قالت لتحسم الأمر في

النهاية.

- يمكنك معرفة الحقيقة، بعد أشهر قليلة. تطور الطب، ويمكنك الآن أن تعرف إن كان هذا الطفل ينتمي لك أنت، أم لا.

رفع عمر عينيه، ونظر إلى أليكس، ثم أشاح بنظره إلى النافذة الكبيرة التي تقحم دفقا كبيراً من الضوء. لم يتخيل بأنه سيصل إلى هذا الحد مع أسيا. المرأة التي اختار أن يكمل حياته معها. ما حدث شكل جرحاً غائراً في قلب عمر، لكنه لن يتخلى عنها، ليس بداعي الحب، إنما الشفقة.

- أحضرت هذه المستلزمات من أجلها. كما أنها تحتوي على دفتر يومياتها. قد يساعدها ذلك في استرداد ذاكرتها. أعطيها لها.

نظرت أليكس باهتمام إلى الحقيبة، ثم قالت وهي تشير بيدها تجاه عمر:

- أعطني. سأرسلها بنفسي إليها.

- سأكون ممتناً لك على هذا.

نهض عمر، وكاد أن يرحل بعيداً عن المكان، وأن يعود إلى المنزل محاولاً إيجاد الحل المناسب لجرحه وحده. لكنه عاد ليطلب من أليكس، أن تتيح له فرصة لقاء أخيرة مع زوجته. أخبرها بأن هذا

اللقاء القصير يكون هو كل ما يريده، ومن ثم سيتركها لتتلقى علاجها هنا.

- لن يطول الأمر. حسناً؟

- لن أستغرق الكثير.

لم تطلب منه أليكس أن يتبعها لكنه سار خلفها بطريقة آلية. قادته أليكس، إلى الغرفة التي توجد فيها زوجته، وكانت تقع في الطابق الأول من المستشفى. دفعت الباب وقالت بصوت عال:

- لديك زائر يا أسيا. أرجو أن لا يكون هذا اللقاء دافعا لأمر سيئ. تذكرنا بأننا نحاول المساعدة.

لم يسعف الوقت أسيا حتى تستوعب ما يحدث. دخل عمر فجأة، وتقدم باتجاه زوجته. التي بدت رافضة لوجوده هنا. أغلق أليكس الباب، بينما كانت لا تزال تحمل حقيبة أسيا معها.

- ما الذي تبقى لديك، ولم تخبرني به الآن.

- ليس لدي أي شيء يا أسيا. - قال عمر ذلك بلهجة تخلو من الرجاء.

ابتعدت عنه إلى الجانب الآخر من السرير الفردي الموجود في

غرفتها، وقال:

- أنت انتصرت هنيئاً لك. أنا الآن مجنونة حقاً. هل هناك ما لم تفعله حتى الآن يا عمر؟ أم أنك هنا لتعلن انتصارك علي؟ ما الذي أتيت لتقوله؟

- توقفي عن هذا. لا يوجد أي منتصر هنا. كلانا خاسر. أزيحي تلك الأفكار المريضة من رأسك يا أسيا. لم أخطط لشيء، ولم أحاول أن أستولي على أي شيء يخصك أنت. أريدك أنت أن تحاولي اكتشاف الحقيقة. أنت من عليه أن يبحث عن الأجوبة.

تلاشى خوف أسيا فجأة وتدفقت الشجاعة في قلبها، فعادت لتقف أمامه، ولا تفصلها عن عمر سوى مسافة قصيرة جداً، جعلت كلماتها الآتية واضحة جداً رغم صوتها المنخفض:

- ألسنت مجنونة؟ كيف سأجد الإجابات؟ لا شيء في هذا العالم طبيعي. أنام وأستيقظ في اليوم التالي على حقائق بشعة يصعب تصديقها. ذاك المنزل لا يعني. هذا المدينة لم تحتويني يوماً. وحتى أنت..

نظرت أسيا مباشرة في عيني عمر، وقالت محاولة أن تخفي ارتجاف كلماتها:

- حتى أنت يا عمر، لم تعد الشخص ذاته الذي أحببت. أستيقظ

فأجد في عينيك شخصاً آخر غريباً، أشك في أنني كنت أعرفه يوماً
أو حتى كان قلبي ينتمي لمشاعره. أنت لست عمر.. وتلك العائلة..
تلك العائلة لا تشبه ما اعتدت على أن أعيش في كنفه.

تنهد عمر، وأخفى دموعه التي بدأت تتشكل في عينيه.

- لست هنا لأبرهن على شيء. أتيت لأطلب منك أن تكوني قوية.
تخلصي من أوهامك من أجل الأطفال.. من أجل ما تبقى يا أسيا. أما
أنا فتخلصي من كل ما يتعلق بي. لن يكون أحدنا عبئاً على الآخر.
لكن لا تتركي الأطفال يفقدون والدتهم بينما هي على قيد الحياة.

رحل عمر بينما كان لديه الكثير ليقوله، لكنه لم يبح به. شعر بالذنب
لأنه كان يعاتب أسيا، كما لو أنها ستتفهم هذه الكلمات لاحقاً. نسي
عمر أن زوجته مريضة، وأن ما يترجم الكلمات في رأسها، ليس إلا
دلو مقلوب، ستتسرب منه الحقائق لاحقاً، وسيعود الوهم ليسيطر
عليها مرة أخرى.

5:11 مساءً / الوادي الغربي

استغرق وصوله إلى هنا وقتاً جيداً، بالمقارنة مع رحلاته الأخرى. كان يملك العنوان مكتوباً على قصاصة، ورق، لكنه تخلص منها ما أن دونه على جهاز الخريطة الالكترونية التي أوصلته إلى هنا. كانت هذه هي زيارته الأولى لهذه البلدة التي قطعها من عند الحدود مرات عديدة، متجاوزاً إياها ليصل إلى مناطق أبعد.

ترك سيارته في موقف بعيد، وأكمل رحلته سيراً على الأقدام، فهذا سيجعل وجوده أقل وضوحاً. من السهل رؤية قمة المنزل، بينما كان لا يزال في بداية الطريق المؤدي إليه. المنزل كبير، ويتسع لعائلة أكبر من التي تقطنه. تجاوز سور الحديقة وعبر عند طرف المرج، وصولاً إلى الواجهة الجانبية للمنزل. فكر في اقتحام المنزل، لكنه لم يتمكن من تحديد المخاطر التي قد تواجهه. لم يكن يشعر بالخوف، لكنه لا يريد ترك آثار للجريمة هنا.

في الأعلى كان جميل يحاول أن يقضي وقته قبل حلول الظلام، حينها لا يبقى أمامه سوى تناول وجبة العشاء، والخلود للنوم. لم يكن الطفل سريع البديهة، لكنه تمكن من ملاحظة ذلك الظل المتطفل في الحديقة، وتأكد من أنه لم يكن وهماً هذه المرة.

ترك الطفل غرفته، وسار مهرولاً إلى السلم، ثم هبط إلى الطابق السفلي، قاصداً المدخل الجانبي عند المطبخ. خرج ليرى حقيقة ذلك الغريب الذي يقف في حديقته.

أدرك الغريب وجود الطفل فابتسم له، واستدعاه نحوه. لم يكن جميل خائفاً، ولم يحتط بكل تلك التحذيرات التي تعلمها من الكبار عن الغرباء ومخاطرهم، لأن هذا الغريب في منزله الآن، ولا يشكل له أي خطر. سأله الغريب عن اسمه، فأخبره جميل بالحقيقة.

سأله جميل عن اسمه هو الآخر، لكنه تجاهل السؤال، ولم يخبره بأنه أوسكار.

- هل والدتك هنا؟

- أمي؟ لا، لقد رحلت. لن تعود اليوم.

- لماذا؟ - سأله أوسكار باهتمام.

أجاب الطفل بعد تفكير، وقال له كما لو أنه يفشي سرا:

- تقول زهرة بأنها مريضة. هي لم تخبرني بذلك، لكنني سمعتهم.

هز أوسكار رأسه ثم ابتعد عن جميل، وسار نحو السور المحيط بالمرج. استدار فجأة، ولوح بيده للطفل الذي يقف وحيداً في

الحديقة. لم يبادله جميل التحية، إنما عاد للمنزل بسرعة، وقد زال اهتمامه بهذا الغريب تماماً.

قطع أوسكار الطريق إلى الجهة الأخرى، حيث يقعد منزل رسيل الذي لم تشتعل فيه الأضواء، رغم اقتراب موعد حلول الظلام. هبط الشمس على الجانب الآخر من البلدة، تاركة ألواناً متعددة في السماء. سار أوسكار بوداعة ولم يأبه لفكره أنه يسابق الوقت الآن. بل كان يشعر بأن الطريق أمام تلك المرأة مسدود، سيجدها في نهاية المطاف قبل أن تفلت منه.

رفع أوسكار هاتفه، واتصل بصديقه ذات الشعر الأسود، والتي تمثّل بالنسبة له بنك المعلومات، ووسيلة التتبع الأولى. أجابت هي دون أي تأخير، فقال:

- يقول الطفل، بأنها في المستشفى. تأكدي من ذلك.

6:30 مساءً / مركز المدينة التأهيلي

- سيتاح لك بعض الوقت لأن تتجولي كما تشائين في المكان. أعلم أن لا متعة في ذلك، لكنه على الأقل أفضل من الانعزال التام يا أسيا. سأخذك في جولة سريعة قد تفيدك في الأوقات التالية.

نهضت أسيا، وتبعت أليكس التي بدت متحمسة لأن تري المكان لأسيا. في الحقيقة كانت أسيا تشعر بالألم لأنها وصلت إلى هنا في نهاية المطاف. لم تكن هذه هي المحطة التي يجب أن تقف عندها، لكن لا حيلة لديها الآن، ولا تملك السلطة لأن ترفض.

هي الآن هنا، وهذه هي الحقيقة المحزنة.

من هو المجنون؟ من الذي لا يمكنه أن يرى الحقيقة في هذه الحكاية؟ فكرت في العديد من الأسئلة، ولم تبذل أي مجهود لأن تكتشف الحقيقة في ما يتعلق بها. يكون أحيانا البحث عن الجواب، إهداراً للطاقة والمشاعر، ليس أكثر. وهي لم تعد تملك أيا منهما.

خرجت أسيا، برفقة الطيبة في جولة عبر أروقة المستشفى، مع حلول المساء، كانت تلك الممرات تغرق في ظلام رمادي مشبع بما يفترض أنه ضوء، لكنه كان كئيباً، لا يكفي لأن ينير المكان. تفحصت عيني أسيا المكان، وفكرت في الطريقة التي يتأقلم معها النزلاء هنا، يجب أن يكونوا مختلفين فعلاً حتى لا يأبهوا لكآبة هذه الممرات المظلمة. أدركت أليكس تلك الفكرة فقالت كأنها تقرأ أفكار أسيا:

- لا يحبذ معظم المرأة الضوء القوي هنا. لا يساعد ذلك على الاسترخاء.

- لكنه كئيب. - زمت أليكس شفتيها، وهزت كتفا واحداً، وهذا كان يوحي بأنها تؤيد الفكرة.

سمعت أسيا صوت جهاز تشغيل موسيقى يذيع أغاني قديمة، لكنها ليست متأكدة ما إذا كان الصوت ينبعث من مكبرات المستشفى، أم من مكان واحد ويتسرب عبر الممرات وصولاً إليها. انعطفت أسيا خلف أليكس لتجد أن الممر التالي كان أوسع قليلاً.

قطعت طريقهن فتاة جميلة، لكن يمكن بسهولة لأسيا أن تلاحظ أن الجمال ذبل خلف قلة الاهتمام والوهن أيضاً. راقبت الفتاة أسيا بعين باردة لا حياة فيها، ثم قالت فجأة بطريقة ساخرة:

- فرد جديد؟ ماذا تركنا للمدن والطرقات إذا؟

أجابت أسيا ببديهة سريعة:

- تركنا المختلين ينعمون بحياتنا. ضحكت ايما، وكتمت فمها بيدها فترنحت بطريقة توحى بأنها كانت تحت تأثير مخدر ما. - تقدمت وضربت كتف أسيا، ثم هتفت بكلمات لم تفهمها، لكنها بدت كأطراء.

علقت أليكس على الموقت قائلة:

- إن كنتِ متعبة يا ايما فعودي إلى حجرتكِ.

- لم أكن متعبة، لكن رأسي.. رأسي سلبتم رأسي يا أوغاد. - سارت ايما مبتعدة وهي تترنح ثم قالت بصوت مبحوح لم يكن واضحاً -

أين رأسي يا أوغاد.

نظرت أسيا بخوف نحو أليكس، ثم أعادت بصرها نحو ايما، وتبعتها بعينيها حتى اختفت في نهاية الممر. مسدت أليكس على كتف أسيا، وقالت لها:

- يزول هذا مع حلول الغد. لقد تعرضت لصعق كهربائي.

صرخت أسيا بتعجب:

- ماذا؟ كهرباء؟

- لا تقلقي. لقد وصلت ايما إلى أسفل الجرف تقريباً. لم يعد بإمكاننا إعادتها. كانت تعاني من اكتئاب حاد، وحاولت أن تنهي حياتها ثلاث مرات. لم يفهم أحد سبب ذلك، لكن جلسة الصعق ستساعدنا، أما الآن فهي مرهقة فقط.

حاولت أسيا تصديق ما قالته الطبيبة، بل كانت تريد أن تفعل ذلك بكل ما تستطيع فعله، وإن تطلب الأمر تجاوز حد المنطق. إن لم تفعل ذلك فإن الخوف سيجد طريقه إليها، وستبقى الجلسات الكهربائية، كابوساً يطاردها، ويمنعها من التمسك بظننها.

لم يكن في جولتهم أي متعة. بل كانت حركة بطيئة عبر أروقة شبه معتمة، عبقة بالحزن، وبالقصص التي لم تكتمل لأن أصحابها فقدوا

أفكارهم، وتركوا الواقع لأشخاص آخرين. ينتهي دورنا في القصة، حين لا تعود هناك أي أفكار ترتبط بنا من خلالها. أما نحن فنتنازل عن الحكايات حين لا نعود قادرين على إنشاء أي أفكار حولها.

مضت الدقائق التي قضتها أسيا بين غرف المرضى، وأسرتهم طويلة. لماذا تفعل أليكس هذا معها هي بالذات؟ أليست أسيا جزءا من هذا المكان، وعليها أن تجد طريققتها الخاصة في التأقلم معه؟

- سترين حكايات عديدة في هذا المكان، هناك الحزين منها، وغيرها من القصص التي لم تكتمل من دون أي سبب. تكون النهاية مفاجئة أحيانا لبعضهم، حين لا يعود لديهم في هذه الحياة ما يعيشون من أجله.

- تتحدثين عنهم، كما لو أن الجنون نعمة.

نظرت أليكس بطرف عينيها نحو أسيا، وقالت بثقة:

- وهو كذلك، عندما يكون المرء ذكي، لكنه حزين. نحتاج أحيانا لأن نطفو إلى السطح، وإلا فإن الموت يصبح أسهل من تفسير الأمور المعقدة في الحياة. لا تطبقي هذا الكلام عليك أنت، أنا أشرحه لك من وجهة نظر شخصية، بينما كطبيبة سأقول لك بأن هناك عائلة تنتظر عودتك.

قبضت أسيا على يد أليكس، وجرتها لتستوقفها، ثم جعلتها تقف

مقابلة لها. حاولت أن ترتب كلماتها وتبريراتها بسرعة، ثم شرعت بإفلات الكلمات من حنجرتها:

- ألم تفهمي أن الأمر مختلف؟ إنه يتهمني بأنني خائنة.

لماذا ينكر عمر انتماء هذا الجنين له. قبضت أسيا على رداؤها، ثم حركت يدها بنعومة فوق بطنها. وجود هذا الجنين يثبت لها صحة ما تقوله، أو يحوي جزءا من ذلك. هي ليست مجنونة، لأنها تتذكر كيف يتظاهر عمر بحبه، والنتيجة هي هذا الجنين الذي بطنها. أما الآن، هو ينكر كل شيء. سينتصر هو، بينما هي حبيسة هذا المكان.

تنهدت أليكس، ثم قالت:

- الوقت يا أسيا. تخيلي لو أن مكوثك هنا، كان من أجل حمايتك. فرصة لترتبي أفكارك. أما عن الجنين فإن الطب سيحدد صحة ما تقولينه في الوقت المناسب. حينها ستتكشف هذه اللعبة التي تدعين وجودها. أليس كذلك؟

أخفضت أليكس رأسها بخيبة، لأن كلماتها لم تأت بمفعول سريع. استأنفت السير خلف أليكس التي دلتها على أهم المرافق في المركز، وفي النهاية قادتها إلى جناح أخير حيث كانت راجية تستلقي على سريرها، دون القيام بأي شيء محدد.

اعتدلت راجية، ورحبت بأليكس فهي لم تعتد أن تقابلها في

المساء، فأليكس لا تكون موجودة هنا بالعادة. قامت أليكس بتعريف
أسيا على راجية، ثم اعترفت:

- راجية هي صديقتي في هذا المكان. - جرت أليكس عينيها عن
وجه راجية، ثم نظرت إلى أسيا.

قالت أسيا بكسل:

- مرحباً يا راجية. أنا أسيا. سأكون زميلتكم لبعض الوقت.

ما هذا؟ ما الذي يحدث الآن؟ خاطبت أسيا نفسها بذلك. هي الآن
تعقد صداقة مع أحد النزلاء، وتتصرف كما لو أنها تصالحت مع فكرة
جنونها. رغبت لو أن تصرخ في وجه أليكس، وتسألها عن هذا الذي
تقوم به الآن.

- لا يبدو لي بأنها تعاني من شيء ما. هل أنت أيضاً مثل إيما.

ضحكت أليكس ثم قالت:

- ليس تماماً. بل إن أسيا أفضل بكثير. لكنها تحتاج لبعض الراحة
ليس أكثر.

- وآمل أن تجدي الراحة هنا. قد تبدو هذه فكرة غير معقولة. لكن
البعد عن الحياة المعتادة قد يساعد في تشكيل صور مغايرة تساعد

الإنسان في قضاء باقي أيامه مع مفاهيم أخرى مفيدة. نحتاج أحيانا لفهم جوانب لم نعتقد بأننا سنقف فيها.

تعجبت أسيا من قول المرأة، وعلقت:

- هذا ممكن. سأرى الجانب المشرق في هذا، رغم أنني أشك بأنه موجود.

أمضت أسيا مع راجية سبع دقائق أخرى، قبل أن تعلن أليكس أن وقت الرحيل قد حان. لم يكن الوقت الذي قضته أسيا في هذا الجولة، مهما أو يذكر حتى. أصبحت الآن على الأقل تدرك أين هي قاعة الطعام، وهي ليست من المرضى الذين يتطلب وضعهم أن يتناولوا الطعام في حجراتهم. سألت أسيا الطبيبة:

- هل هناك مرضى، يمنع خروجهم.

- يخرجون، لكن في وقت مخصص لا يكون فيه أحد بالخارج. نبقىهم وحيدين حتى تأتي لحظة تنزههم. نقدم لهم الطعام في حجراتهم، ولا يكونون مدركين أين هم حتى.

سألت أسيا بفضول:

- هل هم خطرون؟

- بعضهم خطر على نفسه، والآخر خطر على النزلاء الموجودين هنا.
لكننا حذرون حيال هذا الأمر، ولم تحدث أية أخطاء من قبل.

ساد صمت مفاجئ لثوانٍ قصيرة، قبل أن تقطعه أليكس من جديد
لتقول:

- بالمناسبة، ترك لك زوجك بعض المستلزمات، ودفتر يوميات
يعتقد بأنك ستحتاجين إليه لتتذكري الأيام الأخيرة.

علقت أسيا بسخرية:

- لم أكتب يومياتي أبداً. بل إنني حتى أسخر ممن يقومون بهذا. -
أي كذبة جديدة يا عمر؟ فكرت أسيا.

- أعتقد بأنه كان نموذجاً علاجياً، هذا ما لمح عمر إليه. ولا تنسي
بأنه ينتمي إلى الفترة المفقودة من ذاكرتك. لن يكون الاطلاع عليه
أمر سيئ على الأقل. تملكين وقتاً وفيراً، يمكنك خلاله أن تقومي
بهذا.

عادت أسيا إلى حجرتها، وبعد عدة دقائق تبعثها أليكس لتعطيها
الحقيبة، والدفتر الذي كانت تحمله باليد الأخرى. أخذتهم أسيا بحذر،
وشعرت كما لو أنها تسرق شيئاً لا ينتمي إليها هي. وضعت الأغراض
على الطاولة المجاورة للجدار. ثم استلقت بوهن على فراشها. لا تعلم
ما هو الوقت تحديداً، لكن ظلمة المساء في الخارج كانت حالكة،

والعتمة التي ابتلعت الغرفة كانت تدعو للشعور بالضيق والاختناق.

سخرت أسيا من نفسها لأنها تشعر بالوحشة في هذا المركز. إنها تملك هذا الشعور في كل مكان. منزلها، بين عائلتها، بل وحتى في الطرقات التي كانت تعرفها ومرت بها كثيراً من قبل. بصعوبة تمكنت من القبض على غفوة عابرة، وتخلت عن كل الأفكار التي آلمتها وعززت العجز فيها.

18 سبتمبر / 2019

7:30 صباحاً / الوادي الغربي

لم يتوقف ذهن عمر عن استحضار صور أسيا. كان يحمل عدد من المشاهد المتضاربة حيالها. أنشأت في قلبه جرحا غائرا لا يستطيع أن يتفادى مواجهته، شعر بالغضب أيضاً، وجزء كبير منه كان يشفق على ما آل إليه حالها الآن. شعر بالتعب، لأنه لم ينل ما يكفيه من الراحة. كانت عيناه تحرقانه ويشعر بأنه غير قادر على أن يفتحها. تناول قطعة خبز محمص صغيرة، وانتظر حتى ينتهي الطفلان من تناول طعامهما.

- عرضت علي صديقتي في المدرسة أن أزورها في المنزل.

قالت زهرة ذلك، وتفادت النظر إلى والدها، الذي عقد حاجبيه، وسألها باهتمام عن هوية هذه الصديقة التي ظهرت فجأة في حياة ابنته، فهو كان يلاحظ بأنها منطوية معظم الوقت، ولم تتحدث من قبل عن أي أصدقاء في المدرسة.

- اسمها سالي، وهي تعيش عند طرف البلدة، منزلها قريب من هنا.

- سأنظر بالأمر يا زهرة.

لم تعترض الفتاة، بل نهضت من مكانها، ونفضت بقايا الطعام عن ملابس جميل، وساعدته على حمل حقيبته قبل أن يتجهوا جميعاً إلى سيارة عمر التي أعادها من العاصمة إلى المنزل.

توقف عمر أولاً أمام مدرسة زهرة، وانتظر الفتاة حتى تترك السيارة وتتجه إلى هنا. كان يحاول رعاية الطفلان منذ أن ماتت حبيبة، وكان غالباً يقوم بهذه المهمة وحده. لكن اليوم وللمرة الأولى يشعر عمر بأنه وحيد بطريقة جدية ومخيفة في آن واحد. كانت الوجهة التالية هي مدرسة جميل، وهنا التقى بجين من جديد. سار جميل مبتعداً عن والده، لكن جين استوقف عمر لتعبر له عن أسفها:

- الأخبار تنتشر بسرعة يا عمر. آسفة لما حدث.

- لا عليك. هذا ليس خطأ أي شخص. إنها عقبة، وسنتجاوزها بكل تأكيد.

- أتمنى.. أتمنى هذا. إن جميل في الواقع لا يحرز أي تقدم. لكن الآن عندما تنعمون بهذا الهدوء، فإنني أتوقع أن يتغير حاله. إن سنه يتطلب مهارات أكبر مما يقدم هو.

تراجع عمر وقال بضيق:

- أرجوك يا جين. هذا ليس الوقت الملائم. إنني أحاول كل ما في وسعي لأغير الأمر، لكن النتيجة لن تكون واضحة بهذه السرعة.

نظرت جين في عيني عمر بأمل غريب. لمع بريق الإعجاب من جديد في عينيها، وكانت خلف تلك النظرة تطلبه بأن يسمح لها هي بالتدخل. كانت تريد أن تقدم له المساعدة بداعي الحب. أجفلت تلك النظرة الرقيقة قلب عمر، وخاف أن تشعل الحاجة أي شعور وهمي الآن. لذلك اعتذر منها وانسحب بسرعة من المكان.

تأملته جين بينما كان يبتعد. لم يكن رفض عمر للمبادرة يزعجها، لأنها ترى بوضوح كيف تسير حياته الآن. لكنها كانت على ثقة بأنها ستستطيع أن تقدم أي تغيير ولو كان بسيطاً. لم تضع في الحسبان، أنها جزء جانبي من حياة عمر، لا يفكر فيه بجديه، ولم يتطرق إليه لأن حياته الفعلية كانت تحمل كماً من السوداوية هو وحده لا يكاد يتجاوزها.

9:15 صباحاً / مركز العاصمة التأهيلي

حملت أسيا دفتر اليوميات بيد واحدة، وسارت عبر الأروقة التي كانت بما فيها من ضوء الشمس الضئيل، أكثر سطوعاً مما كانت عليه

تحت أنوار المصابيح المعلقة في السقف. عبقت رائحة المطهرات التي ظلت عالقة في الأرضية اللامعة بعد حملة التنظيف الصباحية. سارت بهمة إلى البهو الذي كان مخصصا لتجمع النزلاء. كانت آسيا على خلاف الأيام الماضية، تشعر بقدر أكبر من الطاقة اليوم.

- أنتِ.

استدارت آسيا لترى الصوت الذي كانت على يقين من أنه يناديها هي، فلا أحد سواها هنا. رأت آسيا وجه ايما الجميل، وقد اكتسب بعض البريق اليوم. قامت الفتاة بترتيب شعرها، وبدأت ملامحها أكثر بروزاً ونظارة اليوم. كان الجمال المبهم في الليلة الماضية، أكثر وضوحاً اليوم.

- أنا؟ - سألت آسيا.

- أنتِ جديدة هنا.

قفزت الفتاة من فوق الدكة الرخامية، واقتربت من آسيا. حاولت آسيا أن تخمن سن الفتاة، فتارة كانت تبدو شابة جداً، وتارة أخرى، ترى آسيا بأنها قطعت شوطاً كبيراً في سن الشباب. كانت ملامحها بريئة وخادعة في آن واحد. نقلت آسيا الكتاب إلى يدها الأخرى البعيدة عن ايما، فراقبت ايما تلك الحركة بازدراء.

- لماذا كل هذا الغضب؟ المرضى هنا يأتون مستسلمين، ولا

يعترضون على أي شيء. لا يغضب إلا من يشعر بأن هناك جزء فاته في الخارج. هل أنت منهم؟

- شيء من هذا القبيل.

ظهرت أسنان ايما لتعبر عن ابتسامة مبالغ بها، ثم صفقت بكفيها مرة واحدة:

- من الجيد إذا أن تكوني هنا. لقد سئمت من الخرفين والمجانين هنا. يقولون خذ الحكمة من أفواه المجانين، لكن هنا لا توجد حكم. بل أفواه تعرف كيف تمضغ الطعام، وأرواح تنتظر الموت يخلصها من هذا السجن. - همست أيما وهي تغطي بيدها جانبا واحدا من وجهها - يتصرفون كما لو أنهم ضمنوا الذهاب للجنة. ماذا لو وجدوا الجحيم ينتظرهم.

ضحكت ايما بصوت عال ولم تغط فمها المكشوف. انحنى رأسها للخلف بينما كانت ضحكتها تخفت شيئاً فشيئاً.

- هل تعتبرين هذا المكان سجنًا؟ - سألتها أسيا.

- لم يكن هكذا، عندما كانت إقامتي طوعية. أما الآن فعرفت قيمة الحرية، بعدما أجبروني على البقاء هنا. كنت أدخل إلى هذا المكان البائس بإرادتي، حتى أتجنب صوت العالم الخارجي الصاخب الذي يخبرني بأنني لا شيء فيه. أما الآن، فأنا أتوق للخروج. هل نهرب؟

ضاقت عيني أسيا وهي تراقب ايما بحذر. هل هذا فخ؟ هل عليها أن توافق وتجرب؟ أم ترفض تلك الفكرة، وتتجنب المتاعب التي ستأتي بعدها.

- أنا..

- لا يتطلب الأمر تفكيراً طويلاً. هل تريدان الخروج أم لا؟

- لماذا تعرضين علي هذا؟

- لا لسبب معين. لا تبدان مجنونة. يبدو أنك هنا رغماً عنك.

سألتهَا أسيا:

- هل تعرفين طريقة للخروج من هنا؟ هل الأمر بهذه السهولة؟

فردت ايما سبابتها أمام أسيا وقالت لها باستنكار:

- بالنسبة لك سيكون الأمر تعجيزياً. لكن بالنسبة لشخص مهلي كان موجوداً هنا بإرادته، فأنا أعرف خبايا هذا المكان جيداً. يمكنني أن أجد طريقاً نخرج منه بسهولة. أخاف القيام بذلك وحدي. وأريد شريكاً في هذه الجريمة، حتى لا أشعر بأنني أقفز في الهاوية وحدي.

منطق غريب لكن يعيش الآخرون به في كل مكان. هذا ما فكرت فيه أسيا وهي تبتعد عن اйма وتذهب إلى البهو المصغر. تبعثها اйма التي كانت تنتظر استجابة منها. تجاهلت أسيا وجودها حولها، وجلست محاولة قراءة ما كان مكتوبا في الدفتر الذي تحمله.

على الجانب الآخر من القاعة حيث يمتد الممر إلى الجزء الأمامي من المستشفى، كانت أليكس تقطع المسافة القصيرة، لتصل إلى هناك. ولم يكن قدومها لغرض محدد، إنما كان فضولها حيال أسيا يشتعل، فهي تملك نظريات تبدو أحيانا متطابقة مع الواقع، وأحيانا أخرى، تشك في أن أسيا بالفعل مريضة.

جلست أسيا على أريكة جلدية تتسع لثلاثة أشخاص، وعلى الطرف الآخر جلست اйма لتراقب ما كانت أسيا تقوم به. لم تنزعج أسيا من هذا التطفل، بل كانت قادرة على التعامل معها كما لو أنها ليست هنا حتى. لم تلاحظ أسيا عبور الظل العريض في البهو، لأنه وفي اللحظة ذاتها اقتحم القاعة عدد صغير من الأشخاص.

- إنه غريب. - علقت اйма التي كانت تراقب الرجل، وهو يدس يده في جيب معطفه، دون أن تخمن حتى طريق اقتحامه للمكان. - أسيا انهضي.. اهربي.

استشعرت اйма الخطر قبل وقوعه. رفعت أسيا عينيها، ورأت الرجل الذي لا يوحي شكله بأنه من طاقم هذا المستشفى. قبضت على أحد جانبي الدفتر، وحملته بيدها وتجاوزت الأريكة، ثم راحت

تجري بجوار ايما التي كانت تصرخ. لم تكن آسيا متأكدة من قدوم الخطر بمقدار ايما التي لم يسبق لها أن رأت غرباء يصلون إلى هنا. ثم إن نظرة الرجل كانت تتوعد بشيء ما. أطلق الرجل رصاصته التي خرجت مع صوت صفير مكتوم، واخترقت المقعد الجلدي. سقط الدفتر من يد آسيا قبل أن تعبر الممر. فعادت بخطوات كبيرة وقفزت على الأرض لتلتقطه.

- هيا.. هيا. - ركضت ايما وصاحت بينما هي تفعل ذلك معلنة -
دخيل.. دخيل.

لم تفهم آسيا ما الذي يجري، فصاحت بصوت واحد مع ايما. تبعهم الرجل بخطى سريعة، لكن آسيا وايما سبقنه بفارق أمتار تكفي لأن تجعله يخطئ الهدف وهو يطلق النار مرة أخرى. عبر الممر المؤدي للغرف خلفهم، وقبل أن يتجاوزه تقاطع الأروقة الأول، ظهرت أمامه راجية، وشهقت بقوة عندما رآته يوجه السلاح نحو الفتاتين. استشعار الخطر، لم يكن يحتاج إلى ذاكرة قوية. كانت تعرف بأن هذا سلاح، وأن استخدامه سيؤدي للموت في النهاية. قفزت على يد الرجل بجسدها الضعيف. فقام هو بدفعها بعيداً عنه. ارتطم جسدها بالجدار العاري ثم سقطت على الأرض، عاجزة عن المساعدة. خمنت راجية بأن هذه هي النهاية، وأن الرجل سيرفع فوهة السلاح لتكون آخر ما تراه عينيها. لكنه لم يفعل لأن الوقت يداهمه. تأخر عن الفتيات بضع ثوان مكنتهم من قطع مسافة أكبر بعيداً عنه.

- من هنا. - صرخت ايما، وجرت يد آسيا إلى جانب لم تريها أليكس

كان الجزء الذي دلفن إليه، صغير، ذو باب حديدي قاسي، لكنه ليس مقفلاً. النوافذ في تلك الزاوية كانت مربعة صغيرة في أعلى الجدار، رائحة الغبار تنبعث قوية من بين كل الطاومات والكراسي القديمة التي تملأ المكان. خمنت أسيا أنه مخزن، لكنه لم يكن مقفلاً وهو متاح لكل إذا ما اكتشف أحدهم أن هذا الباب يحتاج لدفعة قوية فقط. كانت ايما الفضولية هي الشخص الوحيد الذي يعرف هذا، ولم تكن بحاجة لاستخدامه لأنها تستطيع أن تترك المركز متى ما أرادت ذلك.

- هيا ساعديني يا أسيا. ارفعيني. - شعرت أسيا بالخوف وهي تفكر في طريقة ملائمة - سيأتي إلى هنا هيا. صرخت ايما.

شبكت أسيا أصابعها، ورفعت مسافة تكفي لأن ترفع ايما ساقيها وتقف على كفي أسيا. ثم قامت بدفعها للأعلى. كانت ايما ترتعش مع يد أسيا غير المتزنة، لكنها تمكنت من جر النافذة الزجاجية السميكة. انبعثت غيمة صغيرة من الغبار أمام الضوء الذي تدفق فجأة. زحفت ايما عبر الفتحة، وجرت ذراع أسيا للأعلى.

ظهر الغريب في نهاية الرواق، فأعطته عتمة المكان شكلاً أكثر رهبة. لم تعد ملامحه واضحة، إنما هو مجرد ظل يسير في هذا المكان الذي كان الضوء فيه شحيح. ثبتت أسيا قدمها على الجدار وبدأت بالسير عليه، بينما ذراعها مقيدة بكفي ايما. تمكنت من الزحف

للخارج، ثم تحركت هي بطنها فوق العشب. نهضت وبدأت بالجري بعيدا مع ايما تركة النافذة مفتوحة، ووجه الغريب يطل منها. التفتت أسيا مرة أخرى، لتجد أن وجهه الأبيض الذي يعتليه شعر ذهبي قد اختفى.

10:50 صباحا / مركز العاصمة التأهيلي

للحرية طعم آخر يختلف عن كل أنماط الراحة المألوفة. غالباً نحن نختار أن نواجه غموض الحياة ومخاطرة بحرية، أكثر من الأمان الموجود في قلب القيود. نحن نرفض القيود لأنها تسلب منا حق الاختيار. جرت أسيا مع ايما باتجاه سياج المستشفى، والحسنة الوحيدة كانت في وجود ذلك الغريب هو أنه أصبح نقطة تجمع لكل رجال الأمن في المكان. لم يفكر أحد في تطويق المكان بعد، وهذه الفكرة لم تنطلق إلا بعد أن تجاوزت أسيا باب المركز وأصبحت تسير على الطريق المقابل له.

أبطأت سرعتها لأنها لم تتمكن من التفكير بصورة واضحة وهي تجري. تجاوزت ايما ثم أدركت أن شريكها قد توقفت. عادت لتحت أسيا على المضي، لكن أسيا شعرت بالتشتت، ولم تعرف ما الذي عليها أن تفعله.

- علينا أن نبتعد عن الأنظار، لا يجب أن نكون في مكان مكشوف حتى لا يجدنا.

- هل.. هل كان يحاول قتلي أنا؟ - سألت أسيا.

لم تجب ايما على السؤال بل قبضت على ذراع أسيا وجرتها معها. كانت المساحة المقابلة للمستشفى واسعة ومكشوفة، لذلك كان عليهن أن يصلن إلى نهاية سياج المستشفى. سمعت أسيا صوت صافرات الإنذار ينبعث من داخل المستشفى، ولم تكن متأكدة ما إذا كانت إعلانا عن وجود ذلك الغريب، أم لتعلن هروبها.

أثار صوت هدير محرك السيارة انتباه ايما فاستدارت لتتأكد، فرأت سيارة بيضاء تتجاوز بوابة المستشفى وتنعطف باتجاههن. استأنفت الجري مع أسيا التي أصابها الإنهاك، وكانت تعلن بصوت عال: "إنه هو". لا مهرب بالمساحة المحيطة بهن كانت مكشوفة، وسيتمكن من الوصول إليهن في كل الأحوال.

اقتربت السيارة بسرعة منهن، ثم أبطأت سرعتها وانخفض زجاجها، ليظهر وجه أليكس من خلفه.

- أركن، هيا. أنت في خطريا أسيا.

شدت ايما على ذراع أسيا كما لو أنها طفل يحتمي بأمه، وكانت هذه إشارة منها لأسيا حتى ترفض طلب أليكس. لن يستسلمن بهذه البساطة. لكن أليكس أعلنت:

- لن نعود للمركز. سأبعدكن عنه، هذا وعد.

نظرت أسيا إلى ايما التي كان في عينيها تشكيك لهذا الوعد.

لكن الآن لا يوجد مرفأً أمان آخر لديهن. الحل الأمثل هو الركوب مع اليكس، وإن كانت كاذبة فهي على الأقل ستحمي أسيا من ذلك الغريب الذي حاول أن يطلق النار عليها في قلب المركز.

جرت أسيا مقبض الباب الأمامي وجلست بجوار اليكس. ثم نقلت عينيها للخلف حيث جلست ايما، وكانت إشارة الحذر واضحة في عينيها، وفهما ايما فوراً حيث انتقلت لتجلس خلف اليكس في حال حدوث أي اختلاف في الخطة المتوقعة.

رفعت اليكس قدمها عن المكابح فتحركت السيارة ببطء. ثم زادت سرعتها بطريقة مفاجئة، جعلت ظهر اليكس يلتصق في مقعدها. أطبق هدوء مفاجئ عليهن، وكان هذا الهدوء يطالب بتفسير لكل ما حدث. أرادت كل منهن إجابة تفسر وجود ذلك الغريب هناك.

لم تكن اليكس تعرف الحقيقة بعد، ولا تدرك أسيا ما تفسير كل هذا، أما ايما كانت جزءاً جانبياً من القصة لا يريد الحصول على إجابة، بل اكتفت بإنقاذها لأسيا وهروبا من ذلك المكان.

- لماذا تركت المركز يا أيما؟

- لم أتوقع أن تحتجزونني هناك؟ لقد أتيت بنفسي، وليس من العدل أن يتحول هذا إلى أمر إجباري. هذا لم يكن اتفاقنا في بداية العلاج.

تنهدت اليكس وبدأ الغضب واضح عليها.

- لكنك تشكّين خطراً على نفسك.

وجهت إيما عينيها إلى المرأة حيث كانت اليكس تراقبها، ثم قالت:

- فهمت الأمر الآن. تلك الجلسات الغريبة.. إنها نافعة حقاً. - قالت إيما ذلك باستهزاء - أنا حقاً مشتتة وما أردته هو فهم لما يجري فقط.

لا تريد اليكس هدر مقدار أكبر من طاقتها في خوض هذا النقاش المكرر، فوجهت حديثها لأسيا هذه المرة:

- وأنتِ، أريد تفسيراً لما حدث؟

- بل أنا من تطالب بتفسير. كيف يدخل ذلك الغريب إلى المركز والذي يفترض بأنه محمي، ويستطيع توجيه سلاحه نحوي.

- هذا السؤال سنجد الإجابة عليه في المركز. لكن أخبريني يا أسيا، هل تظنين أن المركز هو نطاق آمن لك لتبتعدي عن خطر لم نخبرنا به من قبل؟

أظهرت أسيا نصف ابتسامة وقالت بانفعال جعلها تفقد ثباتها في المقعد:

- أمان؟ أنا لم أكن أريد أن أقضي ساعة في ذلك المكان الغريب.
هل تطلقون على هذا مركز تأهيل. إن من يدخل بعلة واحدة يخرج
بأخرى مجاناً. أنا لا أعرف لماذا هاجمني ذلك الغريب، أو حتى من
هو.

- أنت لا تكذبين؟

- إن كنت لا تصدقين هذا، أو تشعرين بالخطر، فتذكري بأنني لم
أطلب منك أن تأخذيني معك. كنا قادرين على الهرب أنا وايماء وحدها
وأنت من أصر على اصطحابنا. كلانا لا يفهم ما يحدث ولولا أن هذه
الفتاة. أشارت أسيا لأيماء - كانت ذكية ولاحظت وجود ذلك الرجل،
لكنت الآن ميتة في تلك المنشئة.

أحبت ايماء انخراطها في هذا الحدث، وشعرت بالانتماء لأن أسيا
كانت تتحدث عنهن معاً. كان هذا يشعرها بعض الشيء بأهمية
وجودها. كانت أقل شخص من بين الثلاثة الموجودين في المركبة
شعوراً بالخطر. لأن تلك الحكاية لم تكن تعنيها لولا أن أسيا تجرّها
إليها، ولأن غايتها الوحيدة الابتعاد عن المركز دون التفكير في
العقبات التي ستتبع هذا الأمر.

- إلى أين ستتجه الآن؟ - طرحت ايماء هذا السؤال.

رفعت اليكس عينيها إلى المرأة الموجودة بينها وبين أسيا وأجابت

دون تفكير:

- إلى منزلي، لكن لا يجب أن لاحظ وجودكن أحد هناك. هل هذا سيكون أمر صعب؟

زمت ايما شفتيها وحركت أصابعها في الهواء كما لو أنها لاعب خفة يخفي منديلا ورقيا، وقالت:

- أبدأ. هذا أسهل ما سنقول به.

حاولت أسيا أن تلتزم الهدوء لكن خوفها كان أكبر فهذا الغريب قد لا يكون قاصداً إياها هي فقط. قد يتفرع الأمر ويصل إلى عائلتها وحقيقة هذا تجهلها هي. ربما يكون وجوده من ضمن الأشياء التي نسيتها الآن. طرحت على نفسها احتمالا آخر أكثر قسوة؛ هل يكون عمر من خطط لهذا؟

لدى أيما مخيلة واسعة ومداهها بعيد، يجعلها تصل إلى تخيل حياة الآخرين، شكل العالم حولهم عندما لا يعودون متواجدين في محيطها. لديها الكثير من الوقت والفراغ الذي يجعلها ترمي ذهنها في أي أفكار لا معنى لها، ولا تصل إلى نهاية حتى. كانت ايما تعرف أليكس أكثر من أسيا، وهذا بحكم الوقت الذي قضته في المركز. لم تتصور يوماً أن يكون لهذه الطيبة المجتهدة والشفوفة منزل عصري

جميل.

- اعتقدت بأنك تعيشين مكتبة. أو على الأقل ظننت أنك ستعلقين لوحة كبيرة وصورنا معلقة عليها بدبابيس. لكنك تملكين منزلاً جميلاً.

- لا أطارد أعضاء المافيا، ولست رئيس الشرطة القومية لأعلق صوركم على لوحة كبيرة. يكفي أن أراها صباح كل يوم. لن أزين منزلي فيها أيضاً.

أخفت ايما ابتسامتها وقالت:

- هذا مقنع جداً.

أشعلت أليكس مصباح واحد وقادتهم إلى غرفة الجلوس الكبيرة والتي لم تحتو يوماً على تلفاز. لم تعرض عليهن الجلوس، لكنهن فعّلن هذا تلقائياً. كانت أسيا تحتضن دفتر يومياتها، فهو آخر ما تبقى لديها. كانت ايما لا تزال تستكشف المكان بعينيها، ولو أن أليكس أعطتها مساحة أكبر لنهضت وتحركت بحرية في المنزل.

- أليكس.

توقفت الطيبة عن التنقل في المنزل، وبدأ التوتر أوضح عليها الآن. أجابت بصوت مكتوم على النداء الصادر من أسيا.

- عائلتي. علينا أن نخبرهم بالأمر. يجب أن نحذرهم.

بدت أسيا أكثر خوفاً مما كانت عليه حين خرجت من المستشفى.
لن تتحمل فكرة فقدان فرد آخر من أفراد عائلتها. عليها أن تحذرهم
من هذا الخطر قبل أن يقع ما هو أسوأ.

- سيتصلون بهم من المركز، ويخبرونهم.

- أريد أن أتصل أنا بهم.

- أسيا، لا يمكنك هذا الآن.

- لن أحتمل الانتظار أكثر. - ألحت أسيا.

أغلقت أليكس عينيها مطولاً ثم قالت بحزم:

- أصغي إلي. لن تقومي بهذا الآن حالاً. ستفعلين ذلك لكن ليس
الآن. لن يشعروا بالخطر من وجود شخص غريب. سيكون هدفهم
إيجادك وإعادتك إلى المركز. هل تريدین حدوث هذا؟

اختفت قوة أسيا، وبدت كما لو أنها طفل تلقى تهديداً، وقالت
بصوت غير مسموع:

- لا.

- انتظري الوقت المناسب إذا.

علقت ايما عينيها على أسيا، ثم قالت:

- هذا قاييس جداً.

أدارت أسيا وجهها نحو ايما ببطء، فزمت ايما شفتيها وهزت رأسها عدة مرات للأسفل. في تلك اللحظة تحديداً شكت أسيا في أنها أخطأت فعلاً حين سمحت لأيما بالخروج من المركز.

23 أكتوبر / 2018

خيل إلي بأنني أرى صورة مطابقة لي تماماً، تجلس على المقعد الخلفي. جعل تشابه الصور إدراكي يتشوش في البداية، واعتقدت بأن جودة المرأة كافية لأن تجعل الصورة واضحة، رغم هذا البعد. للسذاجة، لم أدرك بأن في المرأة كان هناك اثنان مني. حدثت في المرأة وكنت أسحب الخصلة الموجودة فوق جبهتي تماماً إلى الخلف، وكذلك كانت تفعل المرأة المشابهة لي في المقعد الخلفي، حدث هذا كله في لحظات سريعة تشبه الحلم. وما جعلني أدرك وجود خطب ما في الانعكاس، هو الابتسامة المرسومة على شفتي هذه المرأة الجالسة في الخلف، بينما أنا في الواقع لم أكن أبتسم، أو حتى أرسم أي تعبير على وجهي. أبعد عيناى عن المرأة المعلقة قبالة الزجاج الأمامى للسيارة، وراقبت الطريق منتظرة أن يصدر الضوء الأخضر من الإشارة المرورية، أعدت عيناى إلى المرأة ولشدة ما شوش هذا المنظر أفكاري لم أعد أميز إن كان هذا واقعي أم خيال، ولشدة الرعب أصبحت صورة العالم ضبابية في عيني. لم أكن خائفة، بالمعنى الحقيقي للخوف، بقدر ما لم أتوقع وجود شيء غريب كهذا فعلي وقريب لهذه الدرجة من الوضوح. حدثت في

المرآة فوجدت المرأة التي في الانعكاس، والتي هي نسخة مطابقة لي لا تزال تحقق مبتسمة، وقد أفلتت الخصلة من يدها. هل هذه أنا؟ تساءلت، ولكنها بعيدة عن موضع الانعكاس الطبيعي لصورتي أنا. حركت رأسي يميناً، وشمالاً، ولكن الانعكاس لم يتحرك. كدت أشيح ببصري عنه، فوجدته يمثل الحركة ذاتها، حركت المرأة رأسها يميناً ويساراً، وهي لا تزال تبتسم، وكأنها تسخر مما قمت به. لقد تأخرت عن القيام بهذه الحركة، أرادت أن تثبت لي بأنها حقاً ليست انعكاسي، أو صورة أخرى مطابقة لي. التفت إلى الخلف لأواجهها، وأثبت عدم خوفي، ولكن عيناى تعلقت في الزاوية المعتمدة للمقعد الخلفي.

أتى بوق السيارة الواقفة خلفي، غاضباً طويلاً. تقدمت السيارة واقتربت من الجزء الخلفي لسيارتي. رأيت وجه الرجل خلف المقود وهو يفقد صبره، ويتقدم كأنه يهددني بأنه سيزجني من مكاني ويتحرك. رفعت قدمي عن الفرامل وتركت السيارة تتحرك ببطء، ولم يكن هذا تحامقاً على الرجل، وإنما لدهشتي مما حصل فقط. ضغطت على الوقود وزدت من سرعة السيارة، وابتعدت متيحة الفرصة للسيارات المنتظرة خلفي حتى تتجاوز الإشارة المرورية. وهكذا أصبحت المستشفى بعيداً من خلال الصورة التي تعكسها مرآة سيارتي. بدأت صورته تتضاءل حتى كادت تمتزج مع صورة الأشجار المحيطة به مشكلة سياجا رديئاً، مربعاً وكثيباً حول المستشفى. عندما انعطفت كان المستشفى قد اختفى تماماً عن مجال الصورة التي تعكسها المرأة، ولم يتبق سوى الطريق المجاور له، والذي

لا يتكون إلا من خطين متضادين لا يفصل بينهما شيء، ويحيط الطريقين صف من الأشجار الطويلة التي تحجب الضوء عن الشارع. كانت معظم الطرقات هنا موحشة وكأن الأشجار عديمة الأوراق هذه تمتص الضوء وتترك الأرض في عتمة حزينة.

طوال طريقي اتجاهها للمخرج من الوادي الغربي، كأن عقلي يعيد شريط ما حدث في هذا المساء، ورغم ذلك كان لدي إدراك خفي وسحري يجعلني أقود بحذر وببطء، كانت يداي قد تحولتا إلى مقود آلي أعطاني الفرصة لأبحر في ذاكرتي إلى أحداث هذا اليوم الكئيب.

لم أر عمر منذ صباح هذا اليوم، آخر لقاء لنا كان قبل خروجه للعمل. في المساء وقبيل عودته تلقيت اتصالاً على هاتفي المحمول. لم أتعرف على الصوت الذكوري، وبعد عدة محاولات لاستدراجه لقول أي شيء، وضعت احتمالي الأكبر، وهو أنني لا أعرفه تماماً، وكان هذا هو الاحتمال الصائب، لأنه قال بصراحة:

- هل أنتِ أسيا؟ أدخلنا والدك إلى المستشفى صباح اليوم، ولم نجد أي أقارب آخرين لنبلغهم بذلك.

لا تزال الفكرة الساخرة تنبض في رأسي حتى الآن: لماذا كان يبحث عن أقارب آخرين؟ هل كان يعلم بأنني لست هذه الابنة البارة بوالدها، والتي تولى جل اهتمامها لمنزلها؟ هل طلب والدي ذلك؟

اتصلت بعمر مرتين متتاليتين، ولكنني لم أتلّق أي استجابة لطلبي،

تركت له رسالة نصية أخبره خلالها بأن والدي في المستشفى، ويجب أن أكون معه. أوكلت مهمة مراقبة الأولاد إلى زهرة وخرجت واطاعة كل ثقتي في ابنتي الكبرى.

قطعت بسيارتي مسافة طويلة وصولاً إلى الوادي الغربي، ولم أشعر بهوان الصمت المصاحب لي طوال هذه الرحلة، سوى استقبال اللافتة الحديدية الكبيرة والتي كُتب عليها بخط أبيض كبير: مرحباً بكم في الوادي الغربي. قطعت الطريق الخالي والذي لا يحيط به من الجانبين سوى روابٍ عارية من النباتات، وفي آخر مجال الرؤية تترك ظلاله للتلال التي تلاحم لوحة السماء الزرقاء.

تسللت سيارتي في أزقة البلدة وكلّ شعور بالوحشة والغربة، لم يكن شعوري هذا غريباً أو جديداً فهو يصاحبني كل ما عدت لزيارة هذا البلدة بعد انقطاع. لم أشعر خلال طفولتي بالانتماء إليها. أما زواجي وانتقالي لمنزل جديد مع عمر، كان كما لو أن هذه البلدة تقيأتني وقطعت أي رابط يدل على موني أعود في انتمائي لها. من جديد أنا هنا.. وكل زياراتي القليلة كانت تبدو لي عودة أولى بعد انقطاع دام قرن كامل.

لم أكن متأكدة إذا ما كنت لا أزال أحتفظ بذاكرتي بخارطة لهذا المكان، ولكنني وجدتني أقود سيارتي وصولاً إلى المركز الصحي الصغير الموجود في البلدة. وهو مبنى متوسط الحجم مربع الشكل لا شيء يميزه سوى الخط الزجاجي العريض، والمربع الذي يحيط بكل طابق من الطوابق الأربعة للمركز. لا مباني تجاوره، وأقرب

مبنى له يبعد عنا شارعاً واحداً فاصلاً بين المستشفى وبينه. ركنت سيارتي في صف خالٍ من السيارات، وسرت تحت السماء التي أعلنت نهاية النهار.

لم يكن المدخل مشغولاً بالمارة، لذلك كان دخولي ملفتاً، مما جعل عيني المرأة الجالسة خلف طاولة الاستقبال تراقبني وأنا أخطو خطواتي السريعة كلها من لحظة عبوري الباب الآلي، حتى وصولي إلى طرف الطاولة الآخر.

- ثقل والدي إلى هنا صباح اليوم..

قاطعتني:

- السيد مروان؟ - حركت رأسي إيجاباً، فقالت - الطابق الثاني، اضغطي على الرقم اثنين في المصعد، هو يرقد في الجناح مئتي وأربعة. ولكن من الأفضل لو قابلتي الطبيب المسئول عن حالته قبل ذلك.

شكرتها على هذه التعليمات الدقيقة، وقد كنت أعني كلمات الشكر بكل معناها. ابتعدت عن الطاولة وسرت إلى المصعد، وأنا أفكر في طريقة اكتشافي للطبيب المسئول عن والدي، هل أعود وأسألها؟ ولكنني لم أفعل فالمصعد وصل قبل أن أخطو خطوة عودة واحدة.

اقتحمت المصعد الفارغ بخطوة اندفاعية عريضة تمكنت خلالها

من ترك مسافة صغيرة بيني وبين الباب. سبحت يدي في الهواء وصولاً إلى لوح المفاتيح، وما إن ضغطت على الرقم اثنين، وكاد الباب أن ينغلق، حتى وجدت طيفاً أنثوياً مسربلاً بالبياض يعبر جاعلاً الباب يتراجع عائداً إلى مكانه، وسامحاً للمرضى بالعبور إلى طرفي أنا. أرسلت لي ابتسامة، بدت وكأنها اعتذار ولاذت بالهدوء متخذة زاوية تبعدها عني بحيث تصبح منعزلة. وصل المصعد إلى وجهتنا المشتركة، وما أن أدركت هذه الممرضة بأننا نقصد المكان ذاته، سألتني:

- هل تبحثين عن شخص ما؟

- أجل يرقد والدي هنا.

تركتني، وأشارت بيدها حتى أنتظر، ثم قالت من بعيد بأنها ستستدعي الطبيب أولاً. لا أعلم إن كانت تتهرب من مساعدتي، أم أنها عرفت من هو والدي قبل أن أخبرها بذلك. اختفت خلال المنعطف الموجود في منتصف الممر، حيث ينبعث ضوء ساطع ملقى على الأرض كاسراً العتمة الرمادية الليلية التي تصبغ ممرات المستشفى، والتي لا تقوى مصابيح النيون الرديئة المعلقة على الأسقف، على كسرها.

سمعت وقع خطوات عديدة، مما يعني بأن هناك أكثر من شخص يقترب من ذلك المنعطف. كان تخميني صحيحاً، لأن الممرضة عادت مصحوبة بدكتور أطول منها بفارق واضح، ولحية سوداء كثيفة

متساوية الطول تغطي النصف السفلي لوجهه. حياني الطبيب
بابتسامة لا تكاد تكون واضحة على محياه.

- آسف إن كنا قد أقلقناك بهذه الطريقة على والدك. أنا من اتصل
بك في الواقع، لهذا أعتذر.

تراجعت خطوة صغيرة، وحاولت رسم ابتسامة توشي بلا مبالاة
لذلك الموقف الذي كنت قد نسيتَه بالفعل، وبنهاية الأمر، كان هذا
واجبه.

- لا عليك، ليس الأمر بهذه الأهمية.

تقدم الطبيب وقال:

- أنت أسيا إذا؟ أنا أعرف والدك، بل وأعرفك أنت شخصياً. أنا.. أنا
جابر، كنت أعيش هنا في السابق.

- جابر؟ - سألته وأنا أعقد حاجبائي، فلم أتمكن من استحضار أي
ذكرى تتعلق بشخص يدعى جابر في طفولتي، ولكنني تذكرت فجأة،
فقلت بصوت يشبه الهتاف، ولكنه خافت - أجل جابر، أنا أتذكرك، بل
وأتذكر والدك، كانا طبيبين هما أيضاً، أليس كذلك؟

ابتسم، ثم أكد:

- أجل، لا تزال ذاكرتك سليمة.

لا أعلم إن كان يحاول حقاً تعريفني على نفسه، فهذا الجزء لم يكن مهماً بالنسبة لأي منا، ولكن قد يكون لا بد منه. أو قد يكون هذا مجرد طريقة لتخفيف وطأة الصدمة علي. مهد لي جابر الخبر بصمت قصير، قال بعده:

- في الواقع، وجد أحد الجيران والدك مستلقيا على العشب في المرج الخاص بكم. كان يهذي بأشياء ليست مفهومة، ولا زال يفعل هذا حتى الآن، كلما استيقظ من رقاذه، مما يضطرنا أن نحققه بالمهدئ، حتى لا يسوء أمره. عندما وجدناه كانت حرارته مرتفعه جداً، ولا أعلم إن كان قد خرج من المنزل لطلب المساعدة، أم أن هذا بسبب الهذيان الذي أصابه.

أشار الطبيب برأسه ليري إن كنت أستوعب ما يقوله. وترك لي لحظة صمت أخرى لأستوعب ما يقوله، ثم أكمل:

- وقد يكون هذا الهذيان أصابه بفعل ارتفاع حرارته. هو مريض، ونحن لم نجد أي سبب لتحديد لحالته، ولكن هذا ليس أمراً غريباً، فأعراض كهذه أسبابها عديدة، ولا نحتاج لأهمية تحديد المسبب الأساسي، يكفي أن يكون الطقس عاملاً فيها. لكن الهذيان المستمر، هو الأمر الغير طبيعي، لأننا.. أو إن صح القول، لأنني أعتقد بأن صدمة ما أصابت والدك، وجعلته يدخل في هذه الحالة، وارتفاع درجة حرارة الجسد ليس عاملاً غريباً، في هذا النوع من الصدمات.

- صدمة؟ - قلت، وشعرت بأن للكلمة صدى تردد مرات عديدة. -
والذي يعيش وحيداً من زمن بعيد، ولا يختلط بالآخرين، حتى إن
حياته لا تحتوي على الكثير من التفاعل مع العالم الخارجي، العالم
بالنسبة له هو المنزل فقط. ثم إن أي صدمة، أكبر من موت والدتي
بالنسبة له، ستؤثر به إلى هذا الحد؟

حرك الطبيب رأسه، وحاول التفكير معي، ثم قال وقد بدأ بالسير:

- لا أعرف تفاصيل حياة والدك، لأتمكن من تحديد أي نوع من
الصددمات ممكن أن تصيبه، ولكن في عمر متقدم كهذا، أخشى أن
يكون الخوف المفاجئ، أو الصدمة. أي انفعال مفاجئ كالدهشة
القوية جداً بسبب أمر بالغ السوء، من الممكن أن تكون بداية الطريق
لهذا الأمر.

- أي نوع من الخوف تقصد، وما الذي عساه يخيف رجل اعتاد أن
يعيش وحيداً.

أصدر جابر همهمة قصيرة، وعقد يده خلف ظهره، بينما وقع
خطواته أصبح أبطأ.

- لا أعلم أي نوع من أنواع الخوف هذا، ولكن قد يكون الأمر سطوا
على المنزل مثلاً، أو هجوماً غير متوقع، هذا مثال ليس أكثر، ولا
يجب أن ينتمي للواقع. هذا النوع من الأحداث تسبب انفعالات لا

يتوقع المرء أن يعيشها على أرض الواقع، مما يتسبب له في حالة عصبية تشبه ما يعيشه والدك.

توقعت أن يصطحبني الطبيب إلى والدي، ولكن خطواتنا لم تقدنا إلى أي مكان، لأنه توقف في منتصف الممر، والتفتت إلي بنظرة جدية تعني بأنه يحاول حل العقدة الصغيرة التي أصابت والدي.

- أسيا.. كيف هي علاقتك بوالدك؟

تلعثمت قبل أن أجيب، أو أستوعب هذا السؤال المفاجئ، ثم قلت ببطء:

- جيدة.. أعني.. لم نكن نتواصل كثيراً فأنا أعيش بعيداً عنه، وهو لا يبذل مجهوداً في ذلك، ولا يمانع بقائي بعيدة وكأنه يرغب في ذلك بعد وفاة والدي بسبب المرض. لا يوجد بيننا خلافات، ولكن تقتصر علاقتنا على زيارات لا تجدي أي تغيير، ومكالمات قصيرة شبه رسمية، لا شيء أكثر من هذا.

- ألم يحدثك عن أي شيء غريب أصابه في الآونة الأخيرة، ألا تشعرين، أو تحاولين تخمين أي خطر ممكن أن يواجهه والدك. أنت تعرفين شكل حياته.

فكرت، ولا اعرف كم استغرق تفكيري في الأمر، لأن خيالي اصطحبني إلى زيارة سريعة لحياتي مع والدي قبل زواجي وابتعادي

عن البلدة.

- لا يوجد أي شيء كان يهدد حياته بهذا الشكل الصريح.. أو في الواقع قد أكون بعيدة بحيث لا أدرك ما هي الأشياء القريبة من والدي لتسبب له هذا الخطر.

ألقى علي جابر نظرة أسف، وراح يفرك ذقنه بنعومة. سألته لأكسر الصمت:

- ألم تتدخل الشرطة في هذا الأمر؟

- في الواقع لا، لا يوجد أي ضرر وهذا الذي يعقد الأمر. لم يجد أحد أي شبهة في حالة والدك، لا أدلة، لا هجوم أو إصابات تدل على ذلك. لا نملك طرف خيط يوصلنا إلى أي شيء. رسا الأمر على أنه حالة مرضية، وقد يكون هذا هو الواقع في نهاية الأمر.

ختم كلامه، بنظرة من طرف عينيه، وحاجب مرفوع، ورأس يهتز في نطاق ضيق انخفاضاً وصعوداً، ثم سار بخطوات سريعة طالباً مني أن أتبعه حتى أتمكن من رؤية والدي. كان حوارياً مع جابر، الذي حاول أن يجعله منطقياً بقدر الإمكان، عكس رغبته. فلم يستطع أن يبعث إلي نظرياته بصورة مفهومة ومعقولة، لأن عقلي في النهاية ترجمها بطريقة غامضة، تشير التساؤلات. استدرجتني تحليلات الطبيب إلى العديد من النوافذ الأخرى.

تسارع وقت خطواتي أكثر مع شعوري بأننا نقرب من حجرة والدي. راقبت أرقام الغرف، وبدأت أحسبها تنازلياً، حتى وصلنا إلى الجناح الذي يرقد فيه والدي، هو جناح عريض يتسع لأربعة مرضى. كانت المصابيح ضئيلة في الجناح، وذلك لراحة المرضى، فكل سرير اكتفى بمصباح يعلوه، كان الضوء مزعجاً أكثر من كونه ضوءاً يفي بالغرض للمريض الراقد على الفراش. كان أبي يغط في رقاد عميق على السرير. يمكنني أن أراقب حركة جهاز تخطيط القلب، وأن أسمع صوت الأجهزة المحيطة به، والتي طغت على صوت أنفاسه. لم يكن يتحرك، أو يبعث لي أي إشارة توحى بأنه على قيد الوجود، أو، طبيعي كأي شخص آخر. لكنني حسب حكمتي فأنا دخلت الجناح تواء. أردت أن أهمس له بأي شيء، وانجرفت العاطفة المكبوتة بداخلي كلها دفعة واحدة. تماكنت نفسي، وقررت أن أبدو عقلانية أمام الطبيب. أشار لي بأن أبقى بجواره، وبأنه سيعود لاحقاً. حركت رأسي له بالإيجاب، وكنت ممتنة في أعماقي لأنه سمح لي باغتنام هذه الفرصة.

لم تكن خلوتي مع جسد والدي الراقد غريبة، أو طويلة، بل كنت أقف بالقرب منه، أتأمل وجهه الذي بدا أكبر منذ آخر مرة رأيته فيها. لا أعلم ما الذي جعله يكهل بهذه الطريقة، وبهذا الوقت القصير. تمنيت في أعماقي أن لا يكون الأمر خطيراً، وأن يكون والدي هو الطرف الضعيف، لأنني أعلم بأنه لا يملك القدرة على مواجهة أمر خطير، هذا إذا ما كانت احتمالات الطبيب صحيحة.

لا أين أين تاه بصري في تلك الزاوية المعتمة التي يرقد فيها والدي، ولكن الغرفة تلاشت من أمامي، وكل ما كان في مجال رؤيتي هو الماضي. استرجعت صور طفولتي، وبعض الصور الأخيرة التي أتذكر والدي فيها. كل رحلاتنا في سيارته المرسيدس بينز البيضاء من طراز قديم كلما ذكر لي هو تاريخ صناعته، كنت أنساه، وفي كل رحلة لنا أنا، هو، وأمي، كان يسرد لنا تاريخ هذه السيارة، ولا يتردد في التعبير عن حبه لها أمام والدي، كما لو أنه يخبرها بأن يعرف امرأة أخرى غيرها. لكن في الواقع، لم يفكر أبي في أن يقسم حبه على أحد سوانا أنا، وأمي، وأعتقد أن الجزء الأكبر كان لأمي، فمنذ رحيها، وهو يتصرف كما لو أن الحياة فرغت من أسباب الوجود عليها، ويكتفي في أن يؤدي دور الإنسان الموجود رغما عنه على هذه الأرض.

عندما رفعت عيني لأعيدها إلى وجهها، أجفلت للحظة لأن عيناه كانتا مفتوحتين على اتساعهما تحديقان في السقف، دون هدف. رفعت رأسي بطريقة مثيرة للسخرية، وألقيت نظرة خاطفة على السقف، فوجدت طبقة بيضاء خالية مما عدا مربع معدني يحمل مصباح الغرفة. أعدت نظري إلى والدي، وهمست:

- أبي.. إنني هنا.. معك.

لا أعلم لماذا كنت أ همس، هل شل الخوف قوة صوتي، أم أنني ظننت بأنه سيشعر بالود في هذه النبرة؟ كانت جملتي مبتذلة ولا معنا لها، ولو كان أي شخص آخر يسمعها لظن بأنني ساذجة إلى

حد أقول معه هذه العبارة من دون أي مشاعر حقيقية. لم يكن في داخلي سوى الخوف، ولا أعلم لماذا.

- أبي. - ناديته، ولكنه لم يستجب، أو يحرك عينيه باتجاهي.

بدا لي من الصعب أن ألحظ أي حركة، أو التواء في رقبتة عندما حرك رأسه ببطء ليواجه نظراتي. كانت عيناه لا تزالان تحدقان بكل اتساع ممكن. راقبني، وفتح فمه ليصدر صوتاً متقطعاً، ظننته يتألم، ولكنه لم يكن كذلك، بل كان يحاول أن يتحدث بعجز.

- إنهم كاذبون.. كاذبون.

أرخی رأسه بعجز، ثم حاولت المقاومة، والنهوض وهو يقول:

- يخدعوننا طوال الوقت. هم حولنا دائماً، يرون كل شيء، ويسمعون ما نقوله. كل ما يفعلونه هو الكذب. إنهم مزعجون، دعيهم يرحلون، وإلا فإنك لن تتمكني من التعرف إلي بعد الآن. لن يتمكن أي منا، من معرفة الآخر بعد ذلك.

ارتفع مؤشر النبضات، وعلا معه صوت الجهاز. كتمت فمي برعب، وتراجعت حتى ارتطمت بالحائط، فالحيز الموجود بين سرير أبي والحائط، كان ضيقاً. خرج صوتي مرتجفاً:

- من هم؟ أبي، من هم الذين خدعوك؟

تخيرت اتجاه نظرة والدي، وتجاوز جسدي ليتعلق على الزاوية المفتوحة من الستار الحاجب بينه وبين الأسرة الثلاثة الأخرى. رفع سبابته، وأشار إلى الجزء المكشوف.

- إنه هنا.

تلثم والدي بما تبقى من جملته، وتحول صوته فجأة إلى نحيب. راقبت الاتجاه الذي يشير إليه، وكان فارغا، لا شيء سوى جدار بعيد مظلم، يعكس بعض الضوء الأصفر الآتي من دورة المياه المقابلة له. وعلى الأرضية كان ضوء الممر الأبيض يجاهد لكسر العتمة.

كدت أسأله من جديد، ولكن تزاحم الممرضون حول والدي ودفعوني إلى الخارج بلطف طريقة ممكنة. كدت أعاندهم، ولكنني أستسلم لأيديهم التي جرتني بلطف إلى الخارج. ناداني جابر، وحاول أن يهون علي بكلماته:

- دعيه يرتاح.

لم تعد الصورة واضحة أمامي تحول نور الممر إلى خيوط بيضاء عبر طبقة الدموع التي كست عيني. حتى وجه جابر لم يعد سوى صورة ضبابية خلف دموعي التي لم تسقط، وإنما ظلت عالقة في عيني.

- هل هو هكذا طوال الوقت، قال لي أشياء غريبة. إنه..

قاطعني الطبيب:

- اهدئي، واجلسي قليلاً. إن حالة الهذيان هذه تصيبه طوال الوقت، يقول أشياء لا تنتمي للمنطق.

- ولكن ما حاولت فهمه من عبارات والدي، بأن هناك أشخاصا ضايقوه، كان يقول كاذبون و..

انقطعت عبارتي فجأة، وتذكرت كيف كان يشير لتلك الزاوية الخالية، فأدركت بأن كل عباراته لم تكن إلا خيالا. راقبني الطبيب بصبر، متأملاً أن أقول المزيد، وعندما أدرك بأنني أنهيت عبارتي المبتورة، قال:

- أعتقد بأن الوقت لا يزال مبكراً ليزور الخرف والدك الآن. وفي حال أصابه الخرف، فإن نوبات الذعر هذه لا تدوم. أنا أعتقد بأن الوقت لن يطول حتى نعرضه على مختص نفسي.

فور خروجي من مكتب جابر، دسست يدي بطريقة آلية في حقيبتتي، ودون أن أنظر إلى جوف الحقيبة راحت يدي تبهر حتى التقطت الهاتف. وجدت اتصالاً فائتي، وقد أعلن الهاتف عن اسم المتصل، وهو عمر زوجي. قمت بإعادة الاتصال، ولم أنتظر طويلاً حتى سمعت صوته:

- أسيا! هل كل شيء على ما يرام؟

ترددت الكلمات في فمي، ولم أكن في هذه اللحظة تحديداً، أملك ما يكفي من طاقة لأشرح الأمر الذي كان التفكير فيه فقط يرهقني.

- لا أعلم، سأعود إلى المنزل قريباً ونتحدث في هذا الأمر.

- حسناً، لن تتأخري، أليس كذلك؟

أجبت بالنفي، ثم ودعته. رميت الهاتف في الفجوة السوداء لسحاب حقيبتني المفتوح. وسرت متجهة إلى المخرج. لم يعد بإمكانني المكوث أكثر هنا، هذا ما أخبرني به جابر، الزيارة انتهت منذ وقت طويل، ووجودي لن يساعد والدي الذي لم يدركه.

في الخارج بدالي من الصعب تمييز كون السماء غائمة، لأن الغيوم كانت داكنة إلى حد يجعلها مطابقة لسماء الليل. لكن شكل القمر أثار تعجبي. لا أتمكن من تحديد شكل الغيمة التي تحجبه بالتحديد، ولكنها تجعل من شكله مميزاً. لم يكن هلالاً، أو بدراً حتى، إنما تشكلت حوله غيمة مليئة بالثقوب، جعلته يبدو كشظايا مضيئة في السماء.

الأربعاء

18 سبتمبر / 2019

6:30 مساءً / الوادي الغربي

أصبح وصول المكالمات التي تحمل أرقاماً غير مسجلة إلى هاتف عمر، أمر يقلقه بشده. كره المفاجآت، ولم يعد يحتمل حدوث أي أحداث جديدة. لكن المفاجئة التالية بالنسبة له، كانت أكبر من نطاق هذا التذمر ذي النمط العادي. أجاب بسرعة على تلك المكالمة، ليسمع صوتاً غريباً يناديه ليتأكد من هويته.

- هل حدث أمر لأسيا؟

اختصر عمر جزءاً كبيراً من مشوار الموظف الذي كان يتصل ليخبره بالنبأ. أخبره العامل أن زوجته هربت من المستشفى من دون أي مقدمات أو تمهيد حتى. صعق عمر لهذا، وشعر لوهلة بأن دوران العالم قد توقف، وبأن رأسه هو ما كان يدور.

- هربت؟ كيف يعقل أن يحدث هذا. إنها في عهدتكم، كيف استطاعت أن تهرب؟

لسبب ما لم يتطرق المتصل إلى أمر الغريب الذي اقترح المستشفى، لأن هذا الخبر لو انتشر من جهة مدني عادي، فإنه سيزعزع سمعة المركز، وسيتسبب بالضرر للعديد من الجهاد. أخبره المتصل بأنهم مضطرون لتقديم بلاغ في ذلك، لأن مهمة البحث ليست من اختصاصهم، بل على رجال الشرطة أن يجدوها وهم سيقومون بتسليمها للمستشفى.

أغلق المتصل الهاتف بعد نقاش قصير لم يأت لعمر بأي معلومة مهمة، لم يكن الهدف من هذا الاتصال، سوى إخطاره بأن زوجته هربت، وهذا الخبر سبب له نوعاً من القلق الذي كان يحاول الابتعاد عنه في الساعات الأخيرة.

لم يكن في المنزل سواه هو وجميل، أما زهرة فهي في منزل صديقتها سالي. شعر عمر بالخوف، وبحركة آلية نظر إلى النافذة ليرى أي إشارة على عبور زوجته أمام المنزل. كنت تلك الحركة ساذجة، وفيها شيء من الطفولية. أشفق على نفسه، لأنه يتصرف بهذه الطريقة من البلاهة، فمن لديه القدرة على الهرب من ذلك المركز، لن يأتي إلى هنا بهذه الطريقة السطحية.

- جميل. - نادى عمر. ثم كرر بصوت أعلى - جميل.

- ماذا؟ ظهر الصبي أمام والده فجأة وهو لا يزال يحمل قلم التلوين الأحمر بيده.

- سذهب لاصطحاب زهرة.

أخرج عمر هاتفه، وقام بالاتصال على هاتف منزل سالي، وأخبرهم بأنه سيكون هناك بعد دقائق ليأخذ زهرة من منزلهم. أخبرته والدته سالي، بأن الفتاتين على وشك تناول طعام العشاء معا، ولا ضرر في أن تبقى حتى تنتهي من ذلك.

فكر عمر في الرفض، لكنه لا يريد إثارة شك هؤلاء الغرباء. أخبرها بأنه سينتظر قليلاً فقط قبل أن يأتي، فموعد نومها يقترب، ويجب أن تكون مستعدة لذلك.

قضت زهرة الوقت في منزل سالي، وهي تشعر بمتعة، جعلتها تنسى أن والدتها لن تكون في المنزل عندما تعود. كان منزل سالي أصغر من منزل جدها الذي تعيش فيه هي الآن، مبني على الطراز القديم ذاته، لكن المنزل من الداخل كان أجمل وينبض بالحياة أكثر من منزلهم. سالي هي الطفلة الوحيدة في تلك العائلة، ورغم أن الهدوء سائد في المنزل إلا أن حركة العاملين في المنزل، ووجود والدي سالي جعلاً منه مكاناً حياً.

لم تكن سالي في سن مناسب لأن تلهو بالدمى البلاستيكية، لكنها وجدت رفا مليئاً بها في حجرة سالي الكبيرة.

- معظمها كان هدية من جدتي قبل أن تموت.

- إنها رائعة. - لم يخرج صوت زهرة قويا بسبب ذهولها.

تم تخصيص نصف غرفة سالي الكبيرة للترفيه فقط، بينما إبتوى النصف الآخر على سرير كبير، ومقعد مقابلاً له. غرفة الثياب والخزانة لم تكونا ظاهرتين، ولم تتمكن زهرة من تخمين مكانهم.

- أصبحت أخاف اللهو بهذه الدمى، فهي تذكرني بجدتي حين كانت مريضة في أيامها الأخيرة. كنت حزينة جداً لذلك، وقضيت أياماً كثيرة أشعر بالحزن والخوف معا، عندما ماتت جدتي. لهذا السبب أهدتني شقيقة جدتي الأصغر بلورة كبيرة، أخبرتني أنها تعطي رؤى للأشخاص الذين نفقدهم.

- وهل نجح الأمر؟

سألتها زهرة بفضول وهي تفكر في حبيبة، لكن سالي لم تجب عليها، بل فتحت خزانة قصيرة خشبية وأخرجت منها بلورة شفافة في جوفها حجر يعطيها لون السماء، ومن ثم أخرجت قوائم خشبية متصلة تثبت الكرة الزجاجية الثقيلة. وضعتها على طاولة اللعب، ونادت زهرة لتجلس على الجانب الآخر.

- ألم تفقدي شقيقتك الأصغر؟ دعينا نجرب ونتأكد من هذا.

- لكن أنت، ألم ينجح هذا معك؟

- بلى مرة واحدة، كانت منذ وقت طويل. ظننت بأنه هذا خيال ولم يكن حقيقيا. دعينا نجرب هذا الآن. تعالي ضعي يديك على الكرة، وفكري في شخص تفتقدينه.

وضعت زهرة باطن كفيها على الكرة الباردة، وألقت عينيها لتستحضر صورة حبيبة في خيالها. لم ينجح الأمر ولم تجد في خيالها سوى ظلام وفي منتصفه صورة باهتة لحبيبة حين تكون في أكثر حالاتها هدوءا. أبعدت ذراعها عن الكرة بيأس صغير، فهي لم تتوقع النجاح منذ البداية. كادت أن تقول بأنها لم تر شيئا، لكن الواقع تلاشى وظهرت الرؤية في ذهنها كما لو أنها ذكرى قديمة باهتة.

رأت زهرة حبيبة تسير تحت سماء الصباح، وهي تحتضن يد أحدهم. كانت تسير بذات الخطوات القافزة التي كانت تقوم بها وهي سعيدة. أصبحت زهرة ترى من خلال عيني شقيقتها، وترى وجهها آخر مألوفا. إنه وجه والدتها لكنه أقل حزنا. بدت والدتها أكثر بهجة وهي تقبض على ذراع حبيبة، وتسير معها في مكان مليء بالمارة والواجهات الزجاجية الضخمة. مكان لا يشبه هذه البلدة، بل كان بعيداً مختلفاً محاطاً بوهج الشمس حتى تشبعت زواياه بالضوء.

- زهرة. - هزت سالي كتف زهرة لتعيدها إلى الواقع. - ماذا رأيت؟

- رأيتها يا سالي. إنها هي. - تدفقت دمعة لتعلق في محجر عيني
زهرة - رأيت حبيبة ووالدتي معها.

سألته سالي:

- لكن والدتك ليست ميتة. أليس كذلك؟

- لا هي مريضة فقط.

- كيف إذا تمكنت من رؤية شخص لم يموت؟

أجابت زهرة وهي ترفع كتفها معاً:

- لا أعلم.

- دعك من هذا. تقول شقيقة جدتي بأننا ننحدر من سلالة
ساحرات. لكنني لا أصدق هذا بعد الآن. هيا دعينا نتناول العشاء معاً
قبل أن يصل والدك.

على المائدة، تمكنت والدة سالي من إخفاء كل شكوكها حول زهرة
وعائلتها. تعاملت مع الفتاة بطريقة طبيعية جداً، بل إنها لم تلم ابنتها
على دعوة زهرة إلى هنا. جلست زهرة بجوار سالي على المائدة،
وعلى الجانب الآخر جلست الأم وحدها، بينما والد سالي لم يعد
موجوداً في المنزل.

سألت والدة سالي:

- كيف تسير الأحوال في المدرسة يا زهرة؟

- إنها تسير على ما يرام. نحن نحاول تقديم الأفضل دائماً.

أحبت والدة سالي، الطريقة التي حاولت من خلالها زهرة أن تسهب في الإجابة البسيطة، وهذا كان مؤشراً على أن الفتاة ذكية. تدخلت سالي لتقول:

- إن زهرة هي الفتاة الأذكي بيننا في الفصل.

رفعت الأم حاجبها لتظهر دهشة مزيفة، ومن ثم سألت:

- حقاً؟ - نظرت مباشرة إلى زهرة.

- إن سالي تبالغ في هذا. معظم فتيات الفصل ذكيات.

لم تخص زهرة بهذه الإطراء أي فتاة بعينها، كان بإمكانها أن تعترف بذكاء سالي، كل هذا سيبدو تودداً لوالدتها، وهي لن ترغب بأن تظهر بهذه الصورة.

- أنا سعيدة، لأن سالي ترافق فتاة ذكية مثلك.

- وأنا كذلك، سعيدة لأنكم طيبون معي.

- عليك أن تكرري زيارتك لنا في المرات القادمة.

لم تكن زهرة متأكدة ما إذا كانت هذه الدعوة حقيقية أم لا، لكنها قالت:

- سأكون مسرورة لذلك.

أعجبت والدة سالي بتهذيب زهرة، والذي بدا واضحاً من طريقتها في التعبير رغم أن ملامحها تظهر بعض الخجل الذي كان يعيق الفتاة عن الشعور بالراحة.

وصل عمر بينما كانت زهرة تتناول طعامها، فعرضت عليها والدة سالي أن تقوم هي بنفسها بطلب الانتظار منه. لكن زهرة رفضت، ونهضت من مكانها وهي تمسح يديها.

- سأغسل يدي، وأخرج إليه.

- أكملني وجبتك يا عزيزتي.

- لا بأس، لقد شبعت.

خرجت والدة سالي لتصحب زهرة إلى بوابة المنزل، ورافقتهم سالي لتودع صديقتها الجديدة.

- زوريني مرة أخرى في وقت لاحق. سنجرب تلك الكرة البلورية مرة أخرى، وهناك أشياء أخرى يمكننا أن نجربها. سأكون سعيدة إذا فعلت هذا.

- أشكرك يا سالي. لقد كان يوماً ممتعاً بحق. - قالت زهرة ذلك، وسارت نحو سيارة والدها.

8:15 مساءً / منزل أليكس، العاصمة.

خرجت أليكس لبعض الوقت، وحين عادت كان معها بعض الطعام الجاهز، لم تكن متأكدة مما تود آسيا وأيما أن يتناولنه، لكنها أحضرت الطعام بطريقة عشوائية من أحد المطاعم الآسيوية القريبة. تركت الطعام، وطلبت من ايما أن تساعدتها في إفراغ الأكياس، بينما بحثت آسيا عن بعض الأطباق في المطبخ.

- ألم يتعرف أحد في المستشفى على هوية ذلك الدخيل؟

- لا. - أجابت أليكس، واكتفت بتلك الإجابة القصيرة.

- لم تظهر الكاميرات كيف دخل إلى هناك حتى؟

دفع التوتر أليكس لأن تجيب بنبرة غاضبة وحازمة:

- بل إنني لم أتواصل مع المستشفى يا آسيا.

شعرت بالجوع ثلاثتهن، ولم تفكر أي منهن سوى في الطعام الموجود على طاولة القهوة القصيرة. بينما كانت أليكس تأكل، وقعت عينها على الدفتر الموضوع على الأريكة حيث كانت آسيا جالسة.

تساءلت ما إذا كانت قد بدأت بقراءة مذكراتها بالفعل أم لا، فسألتها عن ذلك دون تردد.

- لقد قرأت جزءا منها. إنها تبدأ مع حديث غريب. والدي كان مريضا. وفي المذكرات ذكرت أنا أنني كنت أزوره. اضطرابي كان واضحا، وشعوري بالخوف فيها أيضاً. لكن هناك حبيبة لم تكن ميتة بعد. بل إن والدي ليس ميتاً.

- لو أكملت القراءة قد تصلين إلى هذه الجزئية. علقـت أيمـا. فـحرـكت أليـكـس عيـنـها بـين ايمـا وأسيـا.

قالت أسيا بعد أن ابتلعت الطعام العالق في فمها:

- هذا ما سأفعله. الغريب في الدفـتر أن هناك يوميات قصيرة. لكن أول يوم كان مذكورا بإسهاب.

خمنت أليـكـس تفسـيراً لذلك:

- قد تكونين اندفعت في البداية، وكتبت تلك المذكرات باهتمام، ثم تلاشى هذا الدافع تدريجياً. بالمناسبة أريد منك أن تنسخي إحدى الصفحات في ورقة خالية. - ظهر التساؤل على وجه أسيا - افعلي ذلك الآن فقط، وسأخبرك بتفسير هذا لاحقاً.

أجلست أليـكـس أسيا على الكرسي الموجود عند طرف المائدة،

وتحت الضوء الوحيد الذي يضيء تلك الزاوية، وضعت ورقة خالية وقلمًا. عادت أليكس بعد ذلك بدفتر يوميات أسيا الأسود. وضعت أليكس الدفتر على الطاولة، وفتحت الصفحة الأولى، ثم طلبت من أسيا نسخه بطريقة تتطابق مع الكتابة الموجودة.

راقبت ايما من بعيد كيف كانت أليكس تتصرف مع أسيا، كما لو أنها طفل يلهو بالتلوين إلى حين وصول طعامه. لكن ايما لم ترم ذلك التعليق الساخر، حتى تحافظ على جدية الموقف. في الزاوية المعتمة والتي كان المصباح فيها يسلط ضوءه على المائدة، جلست أسيا وراحت تنسخ الصفحة المكتوبة، ثم سلمت الورقة والدفتر لأليكس بعد أن انتهت.

حملتها أليكس، ووضعتها على ماسح ضوئي في الطرف الآخر من شقتها. ضغطت بعض الأزرار التي أصدرت طنينًا سريعًا، ثم رفعت هاتفها، وطلبت رقم منصور.

في ذلك الوقت كان منصور يراقب فريق التحقيق وهو ينسحب عبر ممرات المستشفى، ويخرجون تبعاً لتعود السكينة تحط على المكان بأكمله. سمع رنين هاتفه، فأخرجه وراقب اسم أليكس قبل أن يجيب بشيء من التردد.

- أليكس. - قالها هامساً، ثم انسحب بعيداً باتجاه المختبر.

- منصور أرسلت لك صفحتين مختلفتين، لكن محتوَاهم واحد.

أريدك أن تطابق الخط إن أمكن.

- أليكس.. أليكس، أين أنتِ؟

- إنني في منزلي. هل سمعت ما قلته لك توأ؟

أخففت منصور صوته أكثر وهو يقول:

- إنهم يبحثون عنكِ؟

- من هم؟

- رجال الشرطة؟ أظهرت الكاميرات تعاونك مع المريضتين الهاربتان. سيأتون إلى شقتك.

ارتفع صوت أليكس فجأة وقالت:

- بدلاً من أن يبحثوا عن ذلك المجرم، هم يبحثون عني.

- كلاهما مطلوب الآن. - علق منصور.

- اسمعني قم بما طلبته منك، وسأجد حلاً لهذا الآن. سأتصل بك لاحقاً.

- لا يمكنني مطابقة الصور، أحتاج إلى الأوراق الأصلية.

تنهدت أليكس، لأنها فكرت بتلك السذاجة، لكنها تمسكت ببعض الأمل، وقالت:

- الماسح الضوئي لدي دقيق جداً. إن لم ينجح الأمر سأأتي لك بالأوراق الأصلية. سأجد طريقة للوصول إليك. لكن الآن أحتاج إلى مساعدك. سأتصل بك من هاتف آخر، حتى لا يجدني أحد. غداً، أرجوك يا منصور ليكن الجواب لديك غداً.

- حسناً، عليك أن تتوخي الحذر يا أليكس. هناك مجرم يطارد المريضة التي تساعدونها، والشرطة تبحث عنكم في الجانب الآخر.

أغلقت أليكس هاتفها، وعادت لتتلف باسم ايما وأسيا. لم يتوقع أي من الثلاثة الموجودين هنا، أن الرحلة لم تنته بعد. كانت أسيا تشعر بالتعب أكثر من الجميع، ولم يعد لديها الطاقة الكافية لأن تخرج من جديد. لكن كسل أسيا تلاشى حين رأت جدية أليكس.

- ستأتي الشرطة، لقد صورتنا كاميرات المركز، ونحن نرحل سوياً.

علقت أسيا بأسف:

- لم يكن علي أن أقحمك في هذا.

- لا بل أنا من أردت أن أصل للحقيقة معك يا أسيا.

أخرجت أليكس حقيبة صغيرة، ودست فيها كل الأوراق التي قد تحتاجها لاحقاً، وتحت الأوراق دست بعض المال الورقي والذي خمنت أن قدره سيكونها قبل أن تضطر للعودة إلى هنا مرة أخرى. حين خرجن ألحت ايما بسؤالها عن وجهتهم التالية، لكن أليكس لم تكن تملك أي إجابة.

- لا يمكننا أن نخرج، دون أن نعرف إلى أين سنتجه.

- كفى يا أيما. أنا حقاً لا أعلم إلى أين سنذهب.

قبضت أليكس على المقود بطريقة عصبية، فيما حركت أسيا عينيها للخلف لترى ايما التي تكورت على نفسها كالأطفال. أرسلت أسيا المواساة عبر نظرتها لأيما، لكن هذا لم ينجح.

لم تبتعد أليكس عن العاصمة، لكنها أصبحت بعيدة عن البرج الذي كانت شقتها تقع فيه. كلما قادت سيارتها، كانت تقترب من حدود المدينة أكثر، ولا تعرف إلى أين يجب أن تذهب. رفضت أن تطلب تدخل أسيا أو ايما فتشعر بأنها لا تقبض على زمام الأمور فعلاً. شعرت ايما بضياع أليكس، فقالت:

- في المناطق الصناعية، ستجدين بعض الفنادق الرخيصة، والتي يمكنها التغاضي عن طلب هوياتنا، إذا ما أعطيت الموظف بعض

البقشيش.

تأملت أليكس وجه ايما عبر المرآة مرة أخرى، وفكرت في السبب الذي يجعلها تعرف عن هذا. لكنها لم تطرح على ايما هذا السؤال الفضولي.

- يمكنني أن أرى الفضول في عينيك. أنا أعرف كل شبر في هذه المدينة.

- هذا أمر واضح. - أجابت أليكس بسخرية.

10 نوفمبر / 2018

في تلك الأيام، لم أكن أتصور بأنني حقاً أفرق طريقة إهداء المشاعر لعائلتي. لم أعتقد يوماً بأن أحد الأطفال الثلاثة سيشعر بالغيرة من الآخر. لكن جميل قالها لي لأول مرة:

- أنت لا تحبين سوى حبيبة.

أردت أن أشرح له بأن هذا غير صحيح. هذا ما ستقوله كل الأمهات في هذه اللحظة. ستنكر اختلاف ميزان العاطفة. لكن حبيبة كانت الأكبر حناناً بينهم، وهي أكثر من أحبني وتعلق بي من بين الأطفال، ورغم أنني أحبهم جميعاً بطريقة اعتقد بأنها متساوية، إلا أنني أشعر بالقلق على حبيبة دائماً. أردتها أن تكون معي في كل لحظة. لا أعلم كيف سيمضي الوقت، وأقبل برحيلها عني يوماً ما. أردت أن نبقى معاً حتى ينتهي الوقت. لكنني أشك في أنني أستطيع فعل هذا في أي يوم من الأيام.

لم أنفعل لغضب جميل من حبيبة التي وبخته بسببها، لأنها دفعها فأسقطها أرضاً. لو نظرت إلى بداية الأمر، لوجدت أن حبيبة هي من

تطفلت عليه. لكن مدى رؤيتي للأشياء كان سطحياً.

لم ينته ذلك المساء عند هذا الحدث الذي ومض عند اختلال ميزان مشاعري، بل أتى اتصال مباشر إلى هاتف شقتنا، وعندما رفعت السماعة أعلن المتصل بأنه من المستشفى، حيث يرقد والدي.

- والدك هرب يا سيدة أسيا.

- هرب، ولكن.. كيف؟ كيف حدث هذا؟

لم تكف المفاجأة الأولى عندما مرض والدي فجأة، ولا ارتباك أفكاره طوال الشهر الماضي، بل الآن ترك المستشفى وهرب. أردت أن ألوم هذا المتصل على كل الإهمال الذي بدر منهم، لكن لماذا قد أفعل هذا؟ لم يكن والدي يرقد في سجن، بل كان هذا مستشفى، ويمكن لأي شخص أن يدخل إلى ذلك المكان.

- سأحاول أن أجده بنفسى.

قضيت المساء أحاول الاتصال بكل من يعرفهم والدي، وأسألهم عنه، لكن أيا منهم لم يره أو يسمع عنه أي شيء منذ وقت طويل. كان المعنى المرتبط بالوقت الطويل، هو منذ وفاة والدتي.

ليس الموت هو ما يجعلنا، نبدأ من الجديد، فهو محطة أخيرة متصلة بعالمنا، إلى نقطة مجهولة يأخذك معها. لكن النهاية بعد ذاتها، هي ما تتيح فرصة البداية الجديدة. لا يقتصر الأمر على النهايات المتعلقة بالموت، وإنما النهايات بجميع أشكالها.

يمكنني أن أتذكر بوضوح كيف وقع الأمر كله علي، فهو لم يحدث إلا البارحة، وها نحن اليوم نعود من حيث بدأت حياتي. لم تتح لي النهاية بداية جديدة، بل بداية قديمة، كنت قد ابتعدت عنها ومضيت في حياة قريبة جداً من أحلامي المنطقية.

يقود عمر السيارة، ولا يبدو عليه بأنه يتأثر من موجهة الهواء التي تتسرب من النافذة المفتوحة، ولا من صوت ضجيجها. كان يقود بصمت ليظهر احترامه لحزني، ولا يفعل سوى أن يدخن من جديد كلما قطعنا مسافة كبيرة من الطريق، وأن يرمي إلي نظرات خاطفة يتفقدني فيها. حاولت أن أبدو متماسكة بقدر ما يجب، وأعتقد أنني في هدوئي هذا كنت جيدة. ولكن خلف جدار هذا الهدوء كانت الصور والأصوات تتقاذف في عقلي بطريقة عشوائية، ما زلت أستطيع أن أسمع رنين جرس هاتفني بوضوح، كما لو أن أحدهم يتصل بي الآن.

شعرت بوجود خطب ما، يخفي جدية النبأ الذي أتى علي من دون أن يسبب صدمة تلغي أفكاره كلها. ظننت بأن الأمر مزحة، ولكنه لم

يكن كذلك. أخبروني في الهاتف بأن والدي رحل. ببساطة ترك هذا العالم، وبهدوء دون أن يلقي إشارة وداع. بالنسبة إلي، أشعر بأن والدي الحقيقي، الموجود في ذكريات الطفولة، رحل منذ سنوات عديدة. لكن رحيل بهذه الجدية لم يكن في الحسبان أبداً. أخبرني الرجل الغريب على الهاتف، بأن الجيران وجدوا جثته في المنزل. كان الرجل الغريب هو شرطي يعمل في مركز الوادي الغربي.

- لقد انتحر في منزله. أقدم على هذا قبل ساعات. شك جاره في أن أحدهم في المنزل، وعندما ذهب ليتفقد المكان، وجده هناك.

ببساطة فسر لي الرجل السبب، وكأنه هو ما سينهي المعضلة، ويجعلني أشبع فضولي، الذي أثاره شيء غامض في رحيل والدي. أنا لا أقول بأنني أرفض رحيله، ولكنني لا أتقبلها حتى الآن. تحدثنا منذ أربعة أيام وبدا لي طبيعياً. ولا يمكنني أن أقول بأن هناك خطباً غامضاً وراء هذه كله، فهو في النهاية رحل بصورة طبيعية. كل ما أشعر به هو عدم الاستيعاب. أخبرني الرجل بأن هناك إجراءات أخيرة سأحتاج القيام بها قبل دفن والدي. وافقت بصوت لا معنى له، ولكن قبل أن يشرع الرجل بشرح ما يجب القيام به، أوليت زوجي الهاتف، وسرت بخطوات باردة بعيداً عن الهاتف لأجلس على أريكة منفردة ذات ذراعين عاليتين.

قام عمر بمد حرف الهاء بصوت منخفض، بينما هو قابض على السماعة. كان يتلقى التعليمات، ويصدر هذا الصوت دلالة على أنه لا يزال يولي تركيزه إلى الطرف الآخر. بعد ذلك شكر زوجي الرجل،

وأغلق الهاتف، وتركه بعيداً عني. سار عائداً إلي ثم أثنى قدميه بجوار الكرسي ليصبح في طول مواز لي. قبض على ذراعي الحرة، بينما الأخرى كانت تثبت جبهتي وتخفي عيناى. شد قبضته على ذراعى دون أن يقول شيئاً، وأنا أدرك بأنه يحاول استجماع كلماته الآن، ورغبت كثيراً لو أن أقول له أن لا يحاول، دون أن أضطر إلى الخوض في تفاصيل لا لزوم لها. أصبحت أنفاسى تصل إلى جوفى بصعوبة، ورحت أشهق ثم بكيت فجأة. لا يعرف عمر إن كان يجب عليه أن يحاول إسكاتى وكنم حزنى، أم أن يتركنى هكذا، ويشعر بأنه يتخلى عني، دون المحاولة للقيام بشيء يساعدنى.

- أنا آسف لرحيله.

قال عبارته فشعرت بأن رحيله أصبح مؤكداً أكثر. اشتدت رغبتى فى البكاء، وحاولت أن أكبح ذلك، ولكننى لم أقو. أنا آسفة لرحيله أيضاً، وأشعر بأننى خسرت هذه الجولة من التحدى، ولو أنه يبدو من السذاجة تشبيه الأمر بالتحدى.

- لم أكن بجواره.

- لا تقولى هذا. فعلت ما يمكنك فعله. لم يكن والدك بحال جيدة فى الآونة الأخيرة، ويبدو أن فى هذا خلاصاً له، وراحة أيضاً.

حجبت الدموع صورة عمر أمامى، ولكننى علقت عيناى باتجاهه وقلت:

- هذا ما يشعرني بالأسف. لم يكن بحال جيدة، ورغم ذلك لم أكن معه بينما كان يحتاج وجودي. أشعر بأنني تخليت عنه، والآن ها قد رحل دون أن أحاول إصلاح الأمر.

كان صوتي يرتجف ويتقطع ممزوجا بدخول قدر من الهواء إلى رئتي، مما يجعل نبرتي مع البكاء شبيهة بنبرة طفل يبكي. كنت أشهق في منتصف كل كلمة. بدأت الحقيقة تؤلمني من الداخل، أكثر من كونه تشعرني بالحزن. لن يغير هذا الحزن، والذي تحول إلى ندم، شيئاً. أنا فقدته، ومحاولة إصلاح الأمر لن تنجح الآن.

- لا تلقي باللوم على نفسك، إنك تقولين هذا بسبب حزنك على رحيله.

في بعض مراحل الرحيل، يكون الفعل أكبر من مواجهة مرحلة اللوم. لا تلقي اللوم على طرف معين، ولا نحسب أسباب الوصول إلى هذه المرحلة، لأننا نعيشها بصعوبتها، ولا يمكن دمج الندم مع التفسيرات. الحزن يلقي تركيزه على الحزن فقط، ولا نستكشف في هذه الرحلة، إلا نقاط الألم. بعد الوصول إلى منطقة اللا عودة، أن تستشعر وحشة هذه المنطقة، وتتعايش مع البؤس الموجود فيها، حتى تتفهم مرحلة إتمام الرحلة دون توقف، لا يمكنك في لحظة البداية، أن تتفهم الأسباب.

نقل والدي إلى المستشفى، ونحن الآن في منزله. مضى وقت طويل منذ آخر مرة تواجدت فيها هنا. هذا المكان أصبح غريباً عني مبتلعاً معه كل ذكريات الطفولة التي لا يميزها أي شيء.

- هذا هو أمين. إنه الرجل الذي وجد والدك. قال الشرطي معرفاً بالرجل الذي يقف خلفه عند بوابة منزل والدي الكبيرة.

ألقي عمر تحية سريعة على الرجل. كنا نقف تحت عتمة الليل في المكان البارد. لا جدوى من وجودنا في هذا المنزل الكئيب. ابتلع الليل كل الأضواء في هذه البلدة الصغيرة وترك الشعور بالارتياح في طرقاتها الواسعة، وكومة كبيرة من الخوف عند المرج الكبير المقابل لمنزل والدي.

تقدم أمين بينما تراجع الشرطي واختفى تماماً بعد ذلك. كان أمين يعيش على الجانب الآخر من الطريق، وكان لفترة جيدة صديقاً لوالدي، قبل أن ينطوي والدي على نفسه وينسحب عن العالم بسبب حزنه على رحيل أمي.

- لقد علق الحبل على درابزين السلم، وقفز من الطابق العلوي. هكذا وجدته معلقاً. رحيله أمر مؤسف بكل تأكيد.

بدا حزن أمين حقيقياً. لم يكن الرجل بعمر والدي، لكنه بدا مهتماً لأمره، ويعرف عنه ما لا أعرفه أنا. انسحبت من أمام الرجل دون

أي تعليق، دخلت إلى منزلنا القديم، تاركة عمر في الخارج، بصحبة الرجل الغريب. لم يتغير المنزل كثيراً منذ آخر زيارة لي. بدا لي كما هو لولا أن رائحة الغبار طغت بصورة أكبر، وهذا تفسيره هو عدم تواجد والدي لوقت طويل في المنزل.

ابتلع الظلام زوايا المنزل، ولم أعترض على القدر الضئيل من الرؤية المتاحة لي. صعدت إلى الطابق العلوي حيث ربط والدي الحبل في الدرابزين، وتمكنت من معرفة المكان الفعلي الذي قفز منه، لأن الدرابزين مربوط أصيب ببعض الصدوع عندما هبط والدي ليقتل نفسه. كان هذا قريباً من حجرته. دلفت إلى حجرته المفتوحة، وهناك وجدت ورقة بيضاء لم تكن مطوية، موضوعة تحت صندوق مجوهرات أمي، والذي غدا خاليا الآن. سحبت الورقة، وتعرفت على خط يد والدي، ولم يكن من الصعب أدراك أن هذه الكلمات هي آخر ما كتبه ليعلن رحيله. لكن من يحتاج إلى هذه الكلمات، فجئته المعلقة تؤكد انتحاره.

هذا الكابوس يشبه الواقع جداً، لكنه لا ينتهي.

أعجز عن الاستيقاظ والعودة،

ولا يمكن لأي أحد أن يصدق ما أقوله.

أنا الآن أفقد إيماني بكل شيء،

فلا شيء يبدو حقيقيا بعد الآن. لا يمكن الوثوق بأحد.

لم يعد أمامي سوى هذا الحل الأخير.

بهذه الكلمات القليلة، الغامضة، والتي كتبت بخط مرتجف جزع، أعلن والدي سأمه من الحياة، ورغبته في الرحيل عنها. لم يتراجع ولو للحظة واحدة عن القيام بذلك. رحل وترك كل شيء خلفه، بما في ذلك أنا. هل يعتقد بأنه سيجد والدتي هناك؟ هل هذه هي الطريقة التي يتجدد فيها لقاءه معها؟

كم بدا هذا مؤسفاً، ساذجاً، ومثيراً للشفقة. كتمت فمي بيدي، لكن صوت البكاء تسرب بطريقة أقوى مني. شعرت بقبضة تضيق على كتفي، فقفزت من مكاني واستدرت لأرى الظل العريض يحيط بي.

- هذا أنا لا تخافي.

- عمر. - همست وارتيمت بين ذراعيه لأفرغ ما تبقى من ذهولي.

سحب الورقة من يدي، وجرني معه إلى الخارج.. خارج المنزل بأكمله ليزيح عني الكابوس الذي تركه والدي عنا. سرنا سوياً إلى سيارتنا، ولم يتبق لنا في هذا المكان إلا القليل وبعدها يمكننا العودة إلى المنزل.

تلاشت كل تلك الذكريات وعدت من جديد إلى الواقع. كان الهواء المنبعث من النافذة، والذي يشكل لطمات باردة، قد توقف فجأة. فأدركت بأن النافذة أغلقت. التفت إلي المقعد الخلفي، فوجدت أبنائي الثلاثة جالسون في صمت. أثار هذا الهدوء شكلي، فعدلت جسدي لأتمكن من رؤية الجالس خلف مقعدي وهو طفلي الأصغر جميل ذو الأعوام الست، فوجدته غفا وهو في وضعية الجلوس التي كان يتخذها. لم يكن يتوقف عن الحركة، وإذا فعل ذلك فلن يكف عن الحديث. أما بجواره، فكانت حبيبة التي تكبر جميل بعام واحد تجلس في سكون تام، ولم تلاحظ عيناى التي كانت تراقبهم. أما ابنتي الكبرى والتي كانت تجلس خلف مقعد السائق فهي زهرة، ذات الأربعة عشر عاما. كانت يدها ممتدة على شفتها السفلية وجزء كبير من ذقنها، ورأسها يتمايل بالقرب من النافذة الزجاجية، حيث كانت تنظر، ويعود للخلف مع حركة السيارة.

لا يعرف الأطفال أبي بالقدر الكافي لتكون علاقة جد بأحفاده طبيعية، حتى إن عدد زيارتهم له، أو زيارته هو لهم كانت تحصى على أصابع اليد. لم يأت خبر رحيله بأي صدمة عليهم. بل إن حزني العميق والمفاجئ، هو ما أثر بهم بطريقة أكبر.

كنا نبتعد أكثر عن المعالم التي تدل على أننا أتينا من مدينة، كانت المباني الطويلة تتضاءل، والطرق تصبح أقل ازدحاما كلما ابتعدنا. وبعد قضاء وقت طويل في هذه السيارة، شعرت كما لو أننا لم نكن في المدينة يوماً. أصبحت الطرق بحاجة ببراح واسع وخال سوى من اللون الأخضر، وأحياناً مجرد رمال، وألح نائمة، كان جميل يظنها جبلاً صغيرة.

سقطت الشمس على الأرض برقة منذرة بنهار صاف. كان عمر يقود السيارة بسرعة ثابتة، وتنبأ بوقت وصولنا، وهو وقت كاف للوصول والاستعداد لدفن والدي. ضغطت على زر تشغيل مذياع السيارة وخفضت الصوت قبل حتى أن يصدر منه. كان الهدوء يتحول إلا هالة من الملل أحاطت كل من حولي، رغم أنه لم يكن يزعجني. تحرك رأس عمر ليلتفت إلي ويرسل نظرة تفقد جديدة.

- هل أنت بخير؟ - سألني.

- أنا بخير، شعرت بالملل فقط.

ترك المقبض للحظة قصيرة، قام خلالها بتبديل اليد التي تقبض عليه، وبيده القريبة مني قبض على ذراعي الباردة. كان يحتضن كف يدي بنعومة تتيح حيزاً تكون يدي فيه حرة رغم أن أصابعه تحيط بها. التفت لألقي نظرة أخرى على الأولاد في المقعد الخلفي. كانت هذه العائلة الصغيرة تشكل بالنسبة لي كل شيء. لم أكن قوية بما يكفي لأن أتخطى عقبات حياتي، ولكن الآن كل القوة التي يمكن أن

تنبع من أعماقي، سببها هو العائلة، وجودهم هو ما يجعلني أرغب في أن أتجاوز الضعف الذي يحيط بي أحياناً.

على الرغم من كون اسم هذه البلدة هو الوادي الغربي، إلا أن المنازل مشيدة على بقعة واسعة غير متساوية، تجعل بعضها منخفضاً متقارباً، والأخرى الكبيرة تقع فوق الجزء العلوي، وتفصل بينها مسافات كبيرة، تجعل كل منزل منعزل عن الآخر. ركنا السيارة في منزل والدي، وهو بنيان قديم، ولكن قوي له قاعدة تجعله مرتفعاً عن الأرض مسافة قصيرة، لذلك كانت شرفته الأمامية الواسعة متصلة بالأرض عبر بضع عتبات خشبية. تأكل خشب الشرفة الواسعة، ولكن ذلك لم يفسد منظر المنزل. يمكنني أن أرى دهشة الأطفال وهم يراقبون المنزل الواسع، والذي يتكون من طابقين، ونصف طابق يطل على الجزء الخلفي من المنزل. يستخدم والدي هذه العلية كمخزن للأشياء التي لم يعد يستخدمها.

تقدمنا أنا وعمر باتجاه المنزل، وتبعنا الأطفال الثلاثة بتردد. قضيت طفولتي في هذا المكان، والآن أقف أمامه وكأنني لم أكن أنتمي له أبداً، وهذا ما يجعلني أتفهم خوف الأطفال، الذين كانوا بالفعل لا ينتمون إلى هذا المنزل. صعدنا عتبات الشرفة القصيرة فظهر من جانب المنزل فوق الممر المتصل بالشرفة والمؤدي إلى الحديقة الخلفية، رجل يرتدي بدلة رسمية مع ربطة عنق باللونين الأبيض والأزرق.

- مرحباً.

رحب بنا وكأنه صاحب المكان، ولكن والدي كان يسكن هنا وحيداً.
أثار وجود هذا الغريب شكلي، ولكن سرعان ما تلاشى هذا الشك
عندما فسر سبب وجوده.

- أنا وسام، الذي خاطبتكما عبر الهاتف. أنا محامي والدك يا سيدة
أسياء.

شعرت بالحرَج بسبب البلاهة التي استقبله بها. تقدم عمر
وصافحه، ثم تقدمت أنا بدوري وفردت ذراعي ليصافحها. قفزت
حبيبة من بين زهرة، وجميل لتحشر نفسها بيني وبين والدها، وتفرد
ذراعها لسالم. أخفض الرجل جسده وصافحها. ثم قال:

- من المؤكد أنك حبيبة.

تبادلنا نظرات التعجب أنا وعمر. كانت تعابير حبيبة قد تلاشت
عندما أدركت بأن هذا الغريب يعرفها دون، أن تبادلته المعرفة هي
أيضاً، أو تراه سابقاً. عادت نظراتنا باتجاه وسام، الذي ألقى بتفسير
آخر:

- كان والدك يتحدث عن أحفاده كثيراً، حتى مرضه في الأيام
الأخيرة، لم يمنع طيفهم من زيارته.

اكتفيت بحركة بسيطة من رأسي. لم تكن تلك الكلمات تساعدني،

بالقدر الذي تتحول فيه إلى نار خفية تحرقني من دون أن يشعر أحد بذلك. لم أدرك وجود عمر قريباً مني، وقد تلاشت المسافة الصغيرة الفاصلة بيننا. أدرك المحامي ما تسببت به كلماته من حزن علي، فتدارك الأمر وطلب منا أن نمضي إلى المقبرة.

لم تكن المقبرة تعج بالعديد من الأشخاص. أحتشد حول مدفن والدي عدد قليل جداً من الأشخاص لم أكن أعرف منهم سوى رجل واحد، كان يقف عند نهاية الصف الذي يشمل قوساً حول المدفن. كان الرجل حليق الرأس كما عرفته دوماً يرتدي زياً أسود لا يبدو عليه الترتيب. كان ذلك الرجل جارنا وليد، وهو كثيراً ما ارتبطت صور ماضي والدي بوجوده فيها، فهو صديق والدي المقرب. حدثت به مطولاً ولم يلحظ هو ذلك، ولكنه استدار ليلقي إلي نظرة تحيه حزينة، وبعيدة. رفعت كفي لأحييه، فعقد حاجبيه ثم رفع ذراعه بحركة بطيئة ليلوح بها من بعيد. اختفت حرارة الشمس فجأة، وحل محلها نسيم خريفي محملاً ببعض البرودة بين دفعات الهواء الدافئ التي هبت فجأة.

لم يكن وجود شاهد القبر الذي يحمل والدي، أكثر من دليل يؤكد رحيل والدي إلى أبد، رحيل لا عودة منه، لا يشبه احتمال تصحيح الأخطاء الذي تركته حين مضيت بعيداً عن والدي. هذا تأكيد آخر، على أن وقت تصحيح الأخطاء قد انتهى. راقبت الشاهد، وكأنني أتأمل للحظة أخيرة خيالية، يكون كل هذا مجرد سراب سيزول الآن.

لكن شيئاً لم يتغير. دفن والدي في هذه المقبرة الصغيرة المخصصة لسكان هذه البلدة، وقبره يجاور قبر والدي. راقبت الشاهدان، وفكرت في أنهما الآن أخيراً يجتمعان بعد وقت لم يكن طويلاً إلا على والدي الذي أصابه فقدان والدتي بهذا السقم الذي عزله عن الحياة.

تقدم نبيل، الرجل حليق الرأس، وصافح عمر قبل أن يصافحني، ثم قال:

- نلتقي من جديد. وددت لو أن الظرف كان أفضل من هذا.

راقبته وأنا أفقد ترتيب الكلمات التي يجب أن أرد بها، لكن عمر باغتني برد أسرع:

- هذه هي الحياة، لا نختر الفرص التي نريدها دائماً. حاول أن يبدي حكمة في جملته إلا أنها بدت سطحية ومزيفة جداً.

حاول الرجل أن يبتسم دون أن يخفي حزنه كذلك، ثم قال:

- آسف لخسارتك يا أسيا.

زمت شفتي، وحركت رأسي بأسف. ثم راحت عيناي تراقبان المكان حولنا. رأيت حشد الأشخاص الواقفين حول القبر يتلاشى وجميعهم يبتعدون، دون أن يلتفتوا إلي، أو يبدي شخص آخر أسفه

لفقدان والدي. تأملت عيني طيف كل شخص يبتعد ثم يختفي.

- تغير سكان هذه البلدة، ولم يعودوا ذاتهم الذين تتذكرينهم في طفولتك، لم يتمسك بهذه البلدة سوى القليل من الأشخاص. أما الآخرون، فأغرتهم حياة المدينة على ما يبدو.

- وأنت لا تزال من حزب المتمسكين بهذه الأرض.

لاح طيف ابتسامة حقيقية على شفتيه، أخفت معها جزءاً من الكدر الموجود على جبينه.

- لم أعد أملك من الوقت ما يكفي لخوض تجارب جديدة، وتجربة الانتقال تتطلب طاقة تكفي لحياة جديدة.

هبط علينا صمت قصير، جعلني أستدير فجأة بحثاً عن أطفالى الثلاثة، فرأيتهم قد انتشروا بين شواهد القبور، ولكنهم لم يبتعدوا كثيراً. صحت في مكاني:

- زهرة، أحضري جميل وحبيرة إلى هنا. لا تبتعدوا عني.

- لن أعطلكم أكثر من هذا. قد نلتقي في وقت لاحق.

ابتعدنا تاركين شواهد القبور خلفنا، وعندما وصلنا إلى سور المقبرة، وأصبحنا قريبين من سيارتنا، استدرت لألقي نظرة مودعة

وبعيدة لوالدي. كنت جبانة إلى حد لم أتمكن معه من توديع والدي وأنا قريبة منه، خوفاً من أن يأتي صوته فجأة، ويكسر قواعد الطبيعة التي أعرفها. ودعته من بعيد لأتمكن من الهرب مكتفية بشعور الذنب الذي ينمو في داخلي. راقبت صف الشواهد البعيد، والذي أصبح تحت سطوح الشمس، مجرد صف أسود غير متساوي الطول كفك سفلي يظهر أسنان غير متساوية.

ظهر سالم فجأة ولا أعلم من أي اتجاه أتى. تجمدت في مكاني، بينما كانت قدمي اليسرى تقتحم السيارة. سحبت جسدي إلى الخارج من جديد، ورميت إليه نظرة متسائلة. قال لي:

- هناك ما يجب أن نتحدث بشأنه.

كدت أسأله عن الأمر الذي عليه أن يخوضه معنا، لكنني ابتلعت كلماتي، لأن عمر سأله قبلي. لم يظهر المحامي أي اهتمام تجاه عمر، بل وجه كلماته مباشرة إلي، وقال:

- لم يبق لوالدك أي شخص آخر. أنت ابنته الوحيدة، ولا أشقاء لديه. لذلك أعتقد بأن كل ما يملكه والدك الآن، سيؤول إليك يا أسيا.

لمعت عيني عمر ببريق غريب انبعث من أعرق بقعة داكنة فيها. راقبته وأنا لم أضع في الحسبان هذه الفكرة، وكنت متأكدة من أن عمر لم يفكر بها من قبل. شعرت بأن الشمس تسطع علي بقدر أكبر مما أستطيع تحمله رغم برودة الهواء. أشحت بوجهي بعيداً عن وجه

المحامي، ثم نظرت إليه مباشرة.

- ماذا؟ - سألت رغم أن ما قاله واضح وبسيط.

- كما أخبرتك، كل ما تركه والدك سيؤول إليك، بما في ذلك هذا المنزل.

سألته:

- هل هو من قرر هذا.

- في الواقع لا. هذا هو البروتوكول. لم يدرك والدك بأن نهايته قادمة. بل كان متمسكا بالحياة بطريقة غريبة، إلا أن اتخذ رد فعل معاكس وشديد تجاه فكرته. هذه هي النهاية، ولا يوجد أشخاص آخرون يشاركونك بكل ما تركه.

تردد صدى كلماته مرات عدة في ذهني. شعرت بأنني تهت فجأة، وأن كل ما فهمته نسيتَه الآن. راقبت المرج الخالي، وتجاوز نظري حدود المكان الذي أقف فيه، ووصلت إلى آخر نقطة يمكن رؤيتها، حين كانت الأرض تترقب الشمس لتهبط.

- في الواقع يا أسيا. لم يترك والدك مقدارا ضخما من المال، لكنه يكفي على الأقل لتصبح حياتكم أفضل. لن تضطروا لدفع إيجار السكن، والمال الذي سينتقل لحسابك سيكون كافيا لأن تضمنوا

حياة مناسبة لأطفالكم، ولكن ليست مترفة.

لا يعلم هذا المحامي كم كنا بحاجة إلى المال. عمل عمر لا يوفر المال الكافي، فالعائلة تكبر واحتياجاتها تزداد. بدت الفكرة كأنها هدية حلت من السماء. للحظة تناسيت أن سبب هذا التغير موت والدي. لم أتصور أن هذا المال والمنزل سيتحولان إلى لعنة تغير كل شيء.

مال هذا الرجل الميت، لم نكن نستحقه.

جلس عمر وحيداً في مطبخ منزله، وقد انزاح عن ذاكرته بأن جارته موجودة في المنزل. وضع الهاتف بشاشته المعتمدة على الطاولة الخشبية، وقد أصبح زجاج الشاشة بارداً الآن، بينما هو ينتظر أي اتصال يوضح له الطريقة التي جرت بها الأحداث. لم يفهم أي شيء، سوى أن زوجته قد اختفت من المستشفى. لم يجد عمر أي أثر لأسيا، بل إن البحث الفعلي لم يبدأ بعد.

اقتحمت رسيل المطبخ فجأة، وأعادت عمر إلى الواقع مع عبورها أمامه. تذكر في تلك اللحظة كم كان متعباً. شعر بأنه لا يقوى على النهوض من مكانه، وليس لديه القدرة على جذب أي أفكار لا تنتمي إلى أسيا في باله.

- هل تشعر بالجوع يا عمر؟

- لا، في الواقع ليس لدي رغبة في تناول الطعام. سأفعل ذلك عندما أشعر بالجوع.

هزت رسيل رأسها دون أن تعلق على شيء، لأنها تتفهم شعور عمر الحالي. لا تخفي معالم وجهه مدى خوفه، وعيناه تبوحان بمقدار

التعب الذي يشعر به.

- نام الطفلان، وأنا سأعود إلى منزلي وسأتي هنا غدا.

- لا أجد كلمة تكفي مدى امتناني لك يا رسيل. ليس عليك القيام بهذا. سأهتم بالأطفال وحدي.

اعترضت جارتها:

- ليس هناك ما أقوم به، وأنتم أصدقائي، لا تشكلون عبئاً علي. ما زلت أذكر كيف كانت أسيا طيبة.

"كيف كانت" انتمى هذا الوصف للماضي، وهذا التعبير كان من السهل أن يخرق روح عمر وأن يزيد الوجد فيها. لكنه تمالك نفسه، ولم يغير تعبيره الظاهر.

- إنها صديقتي، ولن أخذلها بينما هي مريضة.

- شكراً لك.

قال عمر ذلك، وسأيرها حتى باب المنزل، وتأكد من أنها قطعت المسافة حتى السياج، ثم أغلق الباب ليتركها تعبر الطريق وحدها وتصل إلى منزلها على الطرف الآخر. في تلك اللحظة تمكن عمر من الاستسلام لكل مشاعر الضعف التي يعرفها. لم تكن هذه خطته، لم

يخطط للوصول إلى هنا، لكن هذا ما حدث الآن.

صعدت إلى الطابق العلوي، وألقى نظرة سريعة على زهرة التي كانت مستسلمة للنوم. أغلق الباب واتجه إلى غرفة جميل، كان الآخر غارقاً في النوم أيضاً، لكن ما أن أغلق والده الباب حتى استفاق من غفوته القصيرة.

رحل عمر عائدة إلى غرفته، لكن جميل الذي استيقظ كان يتبادر إلى أذنه صوت ما. موسيقى بعيدة مصدرها هو مشغل الموسيقى الذي يملكه جده. تلك كانت مجرد أوهام هذا ما كرره الطفل لنفسه، حتى يزيح ذلك الصوت عنه ويحاول أن يعاود النوم من جديد.

دس عمر جسده في فراشه دون أن يعي أن جميل كان مستيقظاً. حاول أن لا يفكر في أي شيء آخر، لأن فكرة النوم والاستيقاظ على بداية أخرى، بدت له مغرية. سيجدها في الغد، لا بد أن يعثروا على أسيا غداً.

19 سبتمبر / 2019

00:17 صباحاً / العاصمة

تختلف مفاهيم القوة، من شخص لآخر، وأحياناً يختلف معناها حسب الموقف الذي يتطلب استخدامها فيه. بعض الأشخاص يعتقدون أن القوة هي قدرتك على إيذاء الآخرين، وهناك من يعتقد أنها محاولة خوض حرب دون النظر إلى النتيجة. وهناك من يعتقد أن قوته هي قدرته على تفادي الخطر والخروج من التجربة بأقل الخسائر. أحياناً تكون القوة هي القدرة على مجابهة الأمور بطريقة تختلف عن التحدي المفهوم. أن تتقبل الأمور بالهدوء الذي لا يجعلك تخوض موجة التغييرات التي تحدث عندما تتطلب المواقف أن تري العالم ما هو مدى قوتك. هذه القدرة لا تكون دائماً متاحة، فأحياناً يجد الضعف ثغرة يدخل منها إليك، ولا تعود موجة الصراع قادرة على حملك معها، حينها لن يكون وقوعك آمناً، لأنك لن تعرف مدى عمق الماء الذي ستمر بك هذه الموجة إليه.

تمكنت أليكس من توفير غرفة واحدة لا تكاد تكفي للثلاثي الذي يسكن بها. استسلمن للنوم جميعاً في آن واحد، ولم تتذمر أي منهن

لأن المكان كان رديئاً. الحسنة الوحيدة في هذا الفندق هو الهدوء التام الذي ساعدهن على الاسترخاء قليلاً.

جعل هذا الهدوء ايما تشك في أنهن وحيدات هنا، ولا يوجد أي مستأجر غيرهن، لكنها كانت تسمع صوت الأبواب تفتح من حين لآخر، وفي المساء أصبحت هذه الحركة شحيحة. كانت تفتح عينيها فتري أسيا مستسلمة لنوم عميق، وعلى الأريكة كانت أليكس تنام وحدها وحاجباها معقودان كأنها تفكر في أمر ما أثناء نوما.

حجبت الستائر زجاج النافذة، لكنها لم تمنع الضوء العابر من المرور أسفل الزجاج المرتفع. كانت غرفتهن تقع في الطابق الأول، لكنها تلتقط أضواء السيارات البعيدة. فكرت ايما في والدتها الآن، وكيف كان الخبر سيصل إليها، لكنها لن تقلقهم كثيراً، ستحاول أن توصل رسالتها إليهم، وتخبرهم بأنها بخير. كل ما كانت بحاجة إليه هو مغامرة أخرى تعيد لها الشغف المتعلق بالحياة، فركود حياتها كان مملاً بطريقة لن يفهمها أحد أو يصدقها.

علق الضوء فترة قصيرة أسفل النافذة، لكنه لم ينزلق بعيداً عنها كباقي أضواء السيارات التي مرت أمامهم، بل انطفأ فجأة، مما يعني أن هذه المركبة قصدت الفندق. أزاحت ايما اللحاف بعيداً عنها، وتحركت باتجاه النافذة. أزاحت الستار وراقبت مركبة الأوستن مارتن الواقفة أمام مدخل الفندق. رأت الرجل الأشقر وهو يترجل منها بثقة ويتجه إلى المدخل بخطوات سريعة.

استدارت ايما فجأة، واقتربت من أسيا ثم نادت بصوت يكفي لأن يوقظها دون أن يثير أي إزعاج في المكان.

- أسيا.. هيا استيقظي. أليكس، إنه هنا.

فتحت أليكس عينيها بصعوبة، لكنها لم تفهم ما الذي يجري.

- إنه هنا يا أليكس. أسيا.. أسيا.

سمعن وقع أقدام تسير في الممر وتصبح أوضح مع كل خطوة، إلى أن أصبحت تلك الخطوات قريبة من الباب. انزلقت أليكس خلف الباب، بينما ايما زحفت أسفل السرير الذي كانت أسيا تنام عليه.

رأت ايما شكل الأقدام التي دفعت الباب وتقدمت نحو السرير، بينما أليكس رأت جزءا من ظهره، ورأسه المغطى بشعر أشقر مسرح بطريقة مميزة. تفاجأت أسيا بوجود الرجل الغريب وقبل أن تصرخ حذرها:

- لن أتردد في قتلك إن صرخت. سأطرح عليك بعض الأسئلة.

راقبت أسيا المكان المحيط فيها، ولوهلة نسيت أنها تنام في هذا الفندق الرديء، لكن قطع الأثاث البالية ذكرتها بالأحداث الماضية.

- أين هي صديقتك؟ - سألها.

لم تتلفت أسيا حولها، حتى لا تثير شكله. استوعبت أن الحجرة خالية، وأن أليكس وايما ليستا هنا. إنه لا يعلم بأنهن ثلاثة أشخاص حتى الآن.

- عادت إلى منزلها.

- هل أنت وحدك هنا؟ - سألتها.

تلعثمت أسيا قبل أن تجيب:

- نعم.. إنني..

- من الذي أرسلك إلى هنا؟ ما الذي أتيت لتكتشفه هنا.

- أنا؟ ما الذي سأكتشفه في هذا المكان. لا شيء.. أعني.. أنا لا أعرف من تكون ولماذا أنت هنا حتى. لماذا تلاحقني؟

حاولت أسيا أن تعتدل في فراشها لكنه صوب المسدس بطريقة أكرجراً فتجمد جسدها، ولم يقو على الحراك أكثر.

- أنا من يطرح الأسئلة، أيتها الدخيلة. لماذا أنت هنا؟

- لأنني هربت من المركز.

- لا تتغابي علي. - قالها أوسكار بصرامة أكثر - ما الذي تفعلينه هنا؟ خطة من التي بعثتك إلى حياتي.. عالمي؟ هل هناك من ينوي تدمير هذا التوازن؟

تحلت أسيا ببعض الشجاعة لتقول:

- وما شأني أنا بعالمك.

شد الرجل قبضته على السلاح، فشعرت أليكس أن هذا الوقت غير مناسب للتدخل، فهو غاضب، لن يتردد في أن يطلق النار على أسيا لو شعر بالخطر. تريثت وتمنت لو أن أسيا تحاول أن تسايره أكثر. لمحت أسيا الشعار المطبوع على صدغ الرجل، رغم أن الظلام يلف المكان، إلا أن الضوء الفضي المنبعث من النافذة كان يسقط على ذراعه تحديداً فيجعل طرف المسدس يلمع في الظلام.

- كم عددكم؟ كم دخيل آخر أتى معك؟

- لا أعرف ما الذي..

لم تكمل أسيا جملتها، لأن ايما مدت ذراعيها بطريقة مفاجئة، وقوية، وشدت قدمي أوسكار فسقط على ظهره، وأفلت مسدسه طلاقة في سقف الغرفة. انتهزت أليكس الفرصة، وجرت المصباح الموضوع على الطاولة المجاورة للسرين، فانقطع سلكه، وأصبح

تحريكها أسهل. هوت بها على رأس أوسكار قبل أن يحتمي منها. سقط لكنه كانت ترى جزءا من القوة لا يزال موجودا فيه. لم يستسلم لكن الدوار يسيطر عليه لأن هذه المفاجأة لم تكن في الحسبان.

زحفت ايما إلى الجانب الآخر من السرير، وخرجت بمساعدة أسيا. حملت أليكس الحقيبة، وركضت عبر الرواق قبلهن. خرجت وترك أوسكار يناضل للنهوض رغم إصابته التي تسببت له بالصداع المؤقت.

خرج أوسكار خلفهم في الممر وصاح وهو يلوح بسلاحه:

- لن تفلتي مني. كل أفراد الطائفة يبحثون عنك أيتها الدخيلة على العالم.

تجاهلت أسيا كلماته المتوعدة، وحاولت أن تترك مسافة كبيرة تفصل بينها وبينه. ترنح أوسكار لكنه حاول أن يتماسك أكثر وأن يتبعهن هذا تنتهي هذه المهمة. أي حظ يتبع هذه المرأة؟ يجب أن تكون مهمته أسهل من تفلت منه بهذه الطريقة.

طلبت أيما من أليكس التي كانت تقود المركبة، أن تتجه غرباً، دون أن تعطيها المزيد من التفاصيل حول هذا الطلب. حتى الآن، لم تكن

أي منهن تعرف مصدر الطاقة التي تجعلهن قادرات على الاستمرار بهذا الشكل. قطعن بالمركبة شوطاً طويلاً مبتعدات عن مركز المدينة. لم يظهر أوسكار خلفهن حتى الآن.

- دفتر يومياتي. قفزت أسيا في مكانها بعد أن تذكرته فجأة.

- مفاجأة. - صرخت ايما وأظهرت الدفتر أمام أسيا. - حملته معي بينما كنت أعبّر الغرفة.

بدت أليكس متعبة وهي تقود السيارة فعرضت عليها ايما أن تقود هي بدلاً منها، لكن أليكس رفضت بحركة من رأسها، ولم تقل أي شيء.

- هل فهمتن أي شيء مما قاله ذلك الرجل؟ - سألت أسيا.

بحثت ايما عن تفسير مناسب، ثم قالت:

- أعتقد بأنه يعرفك، لكنه تلاشى مع الجزء المفقود في ذكرك.

- بل على العكس، أظن بأننا نلتقي للمرة الأولى. إنه لا يعرفني، بل بدا مبعوثاً من جهة أخرى غامضة. ما قاله عن.. الطائفة، ومن سيتبعون بي، تلك الأشياء لم أفهمها. كان هناك شعار مطبوع على رسغه، ولا يبدو بأنه وشم اختاره لنفسه، بل يبدو كشعار مسجل.

تدخلت أليكس أخيراً:

- هل يمكنك أن ترسميه؟ بحثت أليكس عن قلم في الجيب الجانبي للباب، ووجدت قلم حبر أزرق من دون غطاء علوي.

سحبت أسيا القلم الأزرق، وقامت برسم الشعار بطريقة غير دقيقة فحركة السيارة كانت تعيقها، وهي لا تتذكر كل التفاصيل. مزقت الورقة الأخيرة، وأعطتها لأليكس التي قربتها من الزجاج لترى الشعار بوضوح أكثر.

- لم يسبق لي أن رأيت شيئاً كهذا من قبل.

توقفت أليكس على جانب الطريق، وأخرجت هاتفها الذكي وقامت بتصوير الورقة، فومض ضوء الهاتف أمام الورقة. قامت باختيار الجهة التي سترسل إليها الشعار، ثم حددت ذات الجهة للاتصال.

- بمن تتصلين؟ - سألتها أسيا بجدية.

- شقيقتي فيرا، إنها أستاذة في قسم التاريخ، والرموز جزء من اختصاصها أيضاً.

سمعت أسيا صوت المرأة يتسرب من السماعة ويجيب بجزع:

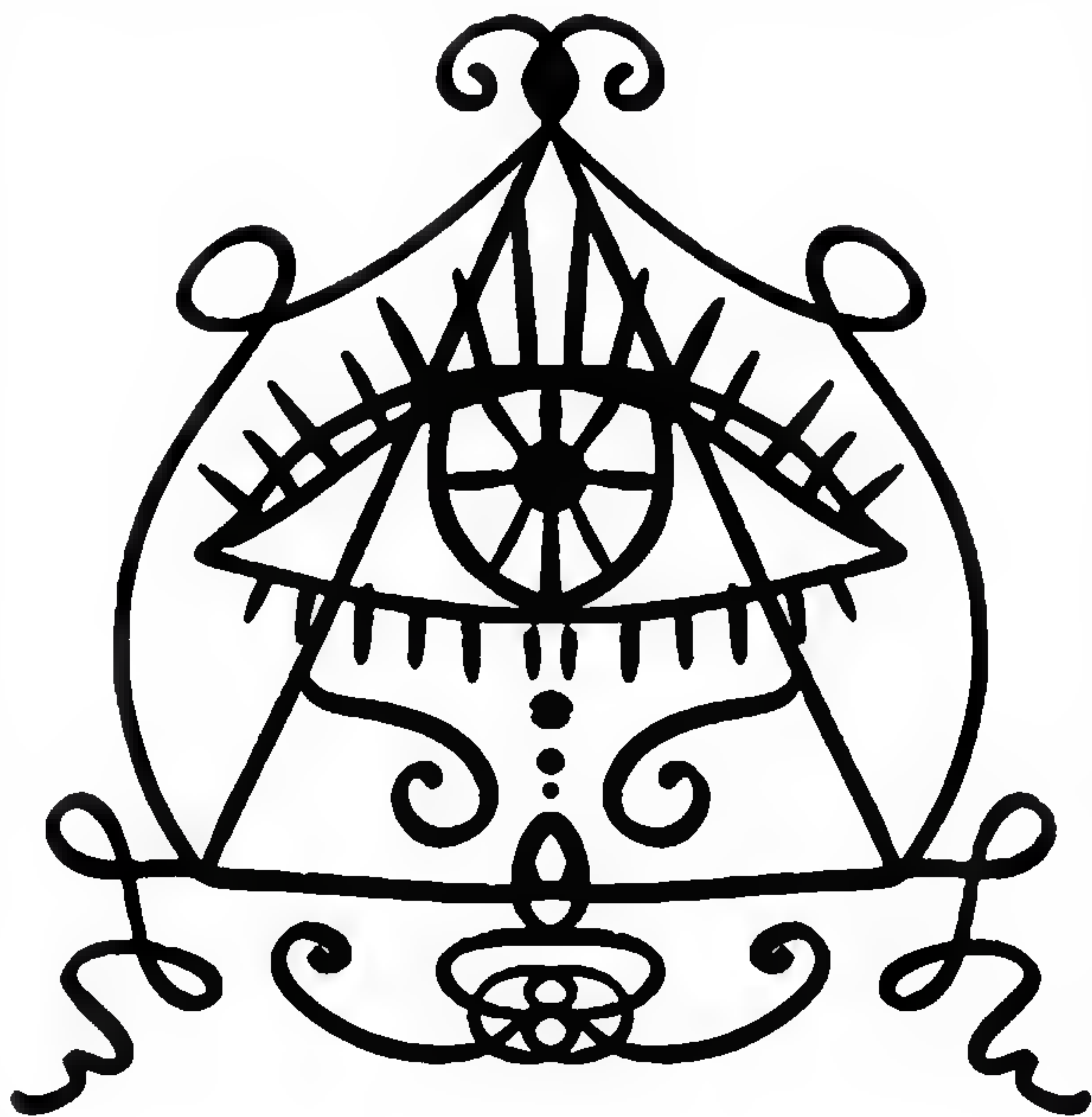
- أليكس، أين أنت؟ الجميع يبحثون عنك.

- أعلم.. أعلم. عليك أن تثقي بي أنا. لم أفعل شيء. لقد أرسلت لكي صور تقريبية لشعار ما. أريد منك أن تبحثي عنه، وسأصل بك من خلال هاتف عمومي لاحقاً لأحصل على الجواب. اتفقنا؟

قاطعتها فيرا:

- لكن أليكس..

أنهت أليكس المكالمة بطريقة أقسى من جلالتها المعتادة. أبعدت الهاتف عن أذنها ونظرت من جديد إلى الشعار وتخيلت ما كان سيبدو عليه لو أن أسيا رسمته بدقة أكبر. أغلقت الهاتف، ورمته من النافذة، ثم انطلقت من جديد.



- هل أنت متأكدة من الوجهة يا أيما. - سألت أليكس.

تحركت ايما في المقعد الخلفي، وألصقت وجهها في زجاج النافذة. لم تجب على السؤال، بل تأملت منازل الضاحية الكبيرة، والتي لا تشبه بطريقة تشييدها العصرية أي منازل أخرى في البلاد. راقبت عينا ايما كل الأضواء اللامعة على المداخل الكبيرة للمنازل، والبوابات الحديدية التي تمنع الغرباء عن الاقتراب من ملكياتهم.

- لا يمكن أن أخطئ عنوان منزلي يا أليكس.

التفتت اليكس ونظرت إليها، ثم قلقتها أسيا. ابتسمت بلامبالاة، ثم رفعت كتفا واحدا مما جعل الغضب يشتعل في قلب أليكس.

- لا تقلقن. سنترك السيارة في مكان بعيد، لن يلاحظ أحد وجودها، وسأقوم بإدخالكن إلى المنزل بهدوء. لن تعرف عائلتي حتى بأننا هنا. لن نجدنا أحد هنا، بل إنهم لن يشكوا بوجودي قريبة منهن. يمكننا أن نمكث في منزل الضيوف لبعض الوقت. إنه ملحق صغير، لكنه يفي بالغرض. لن نثير انتباه أحد.

التفت عيني أليكس، بعيني آسيا. رأت الطبيبة الخضوع في عيني الأخرى، وكان سبب هذا هو التعب وعدم توفر الحلول الأخرى. تلاشى رفض أليكس، وبدأت لها أن الفكرة مقنعة. طلبت منها ايما أن تترك السيارة عند مجمع خدمات يبعد شارعين عن منزل ايما. فعلت أليكس ذلك، وتركن السيارة ليتبعن ايما قاطعين بعض الأزقة التي تجنبهن عبور الطرقات المكشوفة، وصولاً إلى سور منزلها.

لم تتخيل آسيا أن ايما التي تتصرف ببلاهة معظم الوقت، قد أتت من هذا المنزل. إنه كبير، لكنه لا يشبه منزل والدها أبداً. بدا المنزل كأنه قطعة هبطت من روايات الرعب القوطي. جدران الحجرية المتعرجة والقمم المدببة، والأشجار الكبيرة التي كانت تحيط به لتخفي معالمه الحادة عند بعض الزوايا.

- إن هذا قصر. - خرجت الكلمات من فم آسيا، لا إرادياً، جعلها هذا المنظر مشدوهة للحظات.

- لن ترغب في العيش هنا صدقيني. لكل مكان ذكرياته وماضيه. حتى الأجزاء الجميلة تنحدر من قصص أكبر قد لا يجد العالم مساحة كافية لتفسيرها.

ذاب جمود أليكس، وعلقت بسخرية:

- أكاد أنسى أنك ايما. هيا دلينا على المدخل.

- الجدار عند الطرف الآخر، زاويته منهارة يمكننا العبور من خلالها إن الأغصان تغطي ذلك المدخل. لكننا لو وجدناه سنستطيع الدخول والعبور إلى منزل الضيوف الصغير.

تحركن بمحاذاة السياج الحجري، تحت أظلال الأغصان الكبيرة والتي تكاد أن تلامس رؤوسهن. دفعت ايما الأغصان العارية عن الجدار بقوة حتى كشفت عن الفجوة في الجدار. أشارت لأليكس حتى تسبقها، ثم حركت يدها أمام وجه أسيا. كانت ايما آخر من عبر بينهم.

- أليس هذا جزءا من رواية الحديقة السرية؟

طرحت أليكس هذا السؤال، لكن لهجتها لم تبدِ أي سخرية. ابتسمت أسيا، لأنها لم تعتد على رؤية أليكس تتحدث بهذه الطريقة. لم يمض وقت طويل على انطلاقهن معاً، لكن أسيا تشعر بأنها تعرف أليكس وايما منذ وقت طويل.

قادتهم ايما إلى منزل صغير يشبه الكوخ، يقع عند السياج على الطرف الآخر من الحديقة. تحركن بحذر، لأن ظلال الأشجار لم تساعدن على التخفي. رفعت ايما النافذة الزجاجية ذات الإطار الخشبي، ودفعت جسدها إلى الداخل. نهضت وساعدت أليكس على العبور، ثم ساعدن أسيا على القفز برفق لأنها حامل.

6:30 صباحا / الوادي الغربي

لم تكن الزيارة في تلك الساعة أمراً متوقعا. لكن عمر ترقب الإجابة على سؤاله، وهو يسير باتجاه باب المنزل ليستقبل الزائر. فتح الباب متجاوزاً إزعاج أطفاله وهم يستعدون للذهاب إلى المدرسة. وجد أمامه رجلا أطول قامته منه، يقف على الشرفة باستعداد تام للقاء عمر.

- كنت قلقاً من أن تفوتني فرصة اللقاء، لذلك قررت أن أتي إلى هنا موعد انطلاقك للعمل.

أقحم المحقق سليم نفسه بين عمر، وبين طرف الباب ودخل المنزل. لم يتفقد المنزل، بل جلس فوراً في غرفة استقبال الضيوف، مترقباً عمر الذي دفع الباب ليغلقه، ثم نظر إلى ساعة معصمه رغم أنه يعرف كم كانت الآن.

- اعذرني على فظاظتي يا سيدي. لقد أتيت لأسألك عن أسيا.

- لا بأس، يمكنك أن تسألني. لكن ليس لدي متسع كبير من الوقت، يجب أن يذهب الأطفال للمدرسة.

ظهرت زهرة في طرف الغرفة، لكنها تراجعت عندما رأت الرجل الغريب يجلس أمام والدها. أشار لها والدها برأسه فاخفتت وهي

مطمئنة بسبب تلك الحركة التي أرسلها والده.

- يفقدون صبرهن بسبب الظروف التي تحيط بنا.

- وأنت؟ هل تفقد صبرك؟ سأله المحقق.

فكر عمر بالإجابة المناسبة، ثم قال:

- أحياناً أشعر بأنني كذلك. لكنني أفعل ما بوسعي لمساعدة عائلتي.

- لكنك لا تعرف أين هي آسيا الآن؟

- لا. لو كنت أعرف لأعدتها. إنها مريضة.

- هل هي كذلك حقاً.

بدأ عمر يفقد صبره، لكنه أجاب بتريث:

- هذا واضح جداً.

- ورغم ذلك تمكنت من الهرب.

استرخى الشرطي في مقعده، ونظر مباشرة إلى عمر، وأرسل

نظرتة بطريقة مرعبة إلى عيني عمر. ولد هذا الفعل بعض الارتباك لدى عمر. لم تكن هذه الزيارة في الحسبان، ولا يعلم ما الغاية من القيام بهذه. أسيا ليست متهمة ليتحول الأمر إلى ما هو عليه. إنها مريضة والحل هو إعادتها إلى المركز.

- هذا بسبب إهمال المركز.

- ألا يبدو هذا الإصرار غريباً؟ لم تستسلم لفكرة أنها مريضة. ما الذي يدفعها للمحاربة بهذا الشكل؟

أشاح عمر ببصره عن المحقق. لم يخبره أحد حتى الآن عن الهجوم الذي شنه الغريب على المستشفى. نهض المحقق من مكانه، وتحرك باتجاه الباب، لقد كانت زيارته أقصر مما اعتقد عمر. لكن سليم استدار فجأة، وقال لعمر:

- إن كان هناك ما سيساعدنا، فأنا أرجوا أن تدلي به. إن كنت تعرف أي شيء يمكنه اختصار المسألة، فهذا سيكون في صالحك أنت قبلنا نحن.

- ما هو الأمر الخطير لهذه الدرجة؟

جر المحقق الباب ومضى إلى الخارج، وتبعه عمر ليثبت الباب حتى لا يغلق. نظر المحقق من جديد إلى عمر، وقال له أخيراً:

- قد يكون الجواب لديها هي.

10:00 صباحا / العاصمة

لم تفهم فيرا ما الذي يشكله هذا الرمز الذي يحتل الصورة التي أرسلتها لها، أليكس. لكنها كانت موجودة في مكتبة الجامعة قبل موعد محاضرتها الأولى لاكتشاف ذلك. المراجع التي تشرح الرموز كانت كثيرة جداً والبحث من خلالها كان سيستغرق أياماً عديدة، لكن لحسن الحظ كانت الحواسيب قادرة على اختصار هذا المجهود كله.

قامت فيرا بإرسال الرمز من هاتفها إلى الحاسوب عبر إعادة إرسال بريد الكتروني لنفسها، ظهرت الورقة على شاشة الحاسوب، ومن خلال محرك البحث عبر الصور قامت فيرا بالبحث عن صور مطابقة لهذا الرمز. استغرق البحث ثوانٍ قليلة، وكانت النتائج مخيبة للآمال. ظهرت صور لأياد موشومة، تحمل علامات مختلفة عن الرمز، لكنها تبدو على نمط مشابه للفكرة. بحثت أكثر عبر المقالات الموجودة، ولم تجد أي شيء ذي نفع.

بدا لها أن العناوين الحقيقية كانت محجوبة تحت عناوين صفحات أخرى بعيدة كل البعد عن هذا الرمز. وغالباً لا تظهر محركات البحث نتائج بعيدة هذا البعد، إلا ما إذا تم تشفير العناوين الأصلية.

لدى فيرا الصلاحية لاستخدام صلاحيتها كمعلمة والبحث في الصفحات المشفرة. كررت عملية البحث مع صلاحية فك تشفير الشبكة المتاحة عبر المستخدم الخاص بها، فظهرت الصفحات الحقيقية، وللأسف لم تكن كثيرة.

الطائفة "حراس الأرض"

شعرت ببعض الرعب عندما رأت العنوان مصحوبا بصورة للرمز ذاته وتجاوره رموز أخرى غريبة. قرأت كلمة طائفة في ذاتها مرات عديدة، وهي لا تفهم ما الذي يعنيه وجود طائفة هنا. لماذا قد ترتبط أليكس بوجود شيء كهذا؟ ما زاد الرعب هو أن هذه الطائفة محمية، ولا يوجد أي دليل فعلي على وجودها.

أين اختفت الطائفة؟

مرت عيني فيرا على هذا العنوان، لكنها لم تضغط على الصفحة الأساسية لتبحث عنه، بل كل ما قامت به هو طباعة المقالات البارزة، ووضع الأوراق في ملف محاضراتها. أغلقت الملف، وأعدت تشفير الصفحات قبل أن تسجل خروجها، وتترك المكتبة لأن موعد محاضرتها قد حان.

عادت فيرا إلى مكتبها الواقع في الطابق الثاني في مبنى دراسة

التاريخ في الجامعة الحكومية الوحيدة في العاصمة. دست هاتفها في حقيبتها الموجودة أسفل سطح المكتب، ومن ثم جرت سير الحقيبة وثبتته على كتفها. أطفأت مصابيح المكتب، وأغلقت الباب خلفها لتواجه الممر الطويل الذي ارتمت على جانبيه مكاتب الأساتذة الآخرين.

فكرت في عائلتها وهي تخرج من الحرم الجامعي إلى مبنى ركن السيارات الصغير، لكنها قبل أن تصل إلى هناك قطعت طريقها امرأة ترتدي زيا رسميا مكونا من قطعتين، سروال رسمي طويل وواسع، وقميص أبيض ضيق دست أطرافه تحت طرف السروال. جمعت المرأة شعرها ل يبدو كالكرة فوق رأسها.

- فيرا مونتجومري؟

راقبت فيرا وجه المرأة الذي لا يوجد فيه أي معلم مميز سوى أن بشرة المرأة كانت شديدة الصفاء. حركت المرأة رأسها أمام فيرا منتظرة إجابة، فأكدت فيرا بأنها هي المقصود.

- أنا فريدة، من مكتب التحقيقات.

بدرت دهشة من فيرا، قبل أن تحاول أن تبدو طبيعية أمام المرأة. طلبت منها المرأة أن يجلسوا في أي مكان قريب، ولم يكن بإمكان فيرا العودة والجلوس مع المحققة في حرم الجامعة، لذلك عرضت عليها أن تجلسا في المقهى المقابل للحرم الجامعي.

- أنت تعلمين بأن شقيقتك ساعدت في تهريب مريضتين؟

قالت افروديت ذلك، وجريت كوب القهوة الذي تعتلي الرغبة قمته، ثم رفعتة لترتشف منه، بينما عيناها لا تزالان تراقبان فيرا. كان من السهل كشف نبرة الكذب في صوت فيرا، لذلك حاولت أن تفكر كثيراً قبل أن تختار الإجابة المناسبة.

- لقد سمعت من رجال الشرطة شيئاً كهذا، لكنني لا أعرف التفاصيل بشكل دقيق.

- ألا يمكنك تخمين المكان الذي ذهبت إليه؟

أحاطت فيرها كوبها بكلتا يديها، وقالت بهدوء مبالغ فيه:

- لا، لا أعرف. أخبرتها فيرا الحقيقة، لكنها بدت مزيفة.

ثبتت المحققة كوبها على الطاولة، ثم رفعت عينيها بطريقة جدية وسألت:

- ألم تحاول التواصل معكِ؟

- لا. أجابت فيرا فوراً

ظهرت الخيبة على وجه المحققة، وأدركت فيرا أنهم كشفوا كذبتها. دام صمت قصير بينهم. رفعت افروديت رأسها ونظرت عبر الزجاج المطل على الشارع، ورأت قمة المبنى الجماعي تقتحم صفحة السماء الصافية.

- أنت وشقيقتك تملكون حياة ناجحة، ومن السيئ أن تدعي الأخطاء التي لا تفسير لها، أن تحطم كل ما تطمحون إليه. كل الأفعال متبوعة بسبب، وكل ما أريد معرفته هو سبب واحد لما قامت به أليكس، لعلنا نستطيع مساعدتها.

تحلت فيرا بالشجاعة، وباحت بالحقيقة:

- لكنني لا أعرف. أنا أخبرك بالحقيقة.

- ولم أقل بأنك كاذبة. لكنني أحاول جعلك تفكرين معي. ما يهمنا هو عودتهن بخير. إنهما مريضتان وتشكلان خطرا على شقيقتك. قد تكون معهن بسبب قوة قهرية تجبرها على فعل ما يردنه هن.

ما مدى حقيقة هذا الاحتمال؟ لكن لا، لو كانت أليكس واقعة تحت ضغط آخر، لما اتصلت بها وطلبت منها أن تبحث عن ذلك الرمز، ولم تطلب منها أن تتحقق بها. كانت المحققة تريد أن ترعب فيرا حتى تقول ما تعرفه عندما تقع تحت تأثير الرعب.

- هل تعلمين أن اختراق النظام المشفر، يرسل إشارات للنظام العام

إذا ما كان عبر زاوية تابعة للحكومة. وأنتِ اخترقت النظام اليوم للبحث عن عنوان لم أفهمه. أليس هذا صحيح.

- أنني اخترقت النظام، أم أنك لم تفهميه؟

ابتسمت المحققة، لكنها أصبحت تعرف الآن بأنها ليست الجزء المتحكم في اللعبة.

- أنك اخترقت النظام. ما الذي يجعل أستاذة جامعية تقوم بهذا الشيء.

- العلم. أجابت فيرا بثقة.

زمت المحققة شفتيها، ولم يظهر أي شيء يدل على تصديقها لما قالته فيرا.

- وماذا كان الرمز الذي بحثت عنه؟

قالت فيرا بفقدان صبر:

- في الواقع، أكره أن يتم التجسس علي. أنا أعمل في ذلك المكان. أشارت فيرا بأصبعها للجامعة على الطرف الآخر من الطريق - وهم يولوني الصلاحية الكافية لأن أكسب الخبرة التي تعلم الشباب الآخرين. أن يكون هناك من يتجسس علي، فهذا يقلل من

خصوصيتي، وبالتالي جودة عملي لن تكون كما هي. لدي إدارة
تحاسبني لاختراقي النظام. لكن عليك أن تعلمي بأنني لم أفعل أي
شيء أعاقب عليه. أنا أستاذة تاريخ والرموز جزء من اختصاصي،
لذلك علي أن أعرف الطريقة المناسبة للقيام ببحث فعلي.

نهضت افروديت من مكانها، ولا يزال كوبها نصف ممتلئ:

- أعتذر على تطفلي إذا. توقعت أن أجد لديك ما يناسبنا لمساعدة
شقيقتك، لكن ظنوني لم تكن في محلها، أنتم لا تقدرון مقدار
الخطر الذي يحيط بكم إلا بعد أن يفوت الأوان.

انزعجت فيرا من كلمة أنتم ولم تفهم من هم الآخرون المعنيون
بهذه الكلمة. لكنها تجاهلت غضب المحققة، وتركتها تمضي دون أن
تحاول تغيير المفهوم الذي حصلت عليه.

3:20 مساءً / الضاحية الغربية

عادت ايما بهدوء إلى المنزل الصغير الواقع على طرف عزبة عائلتها، ومعها بعض الطعام المعب. تركته على الطاولة، وكل ما تمكنت من الحصول عليه للشرب، هو علب الماء. نهضت أسيا وبحثت بين العلب عما يمكنها أن تأكله فوراً.

- أكاد أموت من الجوع.

علقت أليكس على ما فعلته ايما قائلة:

- لم يكن عليك سرقة هذا من منزلكم، قد يثير هذا شك عائلتك.

- لا تقلقي، لن يشعروا باختفاء هذا. لن يدركوا بأننا هنا، أو ليس قريباً على الأقل. ثم إن أسيا يجب أن تتغذى، لن نجعلها تنتظر حلول الظلام حتى نخرج من هنا.

رفضت أليكس فكرة خروجهم جميعاً، وأخبرتهم بأنها هي فقط من سيخرج اليوم، ليجري بعض الاتصالات اللازمة، وستعود بعد ذلك إلى هنا.

- يجب أن أتحدث مع عمر. - قالت أسيا.

رفضت أليكس ذلك قائلة بأن الوقت الآن، لن يكون مناسباً.

- تقولين لي هذا من وقت طويل. يجب أن أعرف كيف هو حال الأطفال. ثم إنني أشعر بأنني أبتعد عن هدفي الأساسي، نحن حتى الآن لم نتقدم أي خطوة. لم أجد أي خيط يدلني على الحقيقة يا أليكس، ولم يكن هذا هو هدف هروبي من المستشفى.

- هدف هروبك كان الحفاظ على حياتك من ذلك الغريب الذي أراد قتلك. ومعرفة سبب سعيه خلفك، أهم من الوصول إلى حقيقة عمر.

تدخلت ايما معلقة:

- هل يعقل أن يكون عمر هو من أرسله لينهي حياتك؟

بدت الفكرة محتملة لأسيا، لكنها لا تستطيع أن تتخيل عمل بهذه الصورة الشريرة، مهما فعل أكثر مما قام به من قبل. نفت أليكس تلك الفكرة وقالت:

- لا. لن يكون بهذه السذاجة. ثم إن الأسئلة التي طرحها على أسيا في الفندق توحى بأنه، مرسل من جهة أخرى، حتى عمر لا يعرفها.

تبدو فكرة الجهل حيال خطواتك التالية مرعبة. يولد الخوف ما

أن تصبح غير قادر على تحديد خطواتك التالية في الطريق الذي تحاول عبوره للوصول إلى مرحلة أخرى. هذا الخوف يولد فيك عزلة داخلية يجعلك سجيناً بين التساؤلات، واحتمالات وجود الخطر الذي لا يرتبط بالواقع إلا من بعيد. لا يخبرك أحد إلى أين عليك أن تمضي، لأنك في وقت ما من حياتك، تعود قادراً على اختيار محطاتك وحدك، ثم إن مهمة الناس بعيدة عن توجيهك إلى أي منعطف يجب أن تسلك.

عادت أليكس إلى سيارتها في المكان ذاته الذي تركتها فيه. كان مركز الخدمات المخصص للبلدة، خالياً بعد حلول المساء. بل إن طرقات الضاحية كانت هادئة كلها. مكنهم الهدوء من التسلل عبر الطرقات حتى وصلوا إلى السيارة.

جلست ايما في المقعد الأمامي المجاور لأليكس، بينما ألقت أسيا بجسدها على المقعد الخلفي بطوله. ابتعدت أليكس عن الضاحية بقدر ما كان الوقت يساعدها. لم تكن تريد أن تقطع مسافة كبيرة بحيث تصبح مهمة العودة شاقة، لكنها لا تريد أن تتواصل مع العالم وهي في مكان قريب من محل إقامتها.

توقفت عند أقرب مركز تسوق، وملأت خزان الوقود فيما كانت ايما تطالب بالترجل من السيارة والمضي إلى محل البقالة. رفضت أليكس ذلك قائلة:

- لن تفعل ذلك وحدك.

- وما الخطب في ذلك؟ لن أتأخر. سأشتري ما يلزمنا وأعود.

- لا يا إيما.

رفضت إيما رفض أليكس، وألحت:

- اسمحي لي بأن أكون جزءا من هذا. دعيني ألعب أي دور.

استسلمت أليكس، وأعطت محفظتها لأيما. انطلقت إيما إلى الواجهة المضيئة للمحل، وكانت أليكس تراقبها من خلف الزجاج. اعتدلت أسيا في جلستها، وراقب الطريقة التي كانت تحاول أليكس فيها البقاء قيد التركيز.

- استرخي، لا داعي لأن تحاولي القبض على كل الأطراف يا أليكس. ما تقومين به لأجلنا يكفي. دعي الأمور تسير دون أن تقومي بشد الحبل. التراخي أحيانا يساعد في مضي الأشياء دون عرقلة.

انتبهت أليكس لنهوض أسيا، استدارت وقالت لها:

- إنها تتخيل الأمر، كما لو أنه عرض سينمائي. تقوم بهذا معنا من أجل المتعة.

- نحن لا نعلم ما هي حقيقة الفتاة، وإن كان ما تريده هو المتعة

التي تغير ركود الحياة التي تعيشها، فلم لا؟ إنها تدرك حجم المخاطر، ورغم هذا توافق على خوض ذلك معنا.

اقتربت أسيا من طرف الباب، وعلى ضوء مصابيح المحطة، التي كانت تجعل المكان ساطعاً رغم ظلمة الطريق، راقبت طيف ايما التي كانت تتحرك داخل محل البقالة الصغير. حركت أليكس السيارة وقربتها من مدخل المحل. خرجت ايما وهي تحمل أكياساً قليلة، ما أن دلفت إلى المركبة حتى سلمتها لأسيا الجالسة في الخلف.

انطلقت أليكس بحثاً عن أي مقصورة هاتف عمومي، وتطلب الأمر منها أقل من عشر دقائق، حتى وجدت مقصورة وحيدة على جانب الطريق، شكت في أن الهاتف الموجود فيه يعمل. أوقفت السيارة وترجلت منها فتبعتها أسيا إلى هناك.

- دعيني أجرب. انتظريني هنا.

وقفت أسيا خارج المقصورة تراقب أليكس التي كانت تجر سماعة الهاتف، وتضع عملة معدنية فيها، ثم أثبت الانتظار الصامت، أن الهاتف كان يعمل. بعد لحظات رأت أسيا شفتي أليكس تتحرك لتشكل بعض الكلمات غير المسموعة. بجوار صورة أليكس كان وجه أسيا يظهر معكوساً على الزجاج لكن بصورة ليست كاملة، وعلى الجانب الآخر سطع نور مصابيح سيارة أليكس، وكان وجه ايما الجالسة في المقعد الأمامي قد اختفى خلف الوهج.

قبضت أليكس على السماعة الحمراء بتوتر، حتى وصل صوت فيرا عبر الطرف الآخر. خمنت شقيقتها أن أليكس هي المتصلة، لأن الرقم غير مسجل.

- فيرا، إنها أنا أليكس.

- أليكس.. أليكس، لقد حققوا معي اليوم، إنهم يعلمون بشأن تواصلك معي.

بحثت أليكس عن كلمات مناسبة، فقالت على الفور:

- آسفة لإقحامك في هذا. لكن الأمر يتطلب هذا التدخل صدقيني.

- لكن الشرطة تكثف مهمة البحث عنك. هل أنت واقعة في ورطة؟ أو هل هناك خطر يطارذك؟ أخبريني، يجب أن أعرف.

- لا تقلقي يا فيرا، سأكون بخير. الأمر كله سوء فهم وسيتم حله.

ساد صمت قصير، ثم أتى بعده صوت فيرا بهدوء تجدد فجأة:

- بحثت عن الرمز، ولا أعرف كيف توصلت إليه. لكنه ينتمي إلى أحد القصص الخرافية يا أليكس. أعني أنه ينتمي لشيء فعلي لكنه أشبه بالخيال. إنه رمز لمنظمة سرية ملقبة بالطائفة، أو بصورة أخرى، حراس الأرض. إنها حركة تلاشت تقريباً في وقتنا الحالي،

ولا يوجد أي مراجع تدل على إنشائها من قبل، ولا حتى استمرارها طوال السنوات الماضية.

- وما الذي تهدف إليه هذه المنظمة؟

سمعت أليكس صوت أنفاس فيرا وهي تقول:

- لقد جمعت بعض التقارير، ومفادها هو أن هذه الطائفة تطارد كل الحركات فوق الطبيعية في العالم. هذا الأمر يصعب الجدل فيه عبر الهاتف، ولكن لا يمكنني أن أقابلك لأنهم يراقبونني بكل تأكيد.

- هذا أمر مؤكد يا فيرا. ماذا اكتشفت أيضاً؟

قالت فيرا والتي شوش صوتها تداخل صوت ابنها من بعيد:

- إنهم يطاردون القضايا التي تخترق حدود الطبيعة. هل تتذكرين مسلسل صائدي الأشباح؟ الأمر يشبه هذا، إنهم مجموعة تطارد القصص الخيالية بطريقة سرية، وتحجبها عن العالم الفعلي الذي نعيش فيه.

- فهمت.. فهمت الأمر يا فيرا؟ هل هذا هو كل ما توصلت إليه؟

- هذا هو ملخص الأمر. التفاصيل الأخرى ليست أكثر أهمية من الفكرة الرئيسية لهذه الحركة. بمعنى آخر هذا هو تعريف الرمز الذي

أرسلته إلي.

أنهت أليكس الحديث بكلمة وداع سريعة، ثم أغلقت الهاتف فجأة. ظنت أسيا الواقعة خلف الزجاج أن دورها قد حان، لكن أليكس أشارت لها لأن تنتظر. أدخلت عملة معدنية أخرى، وطلبت رقما آخر مختلفا، تمنيت أن لا تكون قد أخطأت فيه.

أتى الصوت الذكوري الحاد، هادئا، كما لو أنه لم يتوقع هذه المكالمة، لكن أليكس كانت معتادة على هذه النبزة الباردة. عرفت عن نفسها بذكر اسمها الأول فقط. فبدأ الصوت الآخر أكثر نشاطاً.

- منصور، أخبرني بأنك وصلت إلى نتيجة ما.

- في الواقع.. أليكس.. النتيجة ذاتها. نصل إلى التحليل ذاته مرة أخرى.

- هل تعني..؟

قال الصوت الآخر بثقة ليثبت نظريته:

- أعني الأمر. لكن لا شيء مؤكد، تبقى هذه مجرد احتمالات. إنني أقضي وقتا طويلا في المختبر أعيد خلاله دراسة الأمر، واكتشف النتيجة ذاتها. هناك تشكيك بسيط لا يمكن إنكاره. الخط الموجود في الورقتين يقول صديقي بأن هناك تشابه تام في طريقة الكتابة

في بعض الأجزاء، لكن في بعض الكلمات يصبح الاختلاف واضحاً.

- لا أعتقد بأن هناك عينة تتطابق في التكرار.

- أنت محقة يا أليكس. لو قمّت أنت بالأمر ذاته، كنا سنتأكد من أنك من كرر الكتابة على ورقتين رغم ارتجاف الخط واختلافه في العينتين. سنقول بأن أليكس هي من كرر الكتابة لكن مع مشاعر مختلفة واختلافات بسيطة وجودها متوقع. لكن في حالة أسيا. يبدو أن الورقة الثانية المنسوخة، قد كتبت من قبل شخصين معاً. أحدهما أسيا نفسها، والآخر شخص مختلف.

- هذا يعزز نظريتنا إذا.

أجابت منصور أجّل:

- أجّل. إنها هي، وليست هي في الوقت ذاته.

لماذا هذا الانتظار؟ لا تتوقف الحياة إلا عند لحظة تلاشي الترقب، نحن دائماً في تطلع إلى أمر ما، نهاية سعيدة، الخلاص أحياناً، وحتى نهاية الحياة هي مرحلة من مراحل التطلع. لكننا أحياناً نصاب بخلل توجيه البوصلة التي ترغمننا على الصبر. نصبح فجأة غير قادرين على تحديد ما نحن بصدد اللجوء إليه والسير معه إلى الغايات الجديدة.

خرجت أليكس ورمت نظرة خاطفة على أسيا التي عبرت إلى داخل المقصورة ووضعت عملتها المعدنية، ثم حاولت أن تتذكر رقم هاتف عمر. حاول في الأوقات القليلة التي قضتها في منزل والدها أن يجعلها تحفظ هذا الرقم للطوارئ. فكرت، وحاولت أن تعتصر أفكارها أكثر، إلى أن وصلت إلى النتيجة.

انتظرت الرنين الذي كان يبدو لها كأنه صافرة إنذار تحذرها من اقتراب الخطر. لماذا تتصل به؟ ألم يكن هو عدوها؟ أم أن ذلك القاتل هو عدوها الآن؟

- نعم. أجب عمر بصوت هادئ، فيه مسحة من التعب.

- عمر؟ إنها أنا..

- أسيا؟ أسيا.. أين أنت الآن؟

- أنا بخير، لقد اتصلت فقط..

تداعى السبب الأساسي من بين يديها. اتصلت لأنها بحاجة لصوته، اتصلت لأنها تريد العودة إلى الشعور بالطمأنينة معه، وإن كان هذا الشعور كاذبا. إنها تطلبه لأنها تفتقد عالمها القديم كله.

- هل الأطفال بخير؟

- اسمعي يا أسيا، ما تظنين أنني أنوي فعله، كله وهم لا ينتمي للواقع أبداً. لا أنوي أن أستولي على أي شيء. عودي فقط من أجل الأطفال، ودعي الأمور تسير على منهجها الصحيح.

- لا يمكنني، ليس الآن.

سألها وهو يفقد صبره:

- متى؟ أنت مريضة ويجب أن تتلقي علاجك. عودي يا أسيا.

- عمر أنا أحاول أن أصدق.

- يجب أن تفعلني هذا. أقسم بأنني لا أكذب. أنا أحبك أنت. وسأغفر لك كل شيء. فقط عودي يا أسيا دعينا نحاول أن نبدأ من جديد.

هل يكذب الآن؟ لا، صوته يقول الحقيقة.

- سينتهي كل شيء، عندما يبدأ الجميع بالتصديق. الخلاص يأتي مع الإيمان. حتى حلول ذلك، كن بخير.

لم تفهم أسيا إلى أين ستعود تحديداً، إلى عمر؟ أم إلى منزلها الذي لمت به قبل أن تستيقظ على الحقيقة المؤلمة؟ ذلك المنزل الذي تعيش فيه حبيبة، وكل السعادة التي رقدت وهي تضمن بقاءها. أغلقت الهاتف فجأة وتركت المقصورة، لتعود إلى السيارة.

قادت السيارة أليكس منطلقة نحو منزل عائلة ايما من جديد. غرق الجميع في حالة من الهدوء المريح. لم ترغب ايما في إجراء أي اتصال، لأنه لم يكن لديها من يقلق بشأنها، وعائلتها التي كانت لغزا بالنسبة لأسيا وأليكس، كانت تحاول الهروب منهم بقدر ما تستطيع.

- لا بد من أنهم قلقون الآن. - علقت أسيا.

أجابت ايما دون أن تتخلى عن هدوئها:

- دعهم يفقدونني لبعض الوقت. قد يوضح هذا مدى أهمية وجودي. - ثم ابتسمت بمكر فجأة فظهرت أسنانها البيضاء.

التفتت أليكس إليها فجأة، وسألتها:

- ما قصتك؟ لماذا ترافقيننا؟ ما الذي يجعلك تهربين من هذا كله.

لوت ايما شفتيها:

- لماذا كل هذه القسوة يا أليكس. - ثم ضحكت فجأة - حسناً.. لا يوجد أي قصة مميزة، أنت تعرفين أن مشكلتي الأساسية هي عدم وجود أي قصة. أفقد للإثارة في حياتي.

تحركت عيني ايما وراقبت الزجاج المجاور لها. كانت تنظر مباشرة نحو الطريق المعكوس على المرأة الجانبية الصغيرة. لمعت عيناها كأن في أعماقها نجم ما. ازداد جمالها فجأة وبدا واضحاً رغم أن الظلام ابتلع ملامحها.

- لا يوجد أي حكاية الآن.. مضى وقت طويل منذ أن كانت الحكايات موجودة وسهل الوصول إليها. نحن لا ندرك بأن القصص موجودة بوفرة، إلا بعد أن يسرقنا الوقت بعيداً عنها وتصبح الحياة.. خالية. ما كل هذا الملل؟ ما كل هذا التكرار الآن؟ لا شيء جديد. أفعل الأشياء، ثم أجدني كرهتها وأنا في غمرتها. أحصل على ما أريده فيفقد قيمته لدي، لأن الأشياء التي أردتها انطوت مع الوقت قبل أن أصل إليها. نعم.. إنه الملل، هو ما يدفعني للقفز في هذه الحكاية.

15 نوفمبر / 2018

لم يمض وقت طويل على عودتنا إلى منزلنا الصغير محاولين تجاهل فكرة المقارنة بين هذا المكان، وبين منزل والدي العتيق والكبير. وابتني أفكار كثيرة بشأن المنزل الكبيرة، لكن أيا منها بدت لي صعبة قبل أن أشاركها مع عمر. لم يعلق عمر بشأن تركة والدي، لأن المال كان لي أنا في النهاية، ولن يؤول أي شيء له هو. لكنني كنت أفكر في أنه للعائلة كلها، وما جنيته بعد رحيل والدي، سيكون هدفه هو تطوير شكل حياتنا، وطريقة المعيشة.

- سنعرض المنزل للبيع، ونستثمر ما نجنه منه. قلت لعمر الذي كان منحنيًا يحاول شد مفكات أنابيب المياه.

أزاح رأسه بعيداً عن سطح مغسلة المطبخ، وترك المفتاح الذي كان بيده، وقال دون أن ينهض:

- ولماذا نقوم بأمر كهذا؟ من سيفرط في عقار ملكه؟ لن يكون الاستثمار أمراً مضموناً يا أسيا.

- إذا، ما الذي سنحاول القيام به الآن؟

نهض عمر من مكانه، وقال بينما كان يحاول تنظيف يديه:

- لن نفعل أي شيء، سنكمل حياتنا كما كانت عليه.

- والمنزل؟ هل نتركه خالياً.

تحرك عمر ووقف أمامي، وبدأ أن الفكرة كانت موجودة في ذهنه مسبقاً، وكانت تنتظر الفرصة لتنطلق. لم يتردد أبداً قبل أن يعرضها علي:

- لدي فكرة أخرى. دعينا ننتقل إلى هناك، ونعيش في ذلك المنزل. لن نضطر لأن ندفع إيجار هذا المكان الصغير، وسيكون المنزل مناسباً للعائلة عندما تكبر. ويمكننا حتى أن نقضي فيه باقي أيامنا بعد أن نتقاعد، لن نجد حياة تلائم العائلة، أكثر من الحياة في ذلك المكان الهادئ.

حاولت أن استوعب الفكرة بطريقة مبدئية، لكن المعوقات بدت لي كبيرة:

- لكن عملك؟ الأطفال؟ أصدقاؤهم هنا، ومدرستهم.. كيف سيتغير كل هذا؟

- لا يزالون أطفالاً، وهم ليس لديهم ما يتعلقون به هنا. سنغريهم
بفكرة التغيير. يمكنهم الانتقال إلى مدارس الوادي الغربي، وأنا
سأجد عملاً آخر قريباً من ذلك المكان، بل إن عملي الحالي لا يبعد
مسافة كبيرة عن البلدة، لن يضايقني أن أقود سيارتي كل هذه
المسافة.

اعترضت وأنا أتخيل حوادث السيارات على الطرق الريفية:

- الأمر خطيراً عمر، وليس بهذه السهولة.

قبض عمر على كتفي برقة، وقال بصوت اجتمعت فيه كل الثقة
التي رأيتها في قلبه من قبل:

- دعينا نحاول، قد يكون الأفضل ينتظرنا هناك.

قضيت الليل بطوله أفكر في اقتراح عمر، وأرسم شكل الحياة التي
سنبنينا هناك. تخيلت شكل العائلة وهي تعيش في ذلك المنزل، وكان
هناك الكثير أيضاً لأتصور شكله المستقبلي. بدت لي الفكرة مغرية
فجأة. في صباح اليوم التالي، وافقت موافقة أولية، وبدأت أناقش
مع عمر كل الخطوات التي يمكننا أن نقوم بها لنغير حياتنا إلى الأبد.

إنه يومنا الأول في هذا المنزل، وأعني بذلك أن هذه هي الليلة الأولى التي سننام فيها تحت سقف هذا المنزل القديم، والذي سعيينا إلى تجديده في فترة قصيرة، لم يكن يتطلب الأمر سوى إجراءات بسيطة، فوالدي لم يهمل سوى نظافة المنزل. تخلصنا من الأثاث القديم، وتركنا غرف الأطفال كما هي وملأنا الحجرات الخالية بقطع الأثاث المخصصة لهم.

بدت حبيبة هي أكثر فرد يشعر بالحماس، ففي نظرها كان المنزل أعظم مما هو عليه بالفعل. كانت تتحدث عنه كما لو أنه منزل أحلامها، أو قصر أميرات ستعيش فيه للأبد. في زيارتنا الثانية بعد موت أبي أتت جرياً من الطابق العلوي وقالت لي:

- أُمي لقد اختاروا غرفهم، وأنا فعلت ذلك.

جرت يدي لتريني الغرفة التي وقع اختيارها عليها. اختارت لنفسها المكان الأصغر، وأعلم بأنها أصغر من أن تكثر للمساحة التي تلائمها. يوجد المزيد من الحجرات الخالية والتي كانت أكبر من هذه لكنها تريد أن تكون قريبة من زهرة وجميل.

- حسنا ستكون لك.

- وستنامين بجواري. - قالت وهي تقاوم ابتسامتها.

- أنت كبيرة الآن، ويمكنك أن تنامي وحدك، أليس كذلك؟ - هزت رأسها بتردد فقلت لها - ألم نتفق على أنك تستطيعين فعل ذلك وحدك؟

أفلتت حبيبة يدي أخيرا، وقالت:

- حتى لو كبرت وأصبحت مثل جدي، فإنني سأنام بجوارك. - تجاهلتها وعدت نحو السلم فسمعتها تقول - إنني أحبك يا أمي. استدرت وأهديت لها ابتسامة من بعيد، فتبعني إلى الطابق السفلي.

في ليلتنا الأولى في المنزل طلبنا الطعام من مطعم صغير في البلدة يطبخ الأطباق المكسيكية، ولم يسبق لنا أن جربنا طعامه. كان الهواء في البلدة منعشا، وأنقى مما هو عليه في المدينة، لكن برودة الطقس كانت أشد. كان المطبخ بارداً، وهذا كان يقلقني على حبيبة التي رفضت أن تتركني بينما أنا أفرغ الطعام في أطباق المنزل.

- يمكنك أن تستخدمني هاتفني، وتشاهدي ما تريدينه بينما أقوم أنا بتجهيز المائدة.

اعترضت بلطف، فهي لا تغريها التكنولوجيا الحديثة، ولم تسرقها

مني بعد:

- سأراقبك، لكي أكون مثلك عندما أكبر.

- ستكونين أفضل مني.

- دعيني أقدم لك المساعدة إذاً.

قالت لي ذلك وهي تنهض من مكانها، فطلبت منها أن تخرج الملاعق من الجرار العلوي بجوار المغسلة. سمعت صوت الجرار وهو يجر للخارج، وبعد ذلك تضاربت الملاعق بينما كانت حبيبة تخرجها من مكانها. وضعتها على الطاولة وكان وجهها لا يكاد يصل إلى الطول الكافي لتتاح لها رؤية الطعام وهو يوضع في الأطباق.

- هل تشعرين بالجوع؟ - سألتها، فهزت رأسها إيجاباً - اذهبي ونادي شقيقك، وعندما تعودون سيكون الطعام جاهزاً.

- لن يأتوا، فهم يراقبون شاشات الحواسيب ولا يسمعون ما أقوله أبداً.

- أخبريهم بأنني طلبت هذا منك، هيا.

راقبتها وهي تهرول خارج المطبخ، ثم سمعت وقع أقدامها على السلم وهي تصعد لتناديهم. دلف عمر إلى المطبخ فجأة ووقعت

عيناه على الطعام. كنا جميعاً، نشعر بالإرهاق، والجوع. حاولت بقدر ما أستطيع أن أستعجل لأن لا أجعلهم ينتظرون أكثر.

- المكان بارد هنا. - علق عمر

- بسبب وجود الباب هنا، ثم إن التدفئة الداخلية لا تعمل في المطبخ.

وقف عمر إلى جوارى وبدلاً من مراقبة الطعام أصبح يراقبني أنا. تظاهرت بأنني لا أنتبه لما يقوم به عمر، لكنني تنازلت عن تهربي منه عندما قال:

- أجمل أم على الإطلاق.

- هذا ليس إطراء. - ابتسمت وأردفت - أم فقط؟

- أجمل إنسانة في هذا العالم. أتطلع للأيام القادمة وأنت معي. ستكون أفضل دائماً، ستكون أسرتنا كما أردنا أن تكون، أليس كذلك؟

واجهت عمر ولا تزال الابتسامة عالقة على شفتي:

- كنت سعيدة معك طوال السنوات الماضية، وسأكون كذلك طالما أنت إلى جوارى مهما تغيرت الأوضاع. تحسنت أو ساءت، يكفي أن تكون أنت معي يا عمر.

فاصل زمني كبير يقطع بين حياتي في الوادي الغربي، وبين انتقالي للمدينة، بغرض الدراسة. كنت أعود إلى هنا في بعض العطل، لكنني كنت أجد المتعة بين أصدقائي أيضاً، وأقضي عطلات الربيع في أماكن بعيدة محاولة اكتشاف العالم من حولي. تخرجت وباشرت العمل فوراً قبل أن أعود إلى المدينة، وقبل حتى أن أتزوج وأترك عملي لأتفرغ لتربية زهرة.

وجود عمر كان يشبه حالة إنقاذ فريدة. أحياناً يكون هناك وجود وحيد فقط، قادر على إحداث تغيير مفاجئ، مع انطلاقه المفاجئ في حياتك. يجعل التفاصيل الجميلة أعظم، واللحظات الحزينة جزءاً طبيعياً من الحياة يمكنك أن تتصالح معه. حتى التحديات الصعبة، تشعر بأنك مستعد لخوضها من أجل الاكتفاء الذي ستراه في صورتك بأعين من يهتمك أمرهم.

غيرني العمل كثيراً، وكان وجود هذا الشخص يجعلني ممتلئة بنفسية، ومكتفية بها. أصبح بإمكانني الاستغناء عن العالم مع وجود الحب في حياتي. هناك مشاعر تغني حتى عن خوض المعارك لأنك بحاجة إلى العودة إلى هذه السعادة الصامتة والاكتفاء براحتها.

عدد سكان البلدة ليس كبيراً، وهذا ما يجعلنا لا نرى تجمهرًا للأشخاص، ولا حشد سيارات عند المخارج. لا نقف في طوابير عند محلات البقالة، ولا تعج الواجهات بأقدام تحجب شكل المباني. كانت الحياة هنا هادئة وفي نهاية العام بدأنا نرى تحضيرات عيد الميلاد لا تكاد تُرى عند المنازل.

كنت أعرف وليد صديق والدي من قبل، وزارنا في النهار الثاني لنا في المنزل، أما اليوم فتعرفت على رسيل، وهي جارتني على الجهة المقابلة من الطريق. تعيش برفقة زوجها ويدعى أمين، أخبرتنا رسيل بأنه موجود الآن وهذا ما سمح له بلقائنا اليوم، لكنه معظم الوقت لا يكون موجوداً هنا.

نظر إليها أمين الواقف على الباب، وكانت نظرتُه تحمل تأنيبا من نوع مميز ولطيف.

- أنا أقول الحقيقة.

- إنني أعمل، لهذا أرتحل كثيراً.

قاطعتهم قائلة:

- لا داعي للشجار الآن. دعونا ندخل جميعاً ونشرب العصير لعلكم تهدؤون.

لم تعترض رسيل، ورافقها أمين للداخل. كان حس الفكاهة لديهم
عاليا جداً، ويمكن أن أرى الصدق في عيني المرأة بوضوح. اهتمت
بالأطفال عندما رأتهم، وبدأت متعلقة بحبيبة جداً.

- هل لديكم أطفال؟ - سألتها.

أجابت بخيبة:

- لا نحن نخطط للإنجاب لاحقاً.

- عليكم أن تنعموا بالهدوء الذي أنتم فيه الآن، قبل أن يقلبوا
حياتكم.

حاولت تدارك الموقف الذي وضعت نفسي فيه، تلاشت نظرة
الحزن في عيني رسيل وهي تلعب مع حبيبة. كانت حبيبة مهذبة
معهما، أما هي فكانت تستدرجها لأن تتحدث معها أكثر. اختفى أمين
مع عمر لكنني لمحتهما على الشرفة يجلسان.

- إذا مؤامرة رجالية؟ - عقلت رسيل.

- شر لا بد منه.

- علينا أن نشكل حزبنا نحن أيضاً.

لم أتصور بأننا سنكون صديقات بهذه السرعة، لكن هذا ما حدث في نهاية الأمر، وتحولت معرفتنا السطحية ببعض إلى صداقة مميزة، جعلت رسيل في الأيام التالية تتصرف كما لو أنها فرد من المنزل.

12 ديسمبر / 2018

قام عمر بتثبيت الشجرة في زاوية غرفة المعيشة، ثم ابتعد متذمرا من أنه لا يقوم بتعليق الزينة، حينها قفزت حبيبة والتي كانت الأسعد من بيننا بوجود شجرة عيد الميلاد في المنزل، وأخبرته بأنها ستتكفل بذلك. رأيته يضحك بلطف، رغم أن حركتها الطفولية لم تتطلب ذلك، لكنه كان فخورا بها، ويعجب بكل التفاصيل الصغيرة التي تبدر منها.

- سنقوم أنا وحبيبة بذلك.

قفزت في مكانها وبدأت تصفق. ناداها عمر لكي تخرج معه إلى سيارته وتحضر ما اشتراه من زينة. في ذلك الوقت صعدت للطابق العلوي، وتفقدت جميل الذي كان يرسم ولم ينتبه لوجودي عند باب غرفته، ثم انطلقت إلى غرفة زهرة التي جلست أمام شاشه حاسوبها ولم تسمع طرقاتي.

- أمي، منذ متى أنت تقفين هنا؟

- ثلاث ثوانٍ. لم تسمعي طرقي على الباب لأنك تضعين هذه السماعة.

زمت شفتيها، ولم تجد ما ترد عليه به.

- نحن نعلق الزينة على شجرة عيد الميلاد.

- اشترىتم شجرة أخيراً.

- أجل. هل ستساعدينا؟

هزت رأسها نفياً، وأعادت السماعه على أذنها. تركتها وعدت إلى الطابق السفلي لأجد حبيبة تفرق الزينة عن بعضها، وتفرز الأجراس بعيداً. يعتقد الأطفال بأنني أميز حبيبة عنهم، لكنها في الواقع كانت هي من يتقرب مني بينما هم لا يبادرون بفعل أي شيء يجعلهم في صفي.

وضعنا الكراسي الخشبية حول الشجرة، وبدأت بتعليق الزينة الورقية فوق قمة الشجرة. ظننت بأن عمر قد استسلم وذهب لكنه كان يقف بالقرب منا ويراقب بحذر ما نقوم به. اقترب منا أكثر ووقف بين كرسيي وكرسي حبيبة التي كانت تحاول تعليق الأجراس. كان يخشى سقوط إحدانا وهذا ما جعله يبقى هنا.

تخلّى عمر عن فكرة المراقبة، وجر كرسيه آخر من الكراسي الموجودة في غرفة المائدة، وقام بمساندتي بتثبيت الزينة المنسدلة من قمة الشجرة.

- سننتهي قبل أن تعلق حبيبة كل الزينة التي لديها.

- لا، كدت أن أنهى ما بيدي. لن تهزموني.

انتهينا من ترتيب الزينة، وقمنا بإيصال الضوء المحيط بالشجرة في قابس الكهرباء. وما أن ضغط عمر على زر التشغيل، حتى صرخنا أنا وحبيبة في الوقت ذاته ورحنا نقفز في مكاننا.

اقترب عمر مني وأحاطني بذراعيه، ثم سألني:

- أتفهم سبب صراخها، ولكني هل أنت طفلة أيضاً؟

- أجل. قلتها بلهجة مأكرة وحاولت التملص من قبضته.

لكنه تبعني فركضت بعيداً عنه، لكنه لم يتوقف. استشعرت حبيبة الرعب في ما يقوم به عمر رغم أنه كان يضحك، فركضت معي، وبدأت تضحك بصوت مرتفع بينما عمر كان يتبعنا في أرجاء المنزل.

أتذكر تلك الأمسية جيداً، كما لو أنها تتكرر كل يوم، كما لو أنني أعيشها الآن. لكنني لا أستطيع أن أعيد الأشياء إلى صورتها القديمة، لا يمكنني تغيير أي شيء.

15 ديسمبر / 2018

تبادر إلى مسامعي صوت نات كينغ كول آت من مشغل الموسيقى الخاص بوالدي. كانت تلك أغنيته ابتسم، وهي المفضلة لديه. نهضت من فراشي رغم أن الساعة كانت لا تزال باكراً جداً على موعد استيقاظنا. لم تشرق الشمس بعد، بل إن الوقت لم يتجاوز منتصف الليل.

سرت عبر الممر المقابل لغرفتي، وبدأ لي مصدر الصوت أوضح. إنه آت بالفعل من الطابق السفلي، حيث كان يقع مشغل الموسيقى الخاص بوالدي. هبطت عبر السلم إلى هناك، لكن الصوت ما زال بعيداً عنا، ولم يتغير وضوحه. كان متبوعاً بصدى يجعله بعيداً عنه، ولكن نغمات الأغنية كانت واضحة.

- أبي. ناديت وأنا على يقين من أنه ليس هنا، ولن يجيب.

تلك كانت أغنيته. تخيلت لو أنه يقف أمام مشغل الموسيقى ويستمع إليها، ثم يستقبلني بدفع. لكن هذا لن يحدث أبداً، ليس بعد الآن.

دلفت إلى مكتبه، لكنني دهشت عندما وجدت المكان غارقاً في

الظلمة، وأن الموسيقى التي تتبادر إلى مسامعي كانت تنبعث من مشغل الموسيقى، لكنها لا تزال بعيدة بعض الشيء. بدأت أشك من أنها تنبعث من مكان آخر، لكنها تلاشت فجأة.

هذا ما فعله بي الحنين لأبي. جعلني أتخيل كل التفاصيل المتعلقة به، وأستحضرها كما لو أنها واقعية، لكنها ليست كذلك. عدت إلى فراشي وجاورت عمر حتى التصق كتفي بكتفه، لكنه لم يشعر بنهوضي وعودتي.

21 ديسمبر / 2018

أخبرتني حبيبة في ذلك اليوم بأنها ترغب في حذاء، وستكون هذه هي أسعد هدية تحصل عليها يوماً. أرادت حذاء تزلج، يمكنها أن تستخدمه عندما ينتهي موسم سقوط الثلج. أصبح البرد شديداً في تلك الأيام، وكان الخروج من المنزل يعني بذل جهود مضاعفة.

جازفت وتركت المنزل لأحصل لها على حذاء تزلج، ولأشتري لكل أفراد العائلة، الهدايا التي رغبت بتقديمها لهم. استغرقت الرحلة إلى المركز التجاري الأقرب ثلاث ساعات. كانت رسيل برفقتي، وهي سعيدة، لأنها ستقضي هذه العطلة برفقة أمين.

- هل الحل الوحيد هو سفر أمين؟

- إنه عمله، وهذا ما يبرع فيه هو. يضطر للسفر، لكنه يجني جيداً.

علقت بسخرية:

- لا يحق لك التذمر إذا. هذه هي الحياة، تعطي شيئاً، لكنها تحرمك من آخر.

- وما الضرر إن حصلنا على حفنة من الأشياء الجيدة معاً.

- لن يكون لما نفعله أي قيمة. ستصبح الحياة مملة من دون الترقب صدقيني. لهذا نحن نحارب ونضع أهدافاً جديدة على الدوام، لكي نستمر على وجه الأرض. إنها معادلة البقاء بكل بساطة.

عبرنا الجانب الآخر من المركز التجاري، وتوقفنا أمام بعض المحلات التي تبيع قطع الأثاث المنزلية الصغيرة. لم أفكر في شراء أي قطع زينة للمنزل، لكنني لم أقاوم الوقوف أمام تلك الواجهات. قطع سيرنا صوت ينادي بأدب:

- أسيا.

استدرت لأرى رجل حليق الرأس، كانت هيئته مميزة، وعلى الفور تذكرت جنازة والدي. إنه وليد صديقه. حياني، ومن ثم ألقى التحية على رسيل التي أشك بأنها كانت تعرفه، رغم أن كلاهما كان يعيش هنا.

- كيف تسير الأحوال في المنزل الكبير الآن؟

- لا نكاد نتأقلم على الحياة هنا. لكن الوضع يسير بشكل جيد.

لم يبتسم، لكن صوته خرج بوداعة غريبة وهويقول:

- لا تشبه الحياة هنا، ما هي عليه في المدن. لا يوجد زحام، ولا سرعة في الوقت. الهدوء يجعل الوقت يمضي ببطء، لكنه الحسنة الأهم في هذا المكان. أنتم الآن جزء من البلدة، ولن أتمنى لكم أوقاتاً سعيدة، بل حياة سعيدة.

تحركت أسيا خطوة للخلف، وقالت بانفعال:

- هذا لطف بالغ منك.

نقلت رسيل نظارتها بيننا أنا ووليد، وبدا هو متردداً. لا يزال يقف أمامنا. حاول التراجع، لكن بدت الكلمات العالقة في فمه، هي ما يمنعه.

- أنا حقاً آسف لرحيل والدك، لقد كنا صديقين مقربين.

خرجت الكلمات منه بحذر، لأن لا تؤذي شعوري. لم أشعر بالألم الذي يعتريني حين أتذكر أبي، بل تجاوبت مع أسفه، وقلت له:

- وأنا آسفة لأنك فقدت صديق.

- في الواقع، لقد فقدته قبل أن يقدم علي..

أخفى وليد كلمة انتحار عني، ورغم أنها لم تبدر منه، إلا أنني استشعرت ثقلها علي.

- لقد تغير كثيراً يا أسيا، تغير في الأيام الخيرة، كما لو أنه شخص آخر ، يتظاهر بأننا لا نعرف بعضنا، وبأننا لسنا أصدقاء. كان يتذكر أشخاصاً لا وجود لهم، ويدعي بأن أصدقاءه ليسوا أصدقاءه.

أدرك وليد فجأة مدى قسوة ما كان يقوله علي فصمت بطريقة مفاجئة، وأعتذر ملوحاً بيديه، ثم انسحب فجأة. التفث لأرى رسيل تراقبني والأسف ظاهر على وجهها. وقفت والحيرة تعتريني، ولم أقو على التحرك. وضعت رسيل يدها على كتفي، وحثتني على نسيان ذلك الموقف.

أول ما أقدمت عليه حين عدت إلى المنزل، هو أنني أخفيت الهدايا البسيطة التي اشتريتها، ومن ثم قضيت المساء كله برفقة عائلتي، ولكن ذهني كان يحاول ترجمة ما قاله لي وليد في المركز التجاري. لماذا كانت تلك التفاصيل مخفية عني؟

كيف فاتني استيعاب ما حدث لأبي؟

أخرجنا صندوق الألعاب النارية، فمنتصف الليل لم يبق على حلوله، سوى دقائق قليلة. انتهى هذا العام، وما تبقى منه جزء صغير غير محتسب، مقارنة بالأوقات التي انقضت، وكل التحولات الماضية. قبضت حبيبة على الأنبوب الطويل، وانصاعت لأوامر عمر الذي قال لها:

- وجهيه نحو السماء، هل هذا مفهوم؟

توقف جميل عند شرفة المنزل، وفضل أن لا ينخرط في هذا، لأنه كان يخاف من الضوضاء التي تحدثها الألعاب النارية. شاركنا زهرة، وعمر كان هو القائد الفعلي لتلك اللحظة. أما أنا بدوري فقبضت على الساعة بيدي وبدأت أحذرهم من أنه لم يتبق سوى دقيقة.

- استعدوا. - صاح عمر.

أخرج القداحة بيده، ووجهها نحو الألعاب النارية. كنا سعيدين لأننا نحتفل بالعام الجديد هنا، في هذا المنزل. كل الأشياء كانت توحى بالبداية الجديدة، الوقت، الأشخاص، والأحداث الجديدة حتى.

- هيا.. عشرة.. تسعة..

بدأ عمر يشعل الأنابيب النحيلة، وأمرهم من جديد أن يوجهوها إلى السماء.

- أربع.. ثلاث..

اشتعلت اللفافة التي كانت بيد حبيبة، وطارت قبل أن ينتهي العد. رأيت زهرة تبتسم بمرح، وهي توجه ما بيدها إلى السماء المعتمدة بحذر بالغ. بدت خائفة ومتحمسة في الوقت ذاته.

- واحد..

صرخنا جميعاً في الوقت ذاته، واشتعلت السماء بألوان عديدة كان مركزاً فوق بيتنا، تبعها أضواء متفرقة من زوايا مختلفة في السماء. كانت المنازل المجاورة لنا، تحتفل أيضاً. لم يهدأ الهتاف، إلا بعد عودة العتمة للسماء. صمتنا جميعاً، لكن جميل لم يتوقف عن الصراخ.

تركت ما بيدي وهرعت نحوه مذعورة. سألته:

- ما بك؟

احتضنني وبدأ جسده كله يرتعش. نظر نحو مدخل المنزل برعب،

ثم أشار لي بأصبعه للداخل.

- ما الأمر أخبرني.

احتشدنا حوله، وسألته عمر عما جعله يصرخ بخوف هكذا. فقال
الطفل بحذر وهو يراقب المنزل:

- سمعت صوت هتاف يأتي من داخل المنزل.

راقب جميل المنزل الساكن، واستوعب بأنه لا يوجد أي شيء يثير
الريبة في الداخل. شعر بالحرج لأنه خاف من شيء تخيله، ولم يكن
حقيقياً. سرنا للداخل جميعاً، وسمعت عمر يقول من الخلف:

- عام سعيد جميعاً.

ردد الأطفال خلفه:

- عام سعيد.

11:00 مساء / الضاحية الغربية

- أسيا، هل نمت؟

سألت أيما بصوت أعلى من أن يكون همسا، فخرج صوتها عاليا، لكنه يشبه الفحيح. لم تتحرك أسيا في مكانها، وكانت تولي أيما ظهرها، وهي تفكر في عائلتها.

- لا. أجابت، ثم ابتسمت لكن ابتسامتها لم تكن مرئية.

- لا أعلم لماذا أعجز عن النوم. أتعرفين؟ رغم أنني في منزلنا، إلا أنني أشعر بأن هذا المكان غريب علي. لا أعرف كيف أشرح هذا الأمر، لكن ما نقوم به جنون، أليس كذلك.

بحثت أسيا في ذهنها عن مرادف لمعنى الجنون الذي تعنيه أيما. هناك قاتل يطاردهن، والشرطة تبحث عنها، وعائلتها بعيدة ومحطمة. لا وجود لأي جنون بقدر ما كان هذا تدمير للطبيعة المألوفة في حياة الإنسان. استدارت أسيا في مكانها، وواجهت ببصرها أيما التي كانت تراقبها.

- لا أعرف ما هو شكل الظروف الذي تجعلك تشعرين بهذه

الوحشة، لكنني لا اعتقد بأنك على خلاف مع عائلتك، والدليل على هذا، هو أنك في منزلهم الآن، ولست خائفة من وقوع الأخطاء.

- لست على خلاف معهم. بل أنا أبحث عن بعض الإثارة.

- ليس بهذه الطريقة يا ايما.

اعتدلت أسيا في فراشها، وأسندت ظهرها على الجدار الواقع خلفها. جالت عيناها في ظلام الحجرة الذي اعتادت عليه. لا يوجد خطة للغد، ولا أي شيء يمكنها التقييد به لتصل إلى نقطة البداية الصحيحة.

- ما هي الطريقة إذا؟ هل من السهل الآن التفريق بين الصواب والخطأ؟ بل ما هي الحقيقة؟

صمتت أسيا طويلاً، حتى شكت ايما في أن أسيا تعمدت تجاهلها. أرادت ايما أن تستسلم، وتستلقي من جديد، لولا أن صوت أسيا أتى فجأة:

- أعتقد بأن ما كنت أعرفه كان مناماً، انتهى فجأة واستيقظت على هذا الواقع. لكن.. إن كان هذا هو الواقع، ففكرة العودة إلى المنام السعيد، هي الأكثر قبولاً. وإن كان هذا كابوساً فلينته بأسرع وقت.

سمعت أسيا حفيف لحاف ايما التي أصبحت أكثر نشاطاً فجأة

وقالت بصوت جدي لم تستخدمه من قبل كثيراً:

- لكن هذا الواقع يا أسيا، وما كنت تعيشين فيه، ليس إلا وهماً.

- كلما أغمضت عيني، تأملت الفراغ الأسود.. لعله يعيد شكل تلك الحياة التي قضيت فيها سنواتي، والتي تدعون بأنها وهم. أرجو هذه العتمة أن تعيد لي ذلك الحلم ولو للحظات قصيرة.

لا يمكن للإنسان التمييز بين الخدعة والحقيقة في بعض الأحيان، إلا عندما يقع في الألم، والأصعب من ذلك هو أنك لا تستطيع إلقاء اللوم على ذلك، لأنك أنت من يختار الطريق أحياناً. أما البكاء على ما راح، فهو لا يكون مجازاً إلا عندما تجد الفرصة قد تلاشت منك رغماً عنك.

- هل تتساءلين كثيراً عن الجزء الحقيقي في المسألة؟

- بلى. - أجابت أسيا - اعتقد أحياناً أن الخل نابع مني، لكن ماذا تفسرين وجود ذلك القاتل الذي يطاردنا؟ لماذا يسعى خلفي؟

سمعت أسيا صوت حركة مفاجئة، ثم رأت أليكس تنهض، وشعرها الذهبي لم يعد مرتباً كما اعتادت أن يكون عليه. تحرك رأسها في الظلام، وبحثت عن وجوه ايما وأسيا.

- ألا تنامان؟ هذا يكفي.

- هل ستؤدين دور الطيبة هنا أيضاً؟ - سألتها ايما، ثم أردفت - أم أن هذا هو دور القائد؟

نهضت أليكس وجلست بين أسيا وايما، ثم علقت:

- بل هو دور العاجز عن النوم، بسبب هذه الثرثرة الشاعرية. آسفة يا أسيا، علي أن احترم مشاعرك، لكن ما أقوله فعلي.

فكرت أسيا في كل ما تعرفه من منصور، وكل ما اكتشفته في المختبر، تساءلت إن حان الوقت لتقول الحقيقة أم لا. كل ما فكرت في ذكر هذا السر الذي تكتمه، تشعر بصعوبة أكبر تعيق لسانها. كيف ستشرح حقيقة الأمر؟ لن يصدقها أي أحد.

- في الواقع يا أسيا، هناك احتمال قد لا يكون حقيقياً.. لكنه قد يحمل تفسيراً لما أنت عليه.

- ماذا؟ - أتى صوت أليكس وايما في الوقت ذاته.

تراجعت أليكس من جديد، لكنها حاربت هذا الشعور، وتكلمت بصراحة:

- أعلم أن ما سأقوله يبدو جنون، ولم أخفه إلا لأنني ما زلت تحت تأثير هذه النظرية. ألم تسألي نفسك لماذا انخرطت في هذه الحكاية

معكم؟ ما سبب وجودي هنا الآن؟ لقد كان هناك خلل فعلي، منذ أول يوم وصلت به إلى المركز.

بدا الفضول واضحا على أسيا التي كادت أن تقاطع أليكس، لولا أن الطبيبة رفعت يدها لتعيقها:

- حاولي أن تفهمي ما أقوله، واعلمي أن الأمر قد لا يكون حقيقيا. لكن عندما أجرينا لك الفحص الأول، خلال الصورة الإشعاعية لك، لم تظهر الهالة المحيطة بجذك والتي من شأنها تفسير نوع الأذى النفسي الذي يصاب به المريض. بل كانت مبنية بطريقة مختلفة. كانت بيضاء، ويعجز الجهاز عن كشف ألوانه. لو وضعت يدي لأتت الصورة طبيعية، وقد لا تفهمين ذلك، لأنك لم تري أمرا مميلا له من قبل.

تدخلت ايما وقالت:

- أتعنين ما يطلق عليه الاورا.

- شيء يشبه هذا، لكن ما أعنيه هو الرؤية الحرارية للجسد بشكل أدق. عبر النظر من خلال الرؤية الحرارية يظهر هناك اختلاف في أسيا عني وعنك وعن باقي المرضى. ما تعرضت له قد لا يكون فقدان ذاكرة. نشاط دمك وحرارة جسدك عندما أتيت إلى هنا لم يؤثر عليك، لم تمرضي! بل النشاط الموجود في خلايا الدم كان واضحا من خلال التحليل الثاني، وهذا يشبه عبورك نطاق كبير

بسرعة كبيرة، لو أن هذا حدث في نطاق آخر لأحرق جسدك.

علقت أسيا أخيراً:

- لم أفهم ما تقولينه، أو تحاولين شرحه.

- سأخبرك بطريقة أوضح. تلك المذكرات فيها اختلاف عن خط يدك الفعلي.

هتفت أسيا بانفعال:

- هذا ما قلته، لقد زورها عمر.

- لا يا أسيا. أنت من كتبها. بعض الأجزاء لا اختلاف فيها، وبعضها الآخر مختلفة تماماً. كل المؤشرات توحى إلى أمر ما لم يحدث من قبل. أنت الآن هي أسيا ولكن لست أسيا في الوقت ذاته.

همست أيما:

- هل هذا لغز؟

رمت أليكس نظرة خاطفة على أيما، لم يكن هذا وقت السخرية فما تحاول أن تشرحه لهما عصي على الفهم، وقد يشكل صدمة فعلية لآسيا.

- أنت أسيا، لكنك أتيت من بعد آخر.

ساد صمت قصير، وحمل معه الإحساس بالمفاجأة. صفقت أيما بيدها وانفجرت بالضحك بطريقة هسترية. تراجعت للخلف، فضرب رأسها الجدار برقة. شهقت، وحاولت أن تعتدل في جلستها دون أن تكتم ضحكتها.

- من المجنون الآن؟ نحن، أم أنت؟

- توقف يا ايما. - نطقت أسيا التي لا تزال تحمل معالم الدهول على وجهها. - أستيقظ كل صباح وأفكر؛ حسناً أهذه هي حياتي الآن؟ هل هذا هو العالم؟ لم ينته أي شيء مما أعتقد أنه الكابوس الذي يسبق الراحة. أرى هذا العالم يفرض علي ارتداء هذه الحكاية حتى وإن كنت أرفض ألمها بطريقة صريحة. لكن من السذاجة أن نفكر في أن الحياة تنصف أحدا. كنت أفكر في حياتي، كيف تغيرت بهذه الطريقة؟ من الذي بدل موضع الأشياء فيها؟ من الذي أعاد ترتيب حياتي لتصبح بهذا الشكل؟

- كل تلك الذكريات التي تمتلكينها، قد تكون حقيقية في مكان آخر. قد تكون حبيبة فيه الآن!

هل أنت هناك؟

1

صفحات أسيا

3 مارس / 2019

لم أكن أعلم بأن هنا ستكون النهاية. المكان، الوقت.. كل شيء هنا لم يخبرني بأن النهاية آتية. ولا يمكنني أن أتظاهر بالدهشة، لأن الأشياء المضمونة بعيدة عن هذا العالم، وبعيدة عن الحياة كلياً، لكن ذلك الأمر حدث بطريقة لم أكن مستعدة لها، لأنني لم أطرح على نفسي تلك الفكرة يوماً.

للألم قدرة على التسلل إلى روح الإنسان، وإثارة الفوضى في كل ما تم ترتيبه هناك. وحين تصبح تلك الأركان مختلفة عما اعتاد المرء عليه، يصحبه هذا إلى مرحلة أخرى، إما أن يقبل بهذه الفوضى ويستأنف الرحلة بصورة تشبهها، أو أن يعيد ترتيب روحة واكتساب مناعة.

لكن ما حدث كان أقوى، وبعيدا حتى عن الصور أو فكرة المحاربة. ما حدث كان قاسيا إلى درجة ولدت بي رغبة في الطغيان على كل شيء. ولد في داخلي إحساس بالشر فجأة، وتحد لهذا العالم الذي

حاربني أنا. طرحت على نفسي هذا السؤال مراراً "لماذا أنا؟"

ساد الهدوء في ذلك المنزل بطريقة غريبة، وكان هذا هو الذي يسبق العاصفة. دلف جميل إلى حجرة المكتب الصغيرة والتي نادراً ما يجلس فيها أحد، ولا تزال كتب أبي تغطي جدرانها. أخبرني بلهجة تحذيرية أن حبيبة في الخارج تحاول تسلق الأشجار عند السياج.

- أخبرها أن تعود إلى الداخل. اعتمدت عليه في ذلك، وحمل جميل تلك المسؤولية بشجاعة وذهب ليخبرها.

راقبت من النافذة طيف الصبي وهو يجري إلى الحديقة ويخاطبها، لم تكن تلك الكلمات مسموعة، لكن بدت لي أنها تنصاع لرغبة. هبطت ووقفت إلى جوار شقيقتها.

خرجت من المكتب وقبل أن أصل إلى السلم سمعت الصوت الذي لم يكن هناك في العالم أبداً ما يشبهه. صرخت لأنني توقعت أسوأ المشاهد قبل أن أفهم ما كان ذلك.

- جميل.. عمر. - رحت أصرخ من دون أي هدف

ظهر عمر فجأة وخرج هو قبلي بينما أنا كانت قدمي لا تحملني على الجري إلى الخارج. سمعته هو أيضاً يصرخ وينادي حبيبة. رأيت جميل يقف عند السياج وعندما هبطت من فوق الشرفة كان عمر

يقف عند الطريق، وحبيبة بين ذراعيه. حملها وغطى نور الشمس
معالم وجهه، وترك بريقاً على خصلات شعر حبيبة.

لم يكن هناك دماء في أي مكان، لكن ما أن طرحها عمر على الأرض
حتى لمحت يده ملطختين بالدماء. حدث الأمر بهذه السرعة
الخاطفة. سقطت على العشب، وبدأت ارتعش. أصبح العالم من
حولي بارداً فجأة، وأطرافي أصبحت رهينة الخدر. لم أسمع أنيني
في تلك اللحظة، لكن الصوت الذي بدر مني كان مخيفاً

- حبيبة. - صرخ عمر بأعلى صوت لديه.

ظهرت رسيل بعد ذلك، والعديد من الأشخاص الذي هبطوا من
السماء فجأة وغطوا المشهد. كان هناك من يواسيني ويحاول حملي،
لكنني لا أتذكر من هو. لا أتذكر أي شيء ولا حتى كيف انتهى ذلك
اليوم، كل شيء حدث فجأة سلبت الحياة مني كل ما أريده.

شعرت بها.. روعي تحارب للخروج من بين أضلعي. الصوت الذي
ظل حبيساً في قلبي كان يتحول إلى لهب قاتل يحرقني. أردت
الصراخ أكثر، أردت البكاء، لكنني لم أفعل.

4 مارس / 2019

رحلوا جميعاً، حتى الأطفال كانوا مع رسيل. لم يتبق في المقبرة سوى أنا وعمر. كلانا كان يقف أمام قبر حبيبة كما لو أننا تماثيل المقبرة الصغير. حل الربيع في كل مكان، حتى بين القبور كانت الأزهار تتفتح. هل كانت تستقبلها؟

يبدو أمس كصورة التقطت مسبقاً ويزينها الآن إطار خشبي وتحجبها صفحة زجاجية عن الواقع. لم يبق منها سوى مفهوم تلك اللقطة، لكن مشاعرها تبددت مع رحيل لحظتها الفعلية. كأمل تبقى لدي هو هذا التذكار، بأن السعادة مرت من هنا ذات مرة.

أحاط عمر كتفي، وكنت أريد التأكد من أن هناك من سيقبض علي عندما أنهار، وكم كنت ممتنة لأنه ثبتني وقت وقعي. سقطت على ركبتي، وبدأت أصرخ، لم أشعر بدموعي لأنها تأخرت. حاول عمر أن يحملني لأنهمض، لكنني عاندت.

- أخبرني بأن هذا كابوس. أريد أن أموت.

أتى عويلي، كعواء الذئاب. حاد مزعج.. مخيف. كنت حزينة وكل رغباتي في الحياة تجمعت في أمر واحد، وهو الموت. أردت

الخلاص من كل هذا الألم.

- قلبي يؤلمني، أعد لي حبيبة.. أعدها لي. - قلتها وأنا أصرخ بينما ركبتني ترتخي على التراب الخشن تحتي.

حملني عمر بقوة أَلَمَت ذراعي. نهضت معه، ومشيت مترنحة بين قبضتيه إلى أن وصلنا إلى السيارة. ساعدني في الجلوس على مقعدي، وتولى هو القيادة. بسطت كفي على الزجاج البارد. لا أعلم هل كان ذلك توديعاً لحبيبة، أم رغبة مني في البقاء هنا.

حاولت أن أكنم بكائي، لكنني عجزت، وعندما تحركت السيارة صرخت لأنني كنت أشعر بالألم شديد، كان قلبي يتحطم وهذا بداية الألم، وشظايا قلبي كانت تخدش روحي وتشكل جروحاً حادة حارقة.

- لا ترحل.. لا ترحل. - رجوت عمر بعجز

ابتعدنا عن المقبرة وسلكنا الطريق المؤدي إلى المنزل. جلس عمر ساكناً، بينما أنا كنت أنهار على مقعدي وأفقد طاقتي. لم تعد لدي قدرة كافية على البكاء، بل جلست صامتة إلى أن عدنا إلى المنزل.

لا أتذكر كيف انتهت تلك الليلة، أو كيف نمت، كل ما أتذكره هو أنني جلست على الأرضية الخشبية في غرفة المعيشة طوال الوقت، وكان هذا يخيف الطفلين، ويخيف عمر. لم يقو على الاقتراب

مني، أو مساعدتي للخلود إلى النوم. قضيت ساعات وأنا على هذه
الوضعية عاجزة عن فعل أي شيء.

كل ما أفكر فيه هو العجز. تخيلت السماء، وأردت لصوت أفكاري
أن يصل إلى الله. كيف يمكنني أن أستعيد ابنتي؟ لا يوجد طريقة
يمكنني تجاوز الموت معها، ولا يمكنني أن أعيد الفتاة، لكنني قضيت
وقتي كله أفكر في أشكال المعجزات التي تعيد إلي ما فقدته.

6 مارس / 2019

أستيقظ فجأة، فأجدني هزمت أمام النوم الذي حاربتة. أرفع رأسي بطريقة مفاجئة عن ذراع الأريكة التي كنت لم أكد أبتعد عنها طوال اليومين السابقين. لا أجد أحدا بجواري فأبكي كالأطفال من جديد، وعندما يدرك عمر ما يحدث، كان يأتي إلي ويحاول مواساتي رغم أنني أرى الانكسار في عينه هو الآخر.

لم تكن هذه حياة، ولا ما أقوم به يشبه أفعال من يريدون الاستمرار فيها. كنت أتألم، بل إن الألم تصغير لما أشعر به. كانت روحي نصف عالقة في جسدي، ونصفها الآخر يحاول الفرار إلى أي فراغ آخر. ابتعد العالم عني، وتلاشت كل الأضواء التي أستطيع رؤيتها.

يكبر الألم في الإنسان إلى أن يتجاوز حاجز الأمل، فيصبح مطبوعا في روحه كما لو أنهم خاضوا هذه الرحلة معا منذ البداية، ولم يكن الحزن مجرد قاطع طريق. لم يكن من الصعب فهم حادثة ما أشعر به، بل بدا كأنه بعث معي إلى الحياة منذ اللحظة الأولى. أعيش في صدمة رحيل ابنتي منذ أيام، لكن قوة ما حدث، تجعل الأمر يبدو كأنه طال معي طوال سنوات حياتي.

- يجب أن تأكلي يا أسيا. - قال لي عمر ذلك وهو يجلس على ركبتيه بجواري.

- لا أريد.

خرجت العبارة من فمي بصوت مخنوق، لا يكاد يسمع ، لكنه فهم رفضي، وقبض على يدي بكلتا يديه. لم يكن هناك أي شيء يستطيع هو القيام به، ولحسن الحظ، كان هو الأقوى بيننا. كيف ستبدو الأمور لو لم يكن هو بهذه القوة؟

- إن كنت لا تريدين تناول الطعام، فعلى الأقل اخدي إلى الفراش لبعض الوقت.

فكرت في كل ما أحتاج إليه. تدفقت دموعي فجأة، وأنا أرفض بصوت واضح هذه المرة. أخبرته بأن كل ما أريده هو ابنتي، ولا شيء آخر سواها. شد عمر على يدي بقوة، ولم أفهم سبب قيامه بذلك، هل كانت تلك الحركة بداعي إعادتي للواقع.

- أعدّها لي يا عمر، لا أريد شيئاً سواها. لا يوجد طريقة لاستعادتها أبداً. لا يوجد.

لمعت عيناه هو الآخر، فأخفض رأسه، لكي يخفي حزنه عني:

- أتمنى لو أمكنني ذلك لكنني لا أستطيع.

أن استوعب عجزنا أكثر، كان هذا يدفع إحباطي إلى أقصاه. تركت الأريكة، وجلست على الأرض بجوار عمر. احتضنني هو وبدأت أبكي بحرقة أكبر. صرخت من دون أن يشكل صوتي أي كلمة مفهومة. لم يكن لدى زوجي أي حيلة يمكن أن يسكتني بها، لذلك تركني أبكي حتى تلاشت طاقتي.

2 أبريل / 2019

إنني أموت كل يوم.

لا أفعل أي شيء سوى أنني أستيقظ وأعود للنوم وسط هدوء المنزل. لا أكاد أستطيع تناول الطعام، لكن شهيتي كانت تتحسن في كل يوم، والنوم كان ينتظم من تلقاء نفسه. لكنني لم أعد أستقبل أي زوار في المنزل، ولا حتى أخرج مع عمر.

حاول عمر أن يرفه عن زهرة وجميل، وكان يراعيهم طوال الوقت، ويخرج معهم. لم يعرض أن أكون معهم، لأنه يدرك أن رفضي هو ما سيتلقاه. لم أكن أتخاطب معه، ولا نتبادل سوى بضع كلمات كل يوم. لم يشعر هو بالملل من ذلك، لكنه لم يحاول مواساتي بعد الآن.

لم أعد بين الأحياء. هذا ما يفعله الحزن. إنه يجعلك تتراجع عن صف الباقيين على قيد الحياة، ويجعل بريقك يخفت تدريجياً إلى أن تنطفئ بصمت وهدوء غير ملحوظين، لأن هذا لم يحدث فجأة. إنما ببطء الذبول مع الحزن، يجعل الآخرين غير مدركين لعملية تلاشيهم عنهم. خلال هذا الاختفاء، لا يعود وجود الآخرين مهماً، لأن العملية الفعلية هي ولادة معاناتك، ولا تعود راغباً في أن تفهم سبب ابتعاد الناس عنك أو وجودهم معك. كل ما ترغب به هو، أن تختفي طالما

معاناتك ستبقى موجودة. أن تنتهي هذه الحياة دون الدوران في هذه العجلة أكثر.

سرت إلى غرفة حبيبة فتحت الباب، وتركته مفتوحا. لم أشعل الضوء بل كنت مكتفية بضوء ما تبقى من النهار، والذي كان ينبعث من خلف الستارة المغلقة. كانت رائحتها حتى الآن موجودة في الغرفة، بل إن طيفها لا يزال هنا. يمكنني أن أراها وأسمعها أيضا. لم تكن تناديني، بل كانت تقفز فوق سريرها، وتجري على الأرض بعد ذلك. لم يكن هذا جنونا، ولم تخفني هذه الفكرة، بل كانت تعطيني بعض الراحة من إرهاق الحنين الذي أشعر به.

هذا الحزن.. هذا الحنين يعبث بداخلي، ويثير غرابة لم أكتشفها بعد. كل تلك الكوامن الشفافة لا يمكن شرحها، أو حتى رؤيتها فهي أصعب من أي ألم آخر.

- علمت بأنني سأجدك هنا.

رفعت رأسي لأرى رسيل تقف عند الباب، وتحجب ضوء الممر العالق عنده. ضغطت على مفتاح المصباح، فاشتعل ضوء الغرفة. تقدمت وجلست على الأرض بجواري، وراقبنا تفاصيل الحجرة معاً. بدت منبهرة بالتفاصيل، كأنها ترى المكان للمرة الأولى.

- لا يمكن أن تستسلمي للأمر بهذه الطريقة. أسرتك تحتاج إليك.

- إنني أحاول، لكن..

قاطعتني:

- لا، لست تحاولين أي شيء. عليك أن تستعيدي زمام الأمور. لن يعيد الحزن أي شيء، لن يغير ما تفعلينه حقيقة ما حدث.

- الغريب هو أنني وإن عدت بالزمن للوراء، فإنني لن أتمكن من تفادي هذا الطريق، لأنني لا أعلم أين هو الخل تحديداً. لكنني لا أستطيع التساهل مع ما أشعر به، ولا حتى تفاديه.

- لكن يمكنك التعايش معه. هيا، كوني قوية وافعلي ما يجب أن تقومي به. يمكنك أن تراجع أحد الاستشاريين، وسيعطيك حلاً يمكنه تسهيل هذا الأمر. لا يعني الموت نهاية كل شيء، ما زلت تملكين المزيد، والتعايش مع وجودهم، واجب عليك فهم أسرتك.

17 أبريل / 2019

رتب لي عمر جلستين حتى الآن مع أحد المختصين النفسيين في حالتي، وهو يدعى ليث. كان يساعدني في التقدم، لكن جلستين لم يكن التقدم فيهما واضحاً. البداية كانت مبشرة نوعاً ما، وكنت مستعدة للاستمرار معه. بدأت أتحسن، وأحاول التصرف على طبيعتي مع عائلتي. كان الألم يعتصر أضلعي كل مساء، وفي الصباح أرتدي قناع الضحك، وأجاهد لموازاة الواقع مع حياتي الآن.

في المساء سمعت صوت حبيبة، أمي، وأبي. سمعت صوت جميل أفراد عائلتي. ظننت بأنني لو هبطت للطابق السفلي، فإنني سأجد عمر برفقة الطفلين، وسأقتل شكي باليقين عندما أراهم، وأدرك أن لا وجود لحبيبة أو والداي. سمعت صوت ضحكاتهم، صوت قعقة الأواني يوحي بأن هناك عدداً كبيراً من الأشخاص في المنزل.

هبطت إلى الطابق السفلي لكنني لم أجد أي شيء. كان المنزل خالياً، فعمراً اصطحب الطفلين في رحلة قصيرة. لا يزال الصوت موجوداً، لكن يصعب عليّ تحديد موقعه. بحثت في كل الأرجاء، وعندما عجزت جلست في المكتب، وحاولت أن أغلق أذني عن الصوت فأصبح أبعد عني لكنه لا يزال موجوداً.

أنا أتخيل، كل هذه أوهام نسجها ذهني ليداعبني.

أدركت أخيراً أن الصوت كان آتياً من زاوية أبعد. تبعته حتى وصلت إلى الباب المؤدي إلى القبو. بدا الصوت أوضح. ناديت بصوت خافت: "حبّية". إنها هناك خلف ذلك الباب.

فتحت باب السلم، وهبطت إلى القبو فتلاشى الصوت، لكنني وجدت ما تركه أبي هناك من قطع الخردة، وأشياء لا لزوم لها. بعض القطع كانت تشبه الهوائي الكبير الذي يستخدم للتلفاز، وأخرى شكلها غير محدد كشباك العنكبوت الكبيرة.

تركت القبو غارقاً في ظلامه، وعدت إلى الطابق الأرضي. جلست هناك منتظرة عودة أسرتي إلى المنزل. أعلم بأنهم سئموا من حالتي الآن، والأطفال يهابون وجودي لأنني أتصرف بغرابة، لذلك أحاول التعويض الآن عن كل ذلك.

رأيت سيارة عمر تقترب من المنزل، وفكرت فيما إذا كان علي أن أخبره بشأن خيالي وأوهامي أم لا. لعله يساعدني في التخلص من هذه الأفكار التي تقودني إلى الجنون.

لا يمكنني إطلاق العنان لكل هذا الجنون، وإلا فإنني سأرعب الجميع، لمجرد أنني حاولت أن أريهم مدى بعد أفكاري. تفاقم إحساسي بالعجز، وبدلاً من الاعتراف بما أشعر به، رحت أفكر في حقيقة بدلاً من ذلك.

لم أعد أكتب هنا كثيراً، وهذا يعني أمراً واحداً، هو تخلصي من الحاجة إلى هذه الطريقة العلاجية. لكن الأهم من النشاطات العلاجية، هو ما توصلت إليه أخيراً. انقضت الأيام الأخيرة في بحث طويل، واكتشافات لم أعهد لها من قبل.

هذا الأمر لا يصدق، ولا أعلم كيف تمكن أبي من إخفائه.

أصبحت أختفي كثيراً في الأيام الأخيرة، ولم يجرؤ عمر على طرح السؤال علي، لأنه يعتقد بأن هذا يساعدني على الشفاء. لكن ما كان يساعدني على التعافي مما كنت عليه.. إنه هو، ولا أحد سواه. وجدته الآن، ولا يمكن أن أجد خلاصي مع سواه.

لن يفهم عمر أفكاري، ولن يغفر لي ما أخطئ له بكل تأكيد. إنه إنسان واقعي رغم أنه طيب القلب. هو الآن يعتقد بأنني مختلة، وما أقوم به سيجعله يراني بنظرة الذنب طوال حياتي. لن يكون متسامحاً كما هو عليه بالعادة، لذلك، لن أخبره.

لا يمكنني اصطحابه معي، لا يوجد متسع إلا لي أنا.

17 يوليو / 2019

لدي خطة مدروسة، ولم يتبق أمامي سوى المراقبة. علي أن أراقب ذلك المنزل، ولو تطلب ذلك جهدي كله، علي أن أرى كيف تسير الحياة هناك، ومن ثم سأتمكن من اقتحام ذلك المكان وأخذ ما أريده. سينتهي كل هذا الألم قريباً.

أشعر بالذنب أحياناً لأنني أرفض الاحتفاظ بكل الأسوار التي تحاول حمايتي. ما أريده الآن هو الذهاب بعيداً إلى ما خططت له مطولاً. كانت للتفاصيل الصغيرة قدرة لا تقل قدرأ عن التذكارات التي الحنين لمن أحببناهم. كلما مرت فوق الجرح كنسيم أوقد الألم في جوفه. هذا الشعور كان كافياً لأن نرى الاختلاف الأصعب في القدرة على استمرار الآخرين فوق هذا الألم. بينما نرى نحن تجاهلهم لهذا الحزن المشترك، ولا نستطيع حتى مقاومة الضعف والخروج من نطاق الأسى.

الآن اكتشفت المفتاح، ولم يبعدني عنه حتى الآن سوى الغباء، لم أدرك بأنه كان قريباً مني إلى هذا الحد، وأنه يقع في قبو والدي.

20 سبتمبر / 2019

8:00 صباحاً / الضاحية الغربية

فكرت أسيا مطولاً بما كانت تقرأه. لقد ختمت قراءة يومياتها، ولم تتوصل إلى أي نقطة مهمة. اتهام عمر لها بالإهمال كان واضحاً، وهذا ما كانت تعترف هي به من خلال المذكرات. تحولها إلى شخص آخر غريب وانعزالي أيضاً أوحى له من خلال مشاعرها. لكن ما الذي حدث في الأيام الأخيرة؟ ما الذي اكتشفته في قبو والدها، وجعلها تبتعد عن أساليب العلاج؟

إذا هي تتوهم كما ذكر عمر هذا، والمرض جزء حقيقي، ولم يعد أمراً مشكوكاً به. لكن حتى هذه اللحظة أسيا لا تتقبل هذه الفكرة، لأن فكرة اليكس والتي يلفها الجنون، بدت منطقية أكثر، وأسهل حتى. تقول أسيا في مذكراتها أنها وإن أعادت الزمن فهي لا تعرف أين الخل، وهذا ينطبق عليها الآن. ماذا لو أعادت الزمن؟ ما الذي ستكتشفه؟ لا شيء حتماً، لأنها حتى الآن لم تكتشف مكن الخل الذي أدى لتحول حياتها إلى هذه المرحلة الآن.

- ما كتبته هنا.. أعني الأشياء التي كنت أسمعها، وبحثي عن حبيبة.
هذا يشبه ما رأيته مع جميل قبل خروجي من المنزل. كان الطفل
يتجه إلى القبو، وهو ينادي حبيبة، كان يعتقد بأنه يسمعها. إن الأمر
يتكرر هنا في المذكرات.. معي أن من قبل! هذا لا يجعل الأمر وهماً،
طالما تم تكراره.

بدت ايما أكثر انتباها من اليكس، فطلبت تفسيراً أوضح للأمر:

- أعني.. ذكرت في مذكراتي بأنني أستمع إلى بعض الأصوات في
المنزل، عائلتي.. حبيبة، وكان المصدر يبدو آتياً من القبو أحياناً.
رأيت جميل يتجه للقبو ويحاول الإصغاء خلف الباب، وهو ينادي
حبيبة. المشهد ذاته يتكرر معه هو. لا يمكن أن يكون كلانا قد تخيل
الأمر، هناك أمر ما في قبو منزل والدي، وهذا ما جعلني أكف عن
كتابة مذكراتي.

أشرت للصفحتين الأخيرتين في المذكرات، وأعطيت الدفتر لأيماء
حتى تقرأه، ومن ثم شاركتها اليكس في ذلك. كررت أليكس قراءة
الأوراق وحدها. رفعت رأسها وراقبتني بنظرات ضيقة، وكأنني
متهمة بفعل أمر سيئ. طرحت الدفتر وسألتني:

- ما الذي كانت تخشاه أسيا الموجودة هنا من عمر؟ ما الذي
حاولت أن تخفيه؟ أي منزل كان عليها تراقب، وكيف ستجد
الخلاص؟

انتصفت ايما المسافة التي تفصل بيني وبين أليكس، ثم قالت بطريقة هجومية، لأنها اكتشفت ما لم ندركه نحن من قبل:

- إن كانت نظرية أليكس صحيحة، وأنت آتية من بعد آخر لا تزال فيه حبيبة على قيد الحياة، فأين هي آسيا التي فقدت ابنتها الآن؟ أين هي صاحبة هذه الأوراق؟

فغرت أليكس فاها، ثم أصدرت صوتا ينم عن الدهشة. لم أستوعب الأمر بعد، أو تظاهرت بأنني لا أفهم ماذا يجري. نقلت أليكس عينيها بيني وبين ايما، ثم ضربت كتف ايما، قبل أن تقهقه بصوت مرتفع:

- هذا هو المغزى، إنها.. إنها محقة. أين هي آسيا التي فقدت ابنتها؟ آسيا التي تنتمي إلى عالمنا، لم تعد موجودة لأن هذا العالم لا يتسع لشخص تكرر مرتين.

سألتهن بقلق:

- هل.. هل هذا يعني، أنا الآن مع عائلتي، في مكان آخر؟ في البعد الذي أتيت منه معلا؟

هتفت ايما:

- تهانينا، أنت ذكية يا آسيا.

- هذا يعني أن عائلتي تعيش مع غريبة حولها الحزن إلي شخص شرير استولى على حياتي ليعوض ما فقده. إنها الآن مع أسرتي الحقيقية بدلاً من حياتها المحطمة هنا. لكن.. لكن كيف سأعود إليهم؟

هزت أليكس كتفيها:

- هذا ما لا أفهمه.

اكتشفت ايما اللغز من جديد:

- مدينتك، منزل والدك.. القبو.. أو حتى أصدقاءه.

- وليد.. لا بد من أنه يعرف شيئاً ما، علي أن أتحدث إلى جميل حتى.

- وان نقتحم القبو يا أسيا. - قالت أليكس ذلك بحزم.

طلبت أليكس منهن الاستعداد للخروج من هنا. كانت تلك مخاطرة منهن، لكن الانتظار سيكون مضيعة للوقت فقط. لا بد من المخاطرة الآن، لأن كل دقيقة تمضي تجعل الخطر يصبح أكبر.

ضاق الطريق وأصبح كعرق صغير مربوط بأطراف هذه المدينة. حشرت المباني الضخمة شكل الطريق الطويل، لكن سيارة أليكس، كانت تقطع السيارة بسرعة منتظمة مختركة الهدوء الذي يتبع ساعة زحام بداية اليوم. قادت ايما السيارة، بدلا من أليكس التي بدا عليها التعب واضحا. أرادت أليكس أن توفر طاقتها لما هو قادم، فقد كانت تستشعر قدوم موجة مفاجئة تتطلب التصدي بقوة. طلبت أليكس أن تعود إلى منزلها، رغم وجود الخطر إلا أنها تحتاج للعودة إلى هناك، حتى تكتمل خطتها.

- هل الأمر ضروري إلى هذا الحد؟ - سألتها ايما بينما كانت تتمسك بالمقود بحرص.

استرخت أليكس على مقعدها في الخلف، وفكرت في أهمية ما ستقوم به. قد لا يكون الأمر بهذه الأهمية المتوقعة، لكنها لا تريد تفويت أي فرصة قد تحمل تفسير أو إجابة.

- ليس من عاداتي إهمال أي جانب، قد يكون فيه إجابة لتساؤلاتي. لا أريد تفويت أي فرصة، من دون أن أغتنيها.

لم تعترض ايما على مبدأ أليكس، وقادت السيارة باتجاه المبنى الذي تعيش الطيبة فيه. كانت ايما تعرف المكان، وما زالت تتذكر شكل الشقة.

- لا تقتربي. - نبهتها أسيا، ثم أردفت - دعينا نتوقف في مكان

بعيد، ونسير إلى هنا. قد يكون المكان تحت المراقبة. دعونا لا نجازف في هذا.

اعتدلت أليكس في جلستها أخيراً، وقالت:

- استديري حول المبنى، واركني السيارة هناك. المكان آمن غالباً.

فعلت ايما ذلك، وأوقفت المركبة عند الجهة الخلفية للمبنى. قبل أن تترجل منها لتتبع أسيا، واليكس. عبرن من خلال المدخل الخلفي. أدخلت أليكس رمز المرور عند المصعد، فارتفع بهن إلى شقة أليكس. كان باب الشقة مغلقاً، لكن ما أن فتحته أليكس، حتى وجدت الفوضى تملأ المكان كله. لم يتركوا شيئاً في مكانه السابق. استغرقت عشرة دقائق تفقدت خلالها ما كان مفقوداً من منزلها.

- لم يأخذ المقتحم أي شيء. إنما كان يفتش عن أدلة. - علقت أليكس.

سألت ايما:

- هل هم الشرطة؟

- لا أعلم قد تكون هذه الثقة نابعة من رجال الشرطة، لأن أحداً لن يعاقبهم.

تدخلت أسيا أخيراً:

- أو ذلك المطارِد. لن يهتم كيف تبدو شقتك بعد رحيله، طالما يمكنه القتل بسهولة، دون أي اكتراث. والآن عليك أن تسرعي، حتى لا يكتشف أحد وجودنا هنا.

اختفت اليكس وقتاً لا يزيد عن دقيقتين، ثم عادت والحماس ظاهر على محياها. أمرتهن بالمضي إلى الخارج، وتبعتهن بخطى واثقة. قادت ايما السيارة من جديد، ولم يعترض طريقهن أي خطر. لم تحدد أليكس وجهتها القادمة، لكنها كانت تعطي الاتجاهات المقصودة لأيما التي تولت القيادة.

- إلى أين نتجه؟ - سألت أسيا.

- هناك شخص أعتقد بأنه يحمل بعض الإجابات عما نبحث عنه.

رفعت ايما عينيها لترى وجه أليكس في المرأة، رفعت حاجبيها باندهاش، لكنه سرعان ما زال. بالنسبة لأيما البحث عن إجابات يبدو أصعب من فكرة طرح السؤال، فهي ترى بأنها أكثر من جاهد للبحث عن الإجابات في الحياة، قبل أن تتخلى عن الرغبة في التعلق بالحقائق، والعيش بالوهم المناسب لها. هذه سرقة، أن تترك الواقع لترمي أفكارك في أوهام أخف وطأة، يعد سرقة لوقتك الخاص. نحن نبذل الحاضر في صنع خيالات مناسبة تشبع ما لا نجده في الواقع.

- أسيا. - نادت ايما وهي تنظر إلى المقعد المجاور لها. - ماذا لو كانت هذه النظرية ليست صحيحة، ونظرية زوجك هي التفسير الوحيد. هل ستتقبلين رحيل حبيبة؟

لم تفهم أسيا أين كان هذا الاحتمال من قبل. طرحت على نفسها هذا السؤال، لكنه لم يكن بهذه الجدية. هل ستتقبل موت حبيبة، إن كان ما يعنيه عمر حقيقيا؟ لن تكون هناك حيلة أخرى.

- سأستسلم أخيراً. لتكن هذه المحاولة الأخيرة.

- هل هناك دائماً محاولة، نطلق عليها الأخيرة، بينما هي ليست الأخيرة، فقط لنرضي الجزء الذي يبذل مجهوداً منا؟ لا أعتقد بأن هذه المحاولة ستكون الأخيرة؟

- لا يمكنني أن أتوقع أفعالي الآتية يا ايما.

صمتت ايما وكان في صمتها استرجاعاً لبعض الذكريات التي خرجت فجأة من فمها:

- مات أخي وأنا طفلة، كان هو طفلاً أيضاً، ويكبرني بعام واحد. تسبب ذلك بابتعاد أُمي عن الواقع، لكن ليس إلى حد يجعلني أنساها. حقدت عليها لأنها أحبته أكثر مني، ولأنها تخلت عن الحياة لمجرد رحيله هو وكأن بقائي لا يعني أي شيء. كرهت أخي بعد موته، لأنه تسبب لها بذلك، ثم كرهت الموت بأكمله، لأنه سلبني أخي، وترك أُمي

على حافة الهاوية، تحارب لأن تكون بيننا، لكن الحزن يكتم حياتها.

لو كانت تلك العائلة عائلتها الحقيقية فهي لن تغفر لنفسها ما تقوم به الآن، لكن لو كانت أسيا الأخرى هي من تركهم، فهي من عليه أن يتحمل هذا الذنب.

- الوحدة في ذلك الوقت، كانت أصعب تجاربي، ولا تجعلني أطفالك يخوضون هذه التجربة بعد الآن.

أصغت اليكس إلى ما كانت تقوله ايما، دون أي تدخل. هذا الجانب كان مخفيا في ايما. لم تكن عقدتها هي الفراغ والملل، أو حتى شعورها، بأن لا هدف لديها في الحياة.

توقفت السيارة أمام حرم كلية العلوم الأمريكية، وهي منشأة أهلية، لا تبعد سلطة الحكومة عنها. راقبت ايما قمة المكان العصري، والذي يختلف عن مبنى الجامعة الحكومية في العاصمة حيث تعمل فيرا. بحثت ايما عن مكان فارغ لتركن السيارة فيه، وما أن وجدته، انطلقت النساء الثلاثة باتجاه المدخل الجانبي للحرم الجامعي.

9:37 صباحاً / الكلية الأمريكية للعلوم والأبحاث

- لدي صديق هنا، مهتم بالعلوم الفيزيائية، وأعتقد أن نظريتنا ستكون مثيرة للاهتمام بالنسبة له. لديه بعض المحاضرات المتعلقة بالفيزياء الكونية، ولديه نظريات خاصة حول هذا الأمر.

لم تفهم أسياً ما الذي تعنيه الفيزياء الكونية، ولا تعرف حتى الآن ما الذي سيعود عليها به وجودها هنا. لكن ايما بدت أكثر استيعاباً للأمر.

- هل تقصدين ليام ستيوارت؟

أثار سؤال ايما دهشة اليكس، لا يوحي طيش ايما، بأنها تملك هذا القدر من المعرفة وإن كان ضئيلاً. ما الرابط بين ايما وهذا الأستاذ؟ هذا السؤال كان يكرر نفسه في ذهن أليكس. عادت اليكس إلى منزلها حتى تأخذ هويتها الجامعية، فهي أيضاً كانت تلقي بعض المحاضرات هنا، وهذه البطاقة كانت بمثابة مفتاح الدخول بالنسبة لها.

- قرأت أحد كتبه ذات مرة. لا تبدو لي نظرياته منطقية دائماً، لكنني لا أنكر بأنه نابغة في هذا المجال.

- أنت تدهشينني يا اйма. - قالت أليكس ذلك وغمزت لأйма.

شعرت أسيا بالدوار فجأة، أصبحت خطواتها أبطأ مما جعل أليكس تتوقف فجأة وتستدير لترى أسيا الواقفة بجوار الحائط. بدا لها هذا الدوار طبيعياً، فهي أنجبت ثلاثة أطفال من قبل، وتعرف كيف يمكن للمرأة الحامل أن تشعر.

- أنا بخير. - قالت أسيا، ومضت برفقة أليكس. - مهلاً.. لهذا السبب يظنني عمر خائنة!

توقفت أسيا عن المشي فجأة، فتحت فمها دهشة. هناك دليل آخر على نظرية قدومها من بعد آخر:

- يظن عمر أنني أخونه، بينما أنا متأكدة من أنه هو والد طفلي. لكن الطفل.. هذا الطفل، هو بالعقل ليس ابن عمر. أعني أنه والده لكن في البعد الآخر، لذا السبب نحن نحمل ذاكرة مختلفة. أنا حامل بطفل عمر الموجود في البعد الآخر، بينما الأب الموجود هنا، يظن بأنه لم يحدث بيننا أي شيء إطلاقاً.

تحركت أسيا خطوة إلى الأمام، وقبضت أليكس على يدها حتى لا تأتيها نوبة الدوار من جديد:

- بل وحتى أصدقائي. هم ليسوا أصدقائي هنا. لمياء صديقتي

المقربة في البعد الآخر، لكنها هنا لم تلتق بي منذ سنوات، وهي متزوجة، بينما هناك هي امرأة ناجحة وعزباء.

هزت أليكس رأسها، وهي تؤيد استنتاجات أسيا. حدثتني ايما على الماضي إلى ما أتيت لسببه، قبل أن يدرك أحد وجودهن هنا. قادتني أليكس إلى مكتب الأستاذ ليام، ورجت الله أن يكون موجوداً، وأن لا تذهب هذه المجازفة هباء.

- اليكساندرا! - نهض ليام من كرسيه، وترك قلمه يتدحرج فوق الورقة البيضاء، ويثبت تلقائياً.

تقدمت أليكس وصافحته، ثم أتاحت المسافة الكافية لأن يصبح وجود أسيا وايما واضحاً. ألقى ليام نظرة من فوق زجاج نظارته، ثم أعاد بصره إلى أليكس ليرى مظهرها الذي لم يعتد على رؤيته بهذه الطريقة. كان ليام أصلع في نهاية العقد الخامس من عمره، برزت له كرش في السنوات الأخيرة، لأنه لم يكن من هواه الحركة كثيراً، ومعظم وقته كان يمضي في المكتب حيث يقوم بمراجعة دراساته التي يجمعها ويحاول تبسيطها ووضعها في محاضراته.

دعاها للجلوس، وكان الكرسي الوحيد الموجود متاح لها هي، لكنها لم تفعل ذلك، بل فضلت البقاء واقفة، وتركت الكرسي لأسيا المرهقة. جلست أسيا، وراقبت الألفة الغريبة بين أليكس، وليام.

- ما الذي أتى بك بهذه الطريقة المفاجئة؟ هل أنت في إجازة.

هبطت عيني اليكس لتري مظهرها مرة أخرى، ثم قالت:

- أنت لا تتابع الأخبار إذا. أنا هاربة من الشرطة.

ظهرت الدهشة على عيني آسيا، لكن أليكس أرسلت لها نظرة اطمئنان، وكانت تعني أن ليام محل ثقة، لكن آسيا لم تتمكن من الوثوق به بهذه السهولة.

- هاربة؟ ما الذي حدث؟

لم يظهر القلق على ليام، بل كان الفضول هو من تسيد مشاعره. حاولت اليكس أن تشرح الأحداث الأخيرة لليام، ومن ثم أخبرته عن شكها في انتقال آسيا من بعد لآخر. كان لديها بعض التحاليل التي تقوي هذا الشك، لكنها مع منصور الآن.

نقل ليام نظرة بين أليكس وآسيا، ثم قال فجأة:

- لقد كان والدك من أهم المكتشفين في هذا المجال. إنه صديق لي، بل ومنافس في الوقت ذاته. عملنا معاً على بعض الأفكار، لكن بعد موت والدك تغير كل شيء، وتلاشت كل خططنا.

- أنت تعرف أبي إذا؟

أكد ليام على ذلك:

- إنه صديق لي، ومن الغريب أن لا تكوني على اطلاع بإنجازات والدك.

- ما أتذكره عن أبي هو تقاعده، ووالدتي لا تزال على قيد الحياة. أما والدي الموجود هنا فأنا لا أتذكر موته حتى.

رفع ليام يده، وفرك جبهته:

- هذا صحيح، إن كان النص يسير وفقاً لما تظنه أليكس، فإنه من الصعب أن تعرفي ماضي والدك هنا. لكن لنكن صريحين. أنا مهتم بهذا العلم، لكن يبقى من الصعب تصديق ما أراه الآن. لقد عجزنا عن الوصول إلى حد فاصل بيننا وبين أي بعد آخر، فكيف أرى شخصاً من مكان آخر ويجلس أمامي بهذه البساطة.

تدخلت إيما التي كان وجودها منسياً:

- هذا ما أتينا لنستوعبه جميعاً. نريد إثبات هذا الأمر.

ظهر تعبير دفاعي على وجه ليام، وقال أخيراً:

- والدك كان شغوفاً بفكرة الانتقال إلى مكان آخر، وكان دائماً يؤمن بوجود أبعاد عديدة. بل إننا عملنا على تجارب مشتركة معاً، لكنني لم

أفهم كيف يحدث هذا الأمر معك أنت، وليس هو.

أخبرته أسيا عن دفتر اليوميات، وشرحت له عن القبو:

- أشارت أسيا التي في المذكرات، بأن القبو كان نوعاً ما هو المعمل الذي انطلق منه والدي. قالت إن الخلاص كان هناك. قد يكون والدي ترك المفتاح اللازم في القبو. تلك الأصوات التي تنبعث من هناك، حبيبة التي سمعت أسيا صوتها، بل وحتى جميل. اعتقد بأنهم كانوا يسمعون الأصوات التي تنبعث من منزل أبي في البعد الآخر. حيث حبيبة لا تزال على قيد الحياة، ووالدي هناك لا يزال يسمع الموسيقى.

- هذا يبدو منطقياً نوعاً ما، لكن لو أخبرت أي شخص آخر بهذا الأمر، فإنه لن يصدق.

شعرت أسيا بأن ليام يحارب ظنونهم التي تزداد قوة.

- مهلاً. إن أبي لا يستمع إلى الموسيقى غالباً، لكن في منزله الآن توجد عدة أسطوانات.

- ما الذي يفترض بهذا ان يعنيه؟ - سألت أليكس.

- الموسيقى التي تنبعث، هي من نوع الموسيقى الموجود في منزلنا الحالي، لكن أبي الحقيقي الذي عشت معه هناك، لم يكن من

هواة الموسيقى أبدأ.

تلاشى الهدوء المحيط بالمكتب، وأتت الضوضاء الخارجية عبر النافذة الزجاجية الضخمة خلف كرسي ليام. استدار هو ليرى منظر الحرم الجامعي المتاح له، وعندما أدرك ما يراه التفت لأليكس، وقال:

- اليكساندرا، إنهم رجال الشرطة.

- يا إلهي، علينا الخروج من هنا.

- مهلاً، سنلتقي بعد ساعة في المكان الذي اعتدنا أن نتناول الغداء به.

هزت أليكس رأسها، وخرجت بسرعة بصحبة ايما وأسيا. عبرن الممر الذي دخلن منه، لكن رجال الشرطة كانوا يعبرون من الباب الموجود في بداية الممر. استدرن وتفادين نظرات رجال الشرطة، لكنهم اكتشفوا وجودهم.

- المكان مليء بالشرطة، لا جدوى من الهرب. صرخ أحد الرجال.

عمت الفوضى في المكان، وبدأ رجال الشرطة بالتوافد إلى الحرم الجامعي.

- سيكتشفون مكان سيارتنا وسيأتون إليها يا أليكس. قالت أسيا

ذلك، وهي تجر خطواتها للمضي خلف أليكس.

فكرت أليكس في خطة، وقالت:

- سنسلك المخرج الجانبي، ونترك سيارتي هناك.

- لا لدي خطة. - قالت ايما.

فردت ذراعها أمام أليكس، ومن ثم طلبت منها المفتاح.

- سأجعلهم يتبعونني، سأكون الطعم، بينما تهربن.

- لست مضطرة لذلك. إننا فريق واحد، وسنكمل معاً.

فردت ايما يدها بإصرار، طلبت المفتاح:

- سنلتقي من جديد لتأخذي سيارتك مني. لن يقوموا بأي شيء.

إما أن أعود للمستشفى، أو إلى منزل والدتي. هذا يجعل من وجودي ذا نفع أكبر. هيا لا وقت لدينا.

نظرت أسيا بحزن نحو ايما، ثم ارتمت عليها واحتضنتها قبل أن

تقول:

- في ظروف أخرى، كنا سنصبح صديقتين.

- ونحن كذلك يا أسيا.

- ابحتي عما يجعل الحياة أفضل، لا تستسلمي لأفكار لا وجود لها.
- قالت أسيا ذلك وهي تبتعد عن ايما. ثم نظرت مباشرة إلى وجهها.

أخذت ايما المفتاح من أليكس، وقبل أن ترحل، استدارت وطلبت
أمرا أخيرا:

- إن عدتِ إلى هناك، وكانت هذه القصة حقيقية، ابحتي عن
صديقتي، اوليفيا جيمس كارتير. إنها ميتة في عالمنا هذا، لكن لا أعلم
إن كان الأمر تكرر في عالمكِ أنت.

لم تنتظر ايما إجابة، بل مضت بعيداً عنهن، ولوحت باليد التي
كانت تحمل المفتاح. اختفت في نهاية الممر، ومع رحيلها مضت
اليكس في الاتجاه المعاكس برفقة أسيا بحثاً عن مخرج جانبي
يمكنهن العبور منه إلى الخارج.

11:37 صباحا / العاصمة

- لا أعتقد بأنه سيأتي يا أليكس.

لا يمكن أن تصبح تضحية ايما غير نافعة، يجب أن يظهر ليام، وأن يساعدن للحصول على إجابة تحدد موقعهن في هذه المؤامرة. عقدت ألكيس أصابعها حول بعضها، وضغطت على كفيها، بينما هي جالسة بجوار أسيا، وأمامهن كرسيان فارغان، أحدهم سيكون لليام. زفرت وراحت تهز قدمها فجأة، وهذا بحد ذاته كان يوضح مدى قلقها. ماذا لو كان هذا كمين؟

- إنني أثق به، رغم أن صداقتنا ليست متينة، لكنها مبنية على الثقة.

قاطعتها أسيا، وقالت:

- لا يمكنك الوثوق في الآخرين، لمجرد أن عليك الوثوق بالآخرين.

- ليس الأمر بهذه الطريقة. أنا وليام لسنا أصدقاء، بل إن علاقة صداقة جمعتني به لفترة قصيرة قبل أن أخرج. لقد كان شخصا جيدا، لم يجرحني يوماً، بل على العكس أنا من ابتعد ليتفرغ للعمل،

حتى قابلت لوك في النهاية و..

نظرت أسيا نحو أليكس، وترقبت تنمة الحكاية، لكن الصمت المفاجئ، يوحي بأن الجزء الذي لم يظهر كان مؤلماً. لم تتدخل أسيا لمعرفة الحقيقة، بل تركت لأليكس المساحة التي تكفي لأن تشعر بالراحة إن كانت راغبة في قول ما تريده. رأت أسيا عنق أليكس وهو يتحرك بعد أن ابتلعت ريقها، ثم أخفت عينيها. تسالت ذراع أسيا على الطاولة، وربتت على كفي أليكس برفق:

- هذه هي أول مرة تبدين فيها أضعف من المعتاد.

أغلقت أليكس عينيها بقوة ثم فتحتهن بثقة وقالت:

- أكره أن أكون ضعيفة.

- لست كذلك، إنما أنت أقل قليلاً من صورتك المعتادة، وهذا لا يعيبك أبداً. كلنا نحتاج إلى هذا الهبوط، لأن تفريغ لسم الأحزان النفسي. التعبير عن الحزن لا يقلل من قيمة المرء، بل هو يعيد تدوير مفاهيمه وآليات الدفاع والهجوم لديه. سيعطيك التعبير عن الحزن بعض الإجابات.

تأملتا الزجاج الكبير الذي يفصل بين المقهى المزدحم والطريق. في تلك اللحظة تفرعت أفكار كل منهما، عادت تساؤلات أسيا لتدور حول عائلتها، بينما كانت أليكس تترقب وصول ليام. للألم قدرة على

التسلل إلى روح الإنسان وإثارة الفوضى في كل ما تم ترتيبه هناك، وحسن تصبح تلك الأركان مختلفة عما اعتاد الإنسان عليه، يصحبه هذا إلى مرحلة أخرى، إما أن يقبل بهذه الفوضى ويستأنف الرحلة بأخرى تشبهها، أو أن يعيد ترتيب روحه واكتساب مناعة.

- ها هو.

هتفت أليكس، وهي ترى ليام يقطع الطريق وصولاً للمطعم. انعطف مع الرصيف، ودار حتى وصل إلى المدخل. دفع الباب وأشار لهما على الطاولة، فلم يقاطع دخوله أحد. سار بخطوات كبيرة إلى أن وصل إليهما، سحب كرسيًا وجلس قبالة أليكس.

- اعتذر عن هذا التأخير. كانوا يحققون معي.

- آسفة لوضعك في هذا الموقف. - قالت أليكس.

أشار ليام بيده، قبل أن يخبرها بأنه لم يتأثر بما حدث، وهو في صفها، وليس في صف العدو، وإن كان العدو هو رجال الأمن.

- هل ايما معهم؟ سألت أسيا لتقطع الحوار الذي دار مباشرة بين ليام وأليكس.

- لست متأكدًا.

أعطاهما هذا بعض الأمل. لم يكن أي من الأشخاص الثلاثة راغبا بتناول الطعام، لكن ليام اعترض لأنه يشعر بالجوع، ولأن الإرهاق كان واضحا عليهما كذلك. وبينما فتح قائمة الطعام أرسلت أسيا نظرة تساؤل لأليكس، والتي بدورها هزت رأسها إشارة منها لأسيا حتى تمحو شكوكها تجاه ليام.

بعد أن أملوا طلبهم على النادل سلم ليام قوائم الطعام للشاب، ونظر إليهما من جديد وهو يقول:

- إذا. أنت تعتقدين بأنك أتيت من مكان آخر شبيه بهذا المكان؟ موت ابنتك هنا، والتغييرات التي وجدتها هي ما أوحى لك بذلك؟

استشعرت أسيا بعض السخرية في صوت ليام، فأجابت بغضب:

- هل كنت تصغي لنا قبل قليل؟ أليكس من اكتشف هذا التغيير، بينما كنت أعتقد بأن هناك مؤامرة تحاك حولي. يعتقد الجميع أنني مجنونة، لكن الواقع هو أنني أمتلك ذكريات بتواريخ محددة لم أنسها، بينما هنا يعتقد الأطباء أنني فقدت العام الأخير من ذاكرتي.

أدخل هذا الغضب، ليام في حالة دفاعية فقال بهدوء

- حسناً أتفهم الأمر. لكن ألم تعتقدي بأن ظنونهم هي الأقرب للحقيقة. لم تجد أسيا إجابة - لو أنك ابنة شخص آخر لاعتقدت أن الأمر محض خيال، لكن أنا ووالدك عشنا شغوفين بولادة هذه

اللحظة، والآن هي أمامي، وهذا ما يجعلني أصدق.

تدخلت أليكس:

- لسنا هنا لتصدق أو لا. إننا نريد منك أن تفسر لنا هذا الأمر، هل هو قابل للحدوث؟

- السفر عبر الأكوان؟ لا، أنه أمر غير قابل للحدوث. لم يحدث من قبل، ولا أعتقد بأن هناك من استطاع اكتشاف طريقة مناسبة. عملنا أنا ووالدها في منظمة تدعم هذه الأفكار، إنها شديدة السرية، لكنني تركتهم لأن لا يتم تفعيل أي من تلك الأفكار. كان لديهم من الأسلحة ما يكفي لأن تغير العالم لو تم تفعيلها.

سألته أليكس بفضول:

- الطائفة؟

- الطائفة؟ كرر ليام - هل تعين الحراس؟

هزت أليكس رأسها موافقة، وأكدت أن هذا ما كانت تعنيه.

- كيف توصلت إلى وجود الطائفة. هذا أمر بالغ السرية، وقد يعرضك للخطر. إن هذه المنظمة من أشد الحركات سرية في البلاد، بل في العالم كله.

- هناك منهم من حاول أن يقتل أسيا. رأينا الشعار مرسوما على ذراعه، وبعد أن قمنا بالبحث عن الشعار اكتشفنا أمر هذه الطائفة. لم يكن البحث أمرا سهلا، لكنه موجود في النهاية. الأشخاص فضوليون، ولا يمكن لأحد أن يخفي معلومة غريبة اكتشفها. حتى أسوأ الخيالات يتم التشكيك في أمر تكذيبها.

أحنى ليام ظهره، وقال:

- الطائفة كانت تمول هذه الجمعية، لكنها كانت تدير المشاريع عن بعد، دون دراستها. والد أسيا كان جزءا من الأمر، لكنه لم يكن عضوا من أعضاء الطائفة، بل إنه لم يفهم معنى وجودهم. كنت أنا على اطلاع أكبر، لكنني انسحبت.

وضع الطعام على الطاولة، وقامت أسيا بتفريق الأطباق. رأت تعبير الفضول على وجه ليام وهو ينظر إليها. كان هناك ما سيقوله أدركت أسيا ذلك، وهو أمر حاسم حتماً.

- طالما الطائفة تطاردك يا أسيا، فإن هذا يعزز صحة نظريتك.

شرحت له أسيا الطريقة التي هاجمها الغريب بها في الفندق:

- لقد قال إنني دخيلة، وإن لي أتباعا في هذا المكان.

- إنهم يعتقدون بأنك متطفلة على عالمناء؟

هزت أسيا رأسها، دون تأكيد للأمر.

- حسنأ، كيف علي أن أشرح الأمر؟ هل جربتَن وضع مرأتين أمام بعضهما، ورأيتما تداخل الانعكاسات وتكرارها، هذا الأمر يشبه إلى حد ما دراسة الإنسان لنظرية تعدد الأكوان. نحن نعيش في أبعاد مكررة متشابهة، لكنها تختلف في باطنها. بطريقة أبسط؛ بينما نحن نتناول الطعام هنا، في أبعاد أخرى هناك ثلاثة أشخاص يتناولون الطعام معاً، ولكن في ظروف أخرى، وهناك أبعاد أكثر بعداً، فيها نحن لم نلتق قط.

تركت أسيا ملعقتها، وراحت تتخيل مدى تكرار المشاهد في أكوان مختلفة. هل هذا الألم قابل للتكرار مع أخريات في نفس الحكاية؟ تغير واحد كان كفيلاً بأن يتسبب بكل هذه المحاولات اليائسة لعودة الأشياء إلى طبيعتها؟ أخفضت يديها وراحت تتأمل المكان حولها، وهي تشعر ببطء العالم يزداد.

- أسيا؟ - أعادها صوت ليام - هل فهمتِ ما أعنيه؟ لا تختلف الحياة كثيراً في كل الأبعاد، لكن التفاصيل قابلة لذلك. أنت تملكين العائلة ذاتها في بعدك الخاص، وهنا الأمر يتكرر لكن حالة الوفاة هي الاختلاف. وفي أبعاد أخرى أكثر بعداً، قد لا تكونين التقيتِ بزواجك الحالي، بل ومن الممكن أن لا يكون لك وجود. هناك أبعاد أنت فيها أكثر شراً.. أو أكثر غنى.

أصغت اليكس باهتمام لما كان ليام يقوله، لكنها تدخلت فجأة وسألته:

- لكن ماذا عن نظرية السبعة؟ هل هذا الأمر يرتبط بتعدد الأكوان.

توقف ليام عن مضغ الطعام، بل بدا أنه نسي جوعه، وراح يشرح:

- هذه النظرية ليست ذات أساس قوي، وتبقى مجرد دراسة، بل إنني لا أصدقها حتى. يعتقد بعضهم أن السماوات السبع هي تكرار لسبعة عوالم مختلفة. بطريقة أوضح، هناك سبعة عوالم أساسية، ونحن نتوسط العوالم السبعة. كلما صعدنا وجدنا الحياة تسير بشكل أفضل، وكلما انحدرت ستجدين عالم أسوأ، الأرض هي البعد الذي يحمل التوازن ما بين الخير والشر. هناك سبعة أبعاد أساسية، وما بينها هو صورة لتردد حدث بسبب الانفجار العظيم، لا يمكننا أن نبقى طويلاً في الترددات الموجودة بين العوالم السبعة. لأنها ترددات. وفقاً لهذه النظرية، نحن في البعد الرابع.. في المنتصف تماماً، ولو صعدنا إلى البعد الخامس، سنجد حياة أكثر وفاقاً وفيها كفة الخير أثقل، ولو انحدرت للأسفل فإن حياتنا أكثر بؤساً.

سألت أسيا:

- وهل أنا في البعد الخامس؟ لهذه السبب كانت حياتي أفضل، وأتيت إلى هنا حيث التوازن بين السعادة والحزن.

- كما قلت لك، لا أصدق هذه النظرية. إنها تنص على أن التكرار بين البعد الأول والثاني متشابه والتكرار بيننا وبين البعد الخامس متشابه، أي أننا نتناول الطعام معاً ملايين المرات، إلى أن نصل إلى مسافة نحن فيها مختلفون، ومن ثم يزداد الاختلاف إلى أن يصل إلى أسيا التي تعيش مع عائلتها ولم تفقد ابنتها. إنه اختلاف يتكرر ملايين المرات.. بل مليارات المرات إلى أن يصل إلى صورة ثابتة في البعد الخامس.

علقت أليكس:

- لكن أليس الانتقال عبر هذه الترددات أمراً صعباً؟

- بلى، وهذا ثابت في العلم، لكن الطريقة التي انتقلت بها أسيا إلى هنا، قد تكون مبتكرة، وقد تكون أسيا التي كتبت المذكرات وجدت اختراع والدها وهذا ما ساعدها.

قبض ليام على كوب الماء، وبدأ يشرب منه ببطء، راقبته أسيا يفعل ذلك، وولد لديها الأمر شعوراً بالعطش هي الأخرى، فسكبت لنفسها بعض الماء من قارورته هو قبل أن تستأذن منه. بدأت تشرب الماء الذي في الكوب دفعة واحدة، حتى نفذ. وضعت الكوب بعصبية فقد ازداد تشتها فجأة. لم تعد قادرة على رؤية نظرات ليام التي تشكك في ما يحدث، ولا تعبير الشفقة الظاهر على وجه أليكس كان يههما.

- هناك أمور يعزز العلم إثباتها، وأنا أحد الداعمين لتلك النظريات، كما كان والد أسيا أحد الأشخاص الذي كرسوا ذكاءهم وحياتهم لاكتشاف أكبر عدد من الأدلة على وجود هذا الأمر. برأيي، هناك عوالم معروفة باسم العوالم الموازية.. الأكوان الموازية، أو حتى الأكوان المتعددة. نحن نؤمن بما يسمى الأكوان البديلة. لكننا ما زلنا نحاول الوصول إلى هذا الكون البعدي. لكن للأسف نحن حتى الآن نجهل المعايير التي تحدد وجود هذه الأكوان البعدية.

وضعت أليكس يديها على الطاولة، وسألته:

- ألا يتعلق الأمر بما خلفه الانفجار الكبير؟

- لا يمكن التحديد، فبعض هذه الأكوان قد يبتعد عنا نطاقات مكانية وزمنية كبيرة جداً. لكن هناك من يعتقد أن بعضها لا يبتعد عنا سوى ملليمترات فقط. رأيت آخرين يعتقدون أن فكرة بعدها عنا وتحديد مكانها فكرة محدودة الأفق.. ليس لها معنى حتى! لكن ما أنا توصلت إليه من خلال دراستي حتى الآن، أن بعض هذه الأكوان قد تكون متشابهة مع عالمنا في القوانين، وشكل الحياة حتى. هناك عوالم أخرى تختلف فيها البيئة الحياتية، وهنا أنا لا أتحدث عن الميدل إيرث حين كانت تجري أحداث رواية سيد الخواتم، بل أتحدث عن عوالم قريبة للمنطق الذي نعرفه، لكنها أبعد من عالمك الأصلي يا أسيا، طالما تقولين إن عالمك يشبه هذا المكان، مع اختلاف الأحداث فقط.

- بدأت أفهم الآن. علقت أسيا.

- ما احتاج إليه الآن هو رؤية أوراق والدك يا أسيا، أو رؤية ما كان يخفيه في قبو منزله على الأقل.

أرادت أسيا أن تلبي هذا الطلب غير المباشر بأي طريقة، ففيه قد تجد حلاً لهذه المعضلة، ولكن كيف؟ عليها العودة إلى الوادي الغربي، ومن ذلك المكان ستتمكن من ربط الأشياء ببعض. العودة إلى مسقط رأسها كان من ضمن الخطة، لكن ما تغير هو وجود ليام معهم.

دفع ليام ثمن الطعام الذي تناولوه، وخرجوا من المكان متجهين إلى سيارة ليام والتي كانت ستنقلهم إلى الوادي الغربي. بحث ليام عن مفتاحه في جيب معطفه، وفتح القفل عن بعد. في اللحظة التي فتح فيها الباب الموجود على جانب قائد المركبة، وقبل أن يدخلها أي من الأشخاص الثلاثة، ظهر ظل من بين المركبات الأخرى، وأشهر سلاحه نحوهم جميعاً، وأمر بصوت واضح:

- لا أحد يتحرك.

12:25 مساء / العاصمة

- مهلا، إنني صديق.

ابتعد ليام عن باب سيارته المفتوح، رفع يديه ليرسل إشارة استسلام لأوسكار الذي أشهر سلاحه نحو ليام. لم يفهم أوسكار ما الذي يعنيه كون هذا الغريب صديق، مهمته كانت القضاء على الدخيلة، وهي لا تتطلب كل هذا التعقيد.

- لا تحاولن الفرار، سأطلق النار فوراً. لقد أتيت لإنجاز مهمتي، وهي لا تتضمن القضاء عليكم.

حرك أوسكار سلاحه بين أليكس، وليام. شعرت أسيا بالخوف، وتخيلت أن يتخلى عنها الجميع، وأن يقضي عليها أوسكار في نهاية الأمر. الصمت كان يوحي بقدوم النهاية وهي لا تريد أن تنتهي القصة هكذا، ليس بعد أن اقتربت من اكتشاف الحقيقة كلها، والعودة إلى حياتها السابقة.

- لن يحاول أحد الهرب. - صرخت أليكس في وجه أوسكار.

لم يظهر الذعر على وجه أوسكار، بل كان يفقد صبره، وهو يشير

بسلحه لأليكس حتى تصمت. حرك مسدسه نحو أسيا وطلب منها الابتعاد عنهم. تلاشت الشجاعة بين الثلاثة الواقفين أمام أوسكار، لكن أسيا تداركت الموقف فجأة وقالت:

- اسمعني، أعلم بأنك تعتقد بأنني دخيلة، وأنا لا أفهم كيف يحدث هذا. لكنني الآن يمكنني أن أخبرك بأن ما تظنه غير حقيقي. حسناً، أعتقد بأنني أتيت من عالم آخر، ومهمتك أنت أن تحمي العالم، أليس كذلك؟

رأت أسيا مدى تأثير كلماتها على أوسكار الذي لم يظهر أياً مما يدل على ليونته. وجه المسدس نحوها وأراد جرّها إلى مركبته الاوستن مارتن، لكن أسيا حذرتة:

- مهمتك هي الوصول إلي، لكن الأمر أخطر وأبعد من ذلك. أنا لست من عالمكم، لكن شبيھتي التي تنتمي إلى هذا العالم، ألم تتساءل عن مكانها الحالي؟

- أنتم خطفتموها. - قال أوسكار ذلك بثقة.

خفضت أليكس يديها وتقدمت لكن أوسكار حذرّها بسلحه.

- الأمر ليس هكذا. بل هي من اختطفت هذه المرأة وأرسلتها إلى هنا، وجعلتها تعتقد بأن هذه حياتها. بينما أسيا الأخرى تعيش حياتها الآن في عالم آخر. إن هذه المرأة الموجودة أمامك أرغمت على

العيش هنا، وهي لا تفهم أنها أتت من مكان آخر، لولا أننا اكتشفنا هذا، وحذرناها. لولا شكوكنا لعاشت هنا وهي تعتقد بأنها مجنونة.

ظهرت نبرة الرجاء في صوت أسيا وهي تقول لأوسكار:

- المرأة الأخرى تعيش مع عائلتي الآن، وأبي مات بسبب والد هذه المرأة. إنهم يقتحمون حياتي في عالمي ذاك، ليعوضوا ما فقدوه في هذا العالم. لست أنا الدخيل، بل هم الدخلاء على عالمي. يجب أن تصدقني، بل أنت من يمكنه أن يساعدنا في عودة الأشياء إلى طبيعتها.

ما تطرقت له أسيا بشأن والدها، لا يزال أمرا غير محتم حتى الآن، فهي لا تملك أي دليل فعلي يؤكد رحيل والدها إلى ذلك البعد، وأنه فعل كما فعلت ابنته، حيث استبدلت نفسها في العالم ذاك، ليعيش هو هناك. أعطى الثلاثة فرصة لأوسكار حتى يستوعب ما اكتشفوه، لكن الآخر كان لا يزال يحمل سلاحه بيده. في البداية اعتقد أوسكار أن هذه خطة منهم للإفلات منه، لكن أسيا لم تحاول المقاومة حتى الآن.

- أنا بحاجة إليك الآن. أنت من بإمكانه مساعدتي على المضي إلى هناك. لست أنا الشخص الشرير، بل إنني أرغمت على العيش في هذا العالم. عليك أن تصدقني.

سألها أوسكار:

- ولماذا علي أن أفعل ذلك؟

- لأنه لا شيء يجبرنا على الكذب نحن أيضا.

قالت أليكس ذلك، وأشارت بيدها نحوها هي وليام. ازدادت شجاعتهم فجأة، وظن أوسكار أن هذا سيقلبهم عليه. هو من يحمل السلاح، ولا يزال الطرف الأقوى.

تدخل ليام أخيرا، وقال:

- اسمعني، لقد عملت طويلا في مشاريع عديدة، تحت تمويل مجموعتك. وأنا أعرف ما يحميني أو يؤكد كوني لست الطرف الكاذب في هذه المسألة. لو أن هذه المرأة كانت تكذب، لما لجأت لي، وطلبت تدخلها لأنها تعتقد بأنني قادر على نقلها إلى هناك. لماذا ستعود إلى عالمها لو كانت غايتها التطفل إلى عالمك؟

المضي معهم نحو ما يفكرون فيه، كانت مجازفة من قبل أوسكار، وهو لا يعلم إن كانت المجموعة التي كلفته بهذه المهمة، ستقبل أم لا بما سيقوم به. لن يهمهم مدى كونها بحاجة للعودة، لأنها تبقى دخيلة على هذا العالم، سواء كانت جيدة أم شريرة. إنهم يتبعون مبدأ واحدا، لن يهمهم توجه السؤال، طالما علامة الاستفهام موجودة.

- لن يكون أمامكم وقت طويل، لتثبتوا لي ذلك، وإن لم ينجح

الأمر، فأنا مضطر لتسليمها.

عارضته أليكس قائلة:

- لا يمكن أن نحدد الوقت..

أتى صوت ليام وأسيا في وقت واحد:

- موافقون. - حرك ليام رأسه بثقة، فهو يحتاج إلى التجربة فقط.

رفضت أليكس أن تسلم أسيا لأوسكار، فانتهت مفاوضاتها مع أوسكار، على أنه ستكون رفيقته إلى الوادي الغربي، بينما ليام سيصطحب أسيا.

- كما لا تتق أنت بنا، لا يمكننا أن نتق بك ثقة تامة. قالت له.

- تذكرني بأني من يحمل السلاح.

- ما يهمني هو أن لا يفشل كل ما أنجزنا لإنقاذ هذه المرأة.

تبع أوسكار ليام على الطريق الجانبي المؤدي إلى غرب البلاد، حيث كان يقع الوادي الغربي. لن يستغرق الوصول إلى هناك وقتا

طويلاً. لم تكن لديهم أي خطة واضحة، لكن آسيا فكرت في ما يجب عليها أن تقوم به. لن تذهب إلى منزلها، بل هي بحاجة للتحدث مع جارتها وليد، كما تحتاج إلى ملاذ قصير.

توقفت سيارة ليام في مكان بعيد عن المنزل. توقفت بجوارها مركبة الأوستن مارتن. حين ترجلت أخبرتهم بأنهم سيكملون طريقهم مشياً على الأقدام، حتى لا يثيروا الشبهة.

- سنذهب إلى منزل جارتني، ومن هناك سنتحرك.

- ألن يخيفها أن نزورها أربعتنا؟ - سألت أليكس. لم تعرف آسيا الإجابة تحديداً، لكنها ستحاول البقاء لأقصر وقت ممكن، حتى لا تثير خوف رسيل.

شعرت آسيا بالحزن فجأة وهي تنظر إلى قمة منزل والدها على الجانب الآخر من الطريق. من هناك كانت البداية. توقفوا، وأوكلت آسيا مهمة طرق الباب على رسيل، لليام. اختفى الثلاثة في حديقة المنزل ريثما يتمكن ليام من إقناع رسيل.

انتظر ليام وحده وصول رسيل بعد أن ضغط على الجرس مرة واحدة. لم يظهر الخوف على رسيل وهي تشاهد هذا الغريب يقف أمام منزلها.

- أنا أحتاج المساعدة. قال لها من دون مقدمات.

- ماذا؟!

- أسيا صديقتك، بحاجة إليك. لا يمكنك أن تخبري زوجها بالأمر. لكنها تمق بك وتريدك أن تساعدتها.

ظهر الشك على وجه رسيل وهي تتساءل عن علاقة هذا الغريب بأسيا.

- إنني صديق لوالدها، وهي لجأت إلي. والآن أنت من يمكنه أن يساعدنا جميعاً. إنها في حديقة منزلك، ويمكنك التأكد عبر المدخل الخلفي.

أغلقت رسيل الباب في وجه ليام، وتوجهت إلى حديقة منزلها، وعندما جرت الباب تفاجأت بعدد الأشخاص الواقفين. لم يكن ليام فقط هو الشخص الغريب. لم تتعرف رسيل على أليكس أو أوسكار.

- رسيل. - تقدمت أسيا نحو رسيل، ثم قالت برجاء - أحتاج إلى مساعدتك. الأمر خطير حقاً ولا يمكن أن أشرحه حتى، لن يصدق أحد ما يحدث معي.

حاولت رسيل أن تظهر تحالفها مع أسيا وهي تقول:

- أخبريني وسأصدقك.

- بل ستعتقدين بأنني جنت حقاً. كل ما أريده منك هو أن أبقى لبعض الوقت عندك، لن يستغرق بقائي سوى ساعات قليلة. إنني أرجوك. أنا بحاجة لرؤية الأطفال من دون أن يعلم عمر بهذا.

ضاقت عيني رسيل وهي تقول:

- هل تخططين للهرب من عمر. رجال الشرطة يبحثون عنك في كل مكان.

- أعلم.. أعلم. لهذا لا أريد لعمر أن يعرف. لن أهرب، بل أريد التأكد من أنهم بخير.

أصبح صوت رسيل حاداً فجأة وهي تقول برجاء:

- أخبريني ما الذي حدث معك.

- اخترع أبي شيئاً ما، وهذا الاختراع تسبب في تغير حياتي لتصبح بهذه الطريقة.

تدخل اوسكار بسرعة، حتى لا تفشي أسيا المزيد من الأسرار:

- إنني شرطي، وأنا أفهم ما يحدث. إننا حقاً بحاجة للمساعدة.

أتى تدخل أوسكار بالنتيجة المطلوبة. أخبرتهم رسيل أن عمر لن يبقى في المنزل طويلاً، وبأنها ستكون مع الطفلين حتى يعود. إنه يبحث عن أسيا، وهذا يجعله في قلق طوال الوقت.

- سينتهي هذا الكابوس قريباً. - قالت أسيا ذلك، ثم طرحت سؤالاً مفاجئاً - هل تعرفين أين هو منزل وليد تحديداً؟

شرحت رسيل لأسيا المكان تحديداً، ولم يكن المنزل بعيداً عن منازلها هي ورسيل. قررت أسيا أن تزور وليد، حتى يخرج عمر من المنزل ويترك الأطفال مع رسيل.

4:11 مساءً / الوادي الغربي

في البداية طلبت أسيا من الجميع أن يبقى في منزل رسيل، وستذهب هي وليام فقط إلى منزل وليد، لكن أليكس لم تكن لتفوت عليها الحصول على المزيد من المعلومات، لذلك رفضت المكوث، وهذا أدى إلى إصرار أوسكار على الذهاب معهم إلى هناك. تفهمت رسيل رغبة أسيا في بقائها هنا، والانتظار حتى يخرج عمر.

- أعلم بأنك صديقة حقيقية. أنا أثق بك، ولا يمكنني أن أجعلك تثقين بي بالطريقة ذاتها، لكنني أرجو أن تقدمي لي هذه المساعدة يا رسيل.

كان هذا آخر ما قالته أسيا لرسيل، قبل أن يخرجوا جميعاً من

منزلها فجأة. انتقلوا خفية إلى منزل وليد، ومن خلال البقعة التي يقع عليها منزل وليد، أصبح منزل والد أسيا بعيدا، ولا يمكن رؤية أي جزء منه، بل لم يكن بالإمكان رؤية أي منازل مجاورة، رغم أن منزل وليد غير محاط بأي مبان أخرى.

لم تجد أسيا أي جسر عند باب المنزل، لذلك طرقت الباب الخشبي المتآكل بيدها، وانتظرت إجابة وليد. أوحى الهدوء بأنه لا أحد في المكان، وعندما لم يجب وليد على الطريقة الأولى، كررت أسيا الأمر بقوة أكبر.

- لا أحد هنا. - علق أوسكار.

- إذا علينا أن نعود إلى منزل رسيل.

فُتح الباب فجأة وظهر وليد من خلف الجزء الضئيل المفتوح. راقب المكان بهدوء وحذر ولم يطمئنه وجود أسيا رغم أنه كان يعرفها، لكنها الآن محاطة بأشخاص غريبين، كما أن الجميع يعرف بأخبارها الأخيرة.

- ماذا تريدون؟

- وليد، أنا أحتاج لمساعدتك. لدي بعض الأسئلة التي تخص والدي.

فتح الباب وظهر جسده بأكمله أمام الباب. بدت أسيا متعجبة لأنه

يعق بها بهذه السرعة، ويتنازل عن حذره فجأة. هذا ذكرها بوالدها الحقيقي، والذي لا يمكن تخمين أفعاله. دعاهم وليد إلى الداخل، ولم يقلقه وجود هذا العدد من الأشخاص دفعة واحدة.

- هذه أليكس، إنها صديقة، وهذا ليام، إنه أستاذ في علم الفيزياء.

- أعرفه، لقد قرأت عددا من إصداراته.

تعجب ليام لتلك الكلمات، فمظهر وليد لا يوحي بأنه شخص مطلع. تجاهل وليد وجود أوسكار الغامض، وهذا جعل آسيا تستسهل وجودهم جميعاً، فهي لا تعرف كيف تشرح له سبب وجود الشخص الرابع. جلسوا جميعاً في منزل وليد، ولم يلزم نفسه جهد تقديم أي شيء لهم.

شرحت له أليكس الأحداث الأخيرة بطريقة دقيقة، وبدأ مصغياً لها، بل إن التفاصيل المتعلقة بأسيا لم تدهشه. بدا كما لو أنه كان يتوقع حدوث هذا الجزء. أصغى لأليكس دون أن يشغل انتباهه بأي شيء آخر. وعندما انتهت أليكس استغرق بضع ثوانٍ في صمت تام يحاول من خلاله ربط الأحداث بصديقه.

- أنت تعلمين يا أسيا أن والدك كان صديقاً مقرباً لي، لولا أن موت والدك غيره. لكن الأيام الأخيرة غيرته تماماً. لم يتعرف علي عندما زرته في المستشفى.

- الرسالة التي تركها عندما انتحر. إنه يصف هذا العالم بالكابوس، أعتقد بأنه ليس صديقك، بل إنه والدي الفعلي ولو قابلته لاكتشفت بأنه كان يملك ذكرياتي ذاتها لأنه عاش في عالم واحد معي. لكن صديقك استبدله بوالدي ليأخذ مكانه، تماماً كما فعلت ابنته.. التي هي أنا.

- انتحاره كان مفاجئاً، فهو ليس من نوع الأشخاص الضعفاء. أعتقد أن تفسيرك هو الأقرب، لقد أصيب بصدمة بسبب تغير الأحداث المحيطة به. أي شخص آخر سيشعر بالشيء ذاته.

قاطعت أسيا وليد قائلة:

- هذا هو شعوري ذاته، عندما استيقظت ووجدت أن العالم قد تغير فجأة. أرادوا للأمر أن يبدو طبيعياً، وأن صدمة الحزن هي ما يجعلنا مجانين.

صمت الجميع وراقبوا وليد بفضول. شرح لهم كيف كان صديق والدها، وأن كل الأفكار تبادلوها معاً، وناقشوا أهدافها سوياً. كان والدها بالفعل شغوفاً في فكرة اكتشاف أبعاد أخرى.

- هذا ما قلته لهم. - علق ليام - لقد عملت معه لفترة قصيرة.

نظر وليد باتجاه النافذة واسترجع ذكرياته الأخيرة مع صديق عمره:

- إن كان ما يحدث لك حقيقيا يا أسيا، فإن والدك قد اكتشف بوابة بإمكانها أن تغير العالم بأكمله، وهذا أمر خطير. هل الفضاء محاط بأسوار لا نراها؟ أو أين هو حد الفضاء. تلك الأسئلة أراد والدك أن يتخطاها. عندما تقاعدت من عملي، عرض علي العمل معه في المختبر، وكان هناك جهاز حديث أراد تطويره، وهذا الجهاز يدعى الناقل، وهو يملك القدرة على اكتشاف الأوتار التي تربط الكون مع بعضها.

اختفى الحماس عن وجه وليد فجأة، لكنه عاد ليشرح لهم بهدوء:

- لو أن الفضاء يمتد إلى ما لا نهاية له، فإنه سيحتوي على كون آخر، أو سيكرر عالمنا مع احتمالات أخرى. ما كان والدك شغوفا فيه هو رؤية الأوتار التي تكرر الحياة بين العوالم.. حتى الوصول إلى المركز الثابت في العالم الآخر. هل سمعتم يوماً بالنظرية التضخمية؟

زمت أليكس شفتيها فهي لا تفهم تحديدا تلك النظرية، بينما ليام رفع يده وأشار لأوسكار وهو يقول:

- عملت على دراسة عدة مقالات تعود إجاباتها السرية إلى جماعتهم.

- هل تعني الطائفة؟ - عقد أوسكار حاجبيه وهو ينظر لليام.

- أجل، إنهم هم.

سأله أوسكار بفضول:

- هل كنت عضواً؟

- لا، لكنني أعرف بشأنهم.

تدخل وليد ليشرح الأمر:

- إنها نظرية التمدد المكاني الهائل، ذو سرعة شديدة خلال بدايات الكون. إنها نظرية يتم تأكيدها من خلال المشاهدات الفلكية المنقحة، وهو ما خلق المنطقة المكانية التي نعيش فيها، وهذا يعني إمكانية التكرار نظراً لحجم هذا التمدد. هذا يعني خلق أكوان أكثر في نطاقات نائية. شرح الأمر أكثر تعقيداً لكنه يؤكد وجود عدد لا نهائي من الأكوان.

سأل ليام:

- ألا يشبه هذا العالم الغشائي؟

- ليس تحديداً. تلك النظرية مشابهة لهذه الفكرة لكنها تنص على أن الكون وتر من بين مجموعة طبقات كثيرة متشابهة. لهذه النظرية مخاطر أخرى لو كانت صحيحة لتمدد العالم. فمن الممكن أن يصد

عالمان غشائيان ويخلق عن ذلك انفجار يمحو ما يحتوي عليه العالم.

علقت أليكس على شرح وليد:

- لماذا لا يكون هذا هو تفسير الظواهر الخارقة التي تصيب الأرض؟

- الزلازل والبراكين لها تفسيرات واضحة، أما ما يحدث خارج غلافنا الجوي فهو يدرس. تجاذب الأوتار أمر مدمر، ولا يمكن أن يصل تأثيره بهذه الطريقة.

قال أوسكار ليجدد حضوره بينهم، بعد أن أخفاه الصمت:

- لكن لو كان ما تتحدثون عنه صحيحا، ألا يجعل هذا عالما هامشيا وجزءا صغيرا، على عكس ما تصورناه نحن؟ ألن نعود بهذا مركز الكون كله.

- أنت تتحدث عن أقدم نظريات الفلك. لسنا محور الكون كما يظن أرسطو، وإن لم يكن هناك عوالم موازية حتى. - صحح وليد ما قاله أوسكار.

نهض ليام وتحرك في مكانه وهو يشرح:

- لكن ألا يؤكد وجود أسيا هذه النظرية؟ إنها تجيب عن الأمر فقط

من خلال تواجدها هنا. بيئة الحياة التي أتت منها تجعلها لا تندهش من شكل الحياة هنا! هذا يعني وجود مجرة أخرى شبيهة بدرب التبانة، وبها شمس وقمر، وشخص آخر يشبهني تماماً.

أكدت أسيا:

- قد لا يشبهك أنت تماماً. أصدقائي في ذلك العالم، ليسوا أصدقائي هنا. زوجي الناجح هناك، غير ناجح هنا. من الممكن أن تكون أكثر عدوانية هناك، أو العكس.

علق وليد:

- هذا يعني أن تلك العوالم قريبة منا أيضاً، لأنك لو أتيت من مكان آخر لاستغرق وصولك إلى هنا سنوات لا تحصى. فالضوء الذي ولده الانفجار لم يصل إلى تلك الأكوان بعد.

تساءلت أسيا في أعماقها: "لو لم يكن هناك انفجار؟ هل هذا ينفي وجود عالمها؟" لكنها لم تبح بهذه الفكرة لوليد الذي لا يؤمن بالقدر، بل إنه يتفق مع نظرية الانفجار.

- لكن الفيزياء ببساطة تنص على أن لو كان العالم يتمدد بلا نهاية فإن هناك عوالم، أليس كذلك؟ سألت أليكس هذا السؤال، فhez وليد رأسه موافقاً.

أنهى أوسكار ذلك الحوار العلمي الصعب، بعد أن طلب منهم أن ينطلقوا إلى المكان الذي يعتقدون بأن البوابة موجودة فيه. لم يكن وليد متأكدا من وجود الجهاز الناقل، لكن شكوك أسيا التي تدور حول القبو، نقلتهم إلى ذلك المكان. ليس عليهم الآن سوى الاعتماد على رسيل في نقلهم إلى منزلها.

5:02 مساء / الوادي الغربي

نظراً لما كان يعتقد اينشتاين ونظراً لشح الأدلة فإن كل منطقة في الكون، لا تختلف في شيء عن غيرها. لكن في بعد أسيا فإن الحياة تختلف تماماً عما هي عليه هنا، وإن كانت تعيش مع العائلة ذاتها. وجود حبيبة يغير كل شيء هنا، وهذا ما دفع أسيا الأولى للاستحواذ على حياتها، ولا بد من أن تعود لاسترداد ما فقدته هناك.

- هناك محقق يدعى سليم كان يبحث عن بعض الإجابات هنا، طرح علي بعض الأسئلة، وأعتقد بأنه تحدث إلى عمر قبل ذلك.

حاولت رسيل أن تعطي ملخصاً للأحداث الأخيرة التي اختفت فيها أسيا. أخبرتها بأن زهرة وجميل قويان بما يكفي لأن يواجهوا ما حدث، وهو لم يؤثر بهما بالطريقة الذي تخيلها الجميع. لكن إصرار الطفلين قد لا يستمر طويلاً فهم بالنهاية أصغر من أن يواجهوا ضغطاً كهذا.

- لقد تحدثت مع ذلك المحقق من قبل. - أكدت أسيا، ثم قالت - هل يمكننا التحدث مع الطفلين؟

- لا أعتقد هذا يا أسيا، دعي الأمر ينتهي، ومن ثم سيكون هناك

متسع من الوقت لكل شيء.

أرادت أسيا أن ترفض رفض أليكس، لكنها محقة ليس عليها أن ترى الطفلين إن كانت ستتركهما، فهما ليسا أطفالها الفعليين. لا يجب أن تثير قلقهما أكثر مما فعلت سابقاً. لم يعجب هذا التدخل رسيل، وبدا عليها النفور من أليكس، لكنها لم تعلق.

- دعونا نذهب إلى المنزل، سنجد ما نريده هناك. - أمر أوسكار.

أكدت أسيا طلبه:

- هيا دعونا نذهب. رسيل، أحتاج مساعدتك. أريدك أن تبعدى الأطفال عن القبو ريثما ندخل نحن.

لا تعرف رسيل إن كان عليها الوقوف في صف أسيا، لكنها صديقتها، وعمر سيتفهم الأمر لو كشفه في النهاية. بددت رسيل خوفها، وأقدمت على الأمر مع أسيا.

انطلقوا إلى منزل أسيا، وبينما دخلت رسيل من الباب الأمامي، تسلت أسيا ومن معها عبر الباب الخلفي، والذي يقع بالقرب من السلم المؤدي للقبو. لم يكن هناك أي صوت يوحي على اقتراب الطفلين منهم. سمعت أسيا وقع أقدام رسيل وهي تتسلق السلم، وهذا زاد شعورها بالأمان. بدا لأسيا أنها غابت عن هذا المكان سنوات. لم تعتد عليه، ولم يكن منزلها يوماً، ففي خيالها هو لا يزال

كيف ستعود إلى ذلك المكان الذي تعيش فيه عائلة أخرى ليس عائلتها؟ ماذا لو كان من مات هو والدها الفعلي، والذي قتله هو الرجل الذي يعيش حياته بدلا منه؟ كيف ستشرح ذلك لوالدتها؟

هبطوا جميعاً إلى القبو، وأشعلت أسيا الضوء فيه. تركت ليام ووليد يبحثان عن أي شيء يدلهم على الباب الذي عبرت منه أسيا. انتشروا جميعاً في القبو، ولأنه لم يكن مكانا كبيرا، فإن رحلة البحث لم تدم طويلاً. بدا المكان غريباً جداً بالنسبة لأسيا، فهو لا يشبه القبو الموجود في منزل والدها في عالمها الأصلي، وهي لم تكن بدورها معتادة على الدخول إليه.

- أعتقد بأنني وجدت ما نبحث عنه. - هتف وليد.

احتشدوا حوله، وهم يراقبون الصفحة الحديدية التي تشكل حلقة ملتصقة بالأرض. أكد لهم وليد أنه رأى هذا الاختراع من قبل، وتحدث عنه مع والد أسيا. إنه هو الناقل الذي كان يحلم به والدها. تشعبت منه أسلاك عديدة التصقت بالجدران، لتوصل القدر الكافي من الكهرباء للجهاز.

- إن هذا الجهاز قادر على كشف الرقع الأخرى المشابهة لكوننا. أنساق الجسيمات موزعة عشوائية من رقعة إلى أخرى، لكن هذا الجهاز بإمكانه الكشف عن مكان أقرب رقعة مطابقة لنا. بما يعني أن

والد أسيا كشف مكان رقعة تحتوي علي أنا، وهو، وأنتم في حياة
مطابقة بأكبر قدر من حياتنا.

أراد وليد الإسهاب في الشرح، لكنه اكتشف أن من معه لم يفهموا
ما قاله، لذلك توقف عن ذلك، وبدأ البحث عن طريقة التشغيل.

- هل ترون تلك الأساور المعلقة، إنها توضع لتوصل الإنسان بحلقة
الناقل، والتي تفرغ المعبر من الجسيمات التي قد تؤذي جسده أثناء
الانتقال. لكن ما لا أفهمه هو الطريقة التي اختصر بها والدك المسافة
يا أسيا. هذا ينفي نظرية بعد الطبقات الأخرى عنا.

راقبته أسيا ببلاهة، قبل أن تعلق:

- أنا.. أنا لا أفهم ما يعنيه هذا، لكن..

- لا عليك. - قال وليد - دعونا نحاول تشغيل هذا الجهاز. لكن
إن بدأنا العمل، فضعوا في الحسبان أن عليكم اكتشاف الحلقة
الموصولة بالبعد الآخر، لأنها هي ما سيعيدكم إلى هنا.

علق أوسكار:

- لن ينتقل أحد سوانا، أنا وأسيا.

- لا يمكنك أن تفعل هذا. - تقدمت أليكس خطوة تجاه أوسكار -

لن أتوقف هنا بعد أن وصلت إلى هذه النقطة، سأمضي مع أسيا، وأحاول العودة.

وقف أسيا أمام أليكس وقالت:

- لكن ماذا لو لم نجد طريقة للعودة؟ ما الذي ستفعلينه هناك إذا؟

- سجد الطريقة.

- لا يمكنك المجازفة يا أليكس.

اعترضت أليكس:

- لم أخض كل هذا لكي أقف الآن. ماذا لو كان الانتقال عكس ما تتوقعين.

قاطعهم صوت وليد قائلا:

- أعتقد بأننا وجدنا المفتاح اللازم.

أخفض وليد القابس المعلق على الجدار، فومضت الحلقة المثبتة في الأرض، وظهر فتيل ضوء حول الأساور الموصلة على الجدار. أمر أسيا بوضع إحدى الأساور حول معصمها، وكذلك فعل أوسكار. وقفت أليكس أمامهم ولم تفعل شيئاً سوى مراقبتهم وهم يمضون.

لكنها تقدمت في اللحظة الأخيرة رغم رفض أسيا واوسكار، ووضعت سوارا ثالثا حول معصمها. ملأ الضوء القاعدة الملتصقة في الأرض، وكان وميضه يزداد مصحوباً بصوت طنين خافت.

- أعتقد بأننا ننجح، ليتقدم أحدكم.

باغتتهم أليكس، وتقدمت لتقف فوق الهالة المضيئة، لكنها وقعت فجأة، واختفت كما لو أنها سقطت في بئر. راقبوها بدهشة، وكتمت أسيا صرختها، لكن تعابير الدهشة ظلت ملتصقة في وجهها. تقدمت أسيا وشعرت بدفع الوهج على الجهاز قبل أن يبتلعها هي الأخرى، ويجعلها تختفي بفتة. في النهاية تقدم أوسكار وتلاشى هو الآخر. تلاقت عيني وليد بعيني ليام. أراد كلاهما أن يهتفا لروعة ما رأوه حتى وإن لم يكونا متأكدين من النتيجة.

9:07 مساء / العاصمة

نهضت أسيا لتجد نفسها وحيدة بجوار الشاطئ. لقد حدث هذا مرة واحدة من قبل، عندما فتحت عينيها على عالم لا تنتمي إليه، أما الآن، فلم ينقلها أحد إلى المستشفى، لأنها لم تتلق ضربة على الرأس. ترنحت وهي تسير فوق الأرض المستوية، وتبحث عن أي شيء مألوف. تلقت نظرات غريبة من الأشخاص المحيطين بها، لكنهم لم يهتموا طويلا لما تفعله.

- أليكس؟ - نادت أسيا، لكنها لم تتلق أي نداء.

سارت مسافة أبعد عن النقطة التي استيقظت فيها، ووجدت أليكس في النهاية مستلقية بجوار الحاجز الحجري الذي يفصل الرصيف عن الماء. جلست أسيا بجوار أليكس، وهزت جسدها، لكن عدم استجابة أليكس استمرت للحظات، قبل أن تستيقظ من غيبوبتها القصيرة، وتلفت بذعر حولها.

- هل.. هل نجح الأمر؟

- أعتقد، لا يمكنني أن أجزم.

ظهر أوسكار على الرصيف الحجري، وكان الأكثر نشاطاً بينهم. لم يخف دهشته، فهذه هي المرة الأولى التي يخوض فيها تجربة بهذا القدر من البعد عن الواقع الذي يعرفه هو.

- علينا أن نتأكد ما إذا كنا في المكان الصحيح أم لا؟ - قالت أسيا ذلك، فسألته أليكس عن الطريقة المناسبة - سأزور صديقتي لمياء، لا بد من أنها حاولت التواصل معي، ستكتشف أي اختلاف موجود.

قال أوسكار:

- هذه الفكرة جيدة، لن يستوعب أحد فكرة تكرارك، لن يصدقك أنت بينما الأخرى تعيش معهم.

- أنت محق. - أكدت أليكس.

انطلقوا جميعاً خلف تعليمات أسيا التي أرادت أن تقودهم إلى منزل لمياء. كانت أليكس تملك بعض المال حتى الآن، ويمكنهم استخدامه هنا ليأخذوا سيارة أجرة.

- إن تلك الأصوات التي في المنزل، أعتقد أن سببها هو الفجوة التي أحدثها الناقل بين عالما ومنزل أبي. لقد كنا نسمع صوته، وكان جميل يعتقد أن حبيبة موجودة في القبو، والسبب هو ما ينقله الجهاز من منزل والدي في هذا العالم، إلى نفس المكان في عالمكم أنتم.

سألتها أليكس:

- هذا يعني أن هناك بابا آخر في منزل والدك هنا.

- هذا ما فكرت فيه أنا أيضا.

ضغطت أسيا على جرس الباب الخارجي للمبنى، والذي يجاوره اسم لمياء. لا يزور لمياء أحد في هذه الساعة، ولأنها تعيش وحيدة، فإن هذا النداء سيقلقها نوعاً ما. أتى صوت لمياء عبر جهاز الاتصال الموصول في شقتها، فأجابت أسيا:

- لمياء؟ هذه أنا أسيا.

- أسيا؟ ما تفعلين هنا؟ هيا اصعدي.

ضغطت زر الدخول، وأصدر ذلك صوت أزيز مزعج. انطلق الثلاثة باتجاه المصعد، ونقلهم بدوره إلى الطابق الذي تعيش فيه لمياء. استقبلتهم لمياء، وعلى وجهها أمارات الدهشة، فهي لم تتوقع وجود رفقة. ميزت أسيا وجه لمياء المعروف أنها حقاً صديقتها، وليست تلك المرأة التي رأتها في المطعم. احتضنت أسيا صديقتها، بينما الأخرى ظلت واقفة لا تفهم ما يحدث.

- ما الأمر يا أسيا؟

سألتها أسيا فجأة:

- متى التقينا آخر مرة؟

- قبل ثلاثة أيام. لقد تشاجرنا، لأنك بدوت غريبة، وتتهربين من الحديث معي. ألا تتذكرين ما قلناه في ذلك اليوم. لقد رفضت رؤيتي مجدداً، وقلت بأنك لا تهتمين لوجودي. أردت أن تنهي صداقتنا فجأة.

حجبت أسيا وجهها بيديها. راقبتهم أليكس التي ظلت واقفة بجوار أوسكار. حاولت أسيا ترتيب أفكارها والتقطت نفساً طويلاً قبل أن تقول:

- تلك المرأة ليست أنا.

- ماذا؟ أتى صوت لمياء حادا، ثم انعقد حاجباها فجأة.

- ليست أنا، إنها ليست أنا. تعيش مع أسرتي لكنها ليست صديقتك. هل تتذكرين ما حدث قبل عامين عندما ذهبنا للتزلج مع الأطفال.

هزت لمياء رأسها مراراً:

- بالطبع، لقد كسرت كاحلي حينها.

- اتصلي بمنزلي، اتصلي بي، واسأليني عن ما حدث.

ما تقوله أسيا بدا غير منطقي بالنسبة للمياء، لكنها لم تفهم كيف يمكن لشيء كهذا أن يحدث، ولا يكون تفسيره الجنون. شكت في أن أسيا مضطربة، لكن لا شيء يدعوها لأن تصبح مجنونة بيوم واحد. دخلت لمياء ودعتهم إلى منزلها، لكن أليكس وأوسكار لم يكن مرحب بهما بالقدر ذاته. قبضت على هاتفها أمام أسيا، واتصلت بهاتفها. توقعت أن تسمع رنين الهاتف في جيب أسيا، لكنها بدلاً من ذلك، سمعت صوت أسيا يتكرر. لا يمكن أن تجيب أسيا على الهاتف، بينما هي لا تزال واقفة أمامها.

- أسيا؟

- لمياء؟ أجابت أسيا على الطرف الآخر بالنبرة ذاتها.

فركت لمياء جبهتها، وهي تفعل مكبر الصوت، ثم تسأل:

- هل تتذكرين؟ - عجزت الكلمات عن الخروج من فم لمياء لشدة شعورها بالخوف - هل تتذكرين رحلتنا إلى التزلج قبل ثلاثة أعوام عندما انكسر كاحلك أنت.

- تزلج؟ بالطبع أتذكر كيف حدث الأمر. لكن لماذا تتحدثين في هذا الأمر الآن.

- لا شيء في الواقع.. أقفلت لمياء الخط فجأة، ونظرت إلى أسيا الواقفة أمامها.

جرت أسيا صديقتها، وأجبرتها على الجلوس، وهي تشرح لها ما حدث. كان الأمر صاعقا بالنسبة للمياء، وكانت تنتظر أن تكتشف الدعابة في ما تقوله أسيا، لكن لا شيء يوحى بالسخرية.

- إنها لا تتذكر الرحلة، وهي تعتقد بأن كاحلها هي الذي أصاب. لكنني أتذكر كيف نقلناك إلى المركز الصغير في الجبر، وقاموا بتجبير يدك هناك.

لم تملك أسيا سوى الذكريات لتهدئها للمياء كدليل يجعلها في صفها، لكن المشكلة لم تكن في ثقة لمياء بها، بل كانت في مدى استيعاب المرأة للأمر. لم تكن هناك خطة أخرى للقيام بها، وهم بحاجة للبقاء ما لمياء حتى يجدوا ما يمكن القيام به.

- لا يمكننا المكوث في منزلها. - قال أوسكار - لا يمكننا إقحامها في هذا الآن. سنجد حلاً آخر.

- بل يمكنكم البقاء في منزلي. لا مكان آخر تذهبون إليه.

11:42 مساء / منزل لمياء

لا تقتصر كل الأمور على مدى قدرة فهم هذا العالم لك. أحيانا يصبح هدفك هو إيجاد المتسع الكافي لك في العالم. إننا نبحث عن أركان تشبهنا لكي نصنع منها نقطة انطلاق لكل شيء. ليست كل الأمور معرضة لمنطقة الفهم المشترك بينك وبين الآخرين، لأن إدراك الآخرين لحقيقتها لا يمحو السوء الموجود فيها. أحيانا يصبح الخلاص موجودا في قلب الأجزاء التي تشعر من خلالها بأنك على حقيقتك.

- هل أنت مستعدة لمواجهة الحقيقة؟

وجهت أليكس السؤال المنتظر لأسيا، والذي كانت تطرحه على نفسها مراراً. تخيلت طويلاً لحظة اللقاء بينها وبين أسيا الأخرى التي حولها الألم لشخص أناني.

- لا، لا اعتقد بأنني مستعدة. لكن.. أين البديل عن كل هذا؟ لا أحد سيعوض لحظات السهد التي عشتها. ترتيب آمالي الذي أفسدته الخيبة من سيعيده إلى هيئته الأولى؟

- لا تبالغي في الأمر يا أسيا، ستعود الأمور إلى نصابها القديم.

لا ترفق كل المعاني بتحذير أن الإدراك سيجعل الحياة أكثر وضوحاً، ووهج الأشياء المبهمة يختفي وتصبح الصور باهتة. يشبه الأمر التقدم في السن. فهم المعاني، يعني تطور معرفة الإنسان وإدراك حجم الأشياء الفعلي. فهم الشر وما يمكن أن يؤثر به على إنسان طبيعي، فهم الألم الذي يحول الأشخاص إلى آخرين أكثر أنانية من غيرهم. كل تلك المعاني تبدو أقل رهبة عندما يحيطها الجهل، قبل أن تصبح أوضح من خلال التجربة.

- أليكس، لم تخبريني حتى الآن ما هي حكايتك أنت.

- هل يجب أن تكون لي حكاية؟

- اعتقد بأن لكل شخص حكاية، هذا ما يجعلنا أكثر فضولاً، أكثر تطلعاً لأبعاد أحلى تسرقنا عن الألم، أليس كذلك؟

أجابت أليكس:

- لكنني لا أحاول الهروب، بل على العكس قد أكون الآن أحاول العودة. إنني أعود لأرى شكلاً آخر من أشكال الحياة التي فقدتها في عالمي. ليس لدي أي حكاية مختلفة، لكنه الموت الذي يتكرر دائماً في كل القصص هو ما جعلني أكثر رغبة في فهم الحياة.

اعتدلت أسيا في مكانها بعد أن تبدد النعاس الذي كانت تشعر به،

وسألت أليكس:

- ما الذي غيره الموت؟

- خطف لوك. لقد تزوجنا أنا وهو بعد أن كنت أعالجه. كانت حالته شبيهة بحالة ايما. كان لديه ميول انتحارية من الصعب التخلص منها. ظننت بأنني أستطيع تخليصه منها، لكنني لم أدرك أنني بذلك أقع في حبه. عالجته وعاش حياة طبيعية لمدة عام كامل بعد خروجه من المركز، وخلال هذا العالم تطورت علاقتي به، وقررنا أن نتزوج.

رسمت أسيا صورة افتراضية للوك الذي لم تره. كيف حول الحب هذه الطيبة إلى شريكة في حالة المريض الذي أراد الهروب من الحياة؟ تشعبت التساؤلات الرقيقة في ذهن أسيا التي كانت تصغي باهتمام.

- تزوجنا، واستمرت علاقتنا لعام آخر. لم أكن اعلم أن.. أن أفكاره لم تتلاش. لم يتخل لوك عن رغبته في الهرب، وكان يعتقد بأنه يجرفني معه إلى الهاوية. ظن بأنني أستحق حياة أفضل، ولأنه شخص خاو، فهو يجرنني معه إلى الجانب المعتم.

- هل انفصلتم؟ - سألتها أسيا.

- لا، بل وجدته منتحراً.. رأيته في حوض الاستحمام غارقاً في

دمائه.

هربت دمعة وحيدة من محجر عين أليكس. تلاشت الدمعة بعد أن
فركت طرف أصبعها بها. لكن أثر الحزن كان لا يزال عالقا في عينيها.

- هل أتيت إلى هنا، لتبحني عنه في هذا الجانب؟

- أتيت لمساعدتك، لكنني أشعر بالفضول أيضا تجاهه.

- دعينا نبحث عنه إذا. يمكننا أن نستخدم الانترنت لإيجاد أي
شيء يتعلق به، ومن ثم يمكننا أن نراه، لكننا لن نغير الواقع الموجود
هنا، لن نكرر ما قمت به مع نفسي.

رأت أسيا تعبير الغضب يولد على وجه أليكس وهي تقول:

- لست أنانية، أشعر بالفضول فقط.

غرقت شقة لمياء بالعتمة والهدوء. كانت لمياء قد خلدت للنوم،
لكن هذا لم يمنع أسيا من التنقل في منزلها بحرية، فهي تألف هذا
المكان، وكانت تتصرف على هذا المنوال كل ما أتت لزيارة لمياء.
بحثت عن حاسوب لمياء المحمول وقبل أن تجده قاطع مهمتها
صوت أوسكار:

- ألم تخلدي للنوم؟

أجفلت أسيا، لكنها لا تزال تحتفظ بهدونها:

- لا نزال مستيقظات. لكن لماذا لم تنم حتى الآن؟ ألم تعجبك الأريكة؟ سألته أسيا بسخرية.

- لقد جربت النوم على أرض عارية، وهذه الأريكة تبدو لي أفضل بمراحل.

حملت أسيا الحاسوب بكلتا يديها، وقبل أن تعود إلى الحجرة التي خصصتها لمياء لهم، قالت:

- أنا لا أعرفك، ولا أزال قلقة من وجودك.. لا يمكن أن أنسى محاولتك لقتلي. لكن على كل حال، شكراً لأنك تساعدني.

- لم أحاول قتلك. إنني أحاول الحماية. قد لا أكون مستوعبة لهذه الحكاية، لكن مهامني تنص على حماية عالمي، هذا ما نسعى إليه نحن، ولو تدركين حجم المخاطر المحيطة بنا، لتفهمت تسرعي هذا. لست الشخص السيئ يا أسيا. ثم إن اسمي هو اوسكار، لا اعتقد أنك تعرفين هذا.

- حسناً يا.. اوسكار، أتفهم الآن طريقة أدائك لواجبك، وقد لا أكون حقاً على اطلاع بالأمور التي تهدد عالمك.. أو حتى عالمي، لكنني أردت شكرك لأنك تحاول المساعدة، هذا كل ما في الأمر.

21 سبتمبر / 2019

8:00 صباحا / العاصمة

عندما وصلت ايما إلى المركز التأهيلي، كان من المقرر أن يؤول ملفها إلى أليكس، لكنها رفضت ذلك عندما أدركت أن للشابة ميولا انتحارية، سمعت صوتا في أعماقها بينهاها عن فعل ذلك، لأنها أخفقت في ذلك من قبل، ولا تريد أن تقع في الخطأ ذاته، ويكون الثمن روحا أخرى. لم يظهر على ايما أي من بوادر الانتحار، لأنها كانت تظهر أمام الآخرين على طبيعتها، فتاة عفوية لا يمكن توقع تصرفاتها، ولا تتوقف عن الضحك في أسوأ المواقف حتى، وهذا لم يكن متطابقا مع حالة لوك.

لم تتصور أليكس بأنها ستقع في حب هذا المريض الذي أتى فجأة بعد أن اعترف بأنه حاول الانتحار، لكنه لم ينجح، ولكي لا يتحول الأمر إلى قضية تهدم مستقبله، قرر أن يحول الأمر إلى خلل نفسي يمكن علاجه. استمر علاجه مع أليكس فترة قصيرة، وكان من المدهش أن تتطور حالته بعد ذلك بطريقة مفاجئة، وأن يتخلى عن أفكاره السوداوية تماماً.

- عندما يكون ما يتطلع للوصول إليه، أعتقد بأنه يتخلى حينها عن كل أفكار الاستسلام.

سألته ايما:

- وهل لديك ما تحاول الوصول إليه؟

- أعتقد ذلك. قالها وهو يحدق في عينيها مباشرة.

وقعت في حبه بطريقة مفاجئة، وقرر هو فور خروجه من المستشفى وبعد عدة مواعيد مع أليكس، أن يعرض عليها الزواج. أهداها خاتم والدته، والذي كان من قبل لجدته. وافقت أليكس وسمحت له بأن يلبسها الخاتم تحت سماء المدينة في ليلة من ليالي بداية الصيف.

كل الوقت الذي مضى مع لوك، كان يشبه عمرا مختصرا في عامين، الأول منهم كان مزيجا من الألم والتطلع، والعام الآخر قضته أليكس بسعادة، لكنها لم تدرك أن ثمن السعادة كبير أحيانا، وأن الحياة في هذا الرغد متعبة أيضاً. تركها لوك في نهاية الأمر مستسلما لأفكاره التي لم تتلاش في الواقع، لكنه كتمها ليكذب على العالم كله. رحل بطريقة مفاجئة طابعا ذكرى أخيرة مؤلمة في ذهن أليكس الأرملة.

- أريد أن أفهم، لماذا فعل هذا؟ - سألت أليكس فيرا التي كانت

تحاول مواساة شقيقتها، لكن كل المحاولات كانت غير ذات نفع.

لم تضع الصدمة أليكس في حالة ذعر، أو انهيار. لم تدخل في نوبة بكاء هستيري. بل استقبلت الأمر بصمت مخيف، وهذا كان يقلق فيرا جداً. إن لم نعبر عن الحزن فإنه يسمم أرواحنا. لكن أليكس لم تعبر طوال السنوات التالية عن حزنها بطريقة صريحة، بل حاولت الهرب من الذكرى عبر الدراسة والعمل.

بعد ساعة كاملة من البحث توصلت أسيا إلى عنوان لوك، لكنها لم تكن متأكدة ما إذا كان هو المعني أم لا. بحثت في المدونات الرقمية عن أي مدونة باسمه، فتوصلت لشخص بالاسم ذاته، وهو يعمل في أحد البنوك المحلية. احتفظت أليكس بالعنوان، وقررت زيارته في اليوم التالي والتأكد مما إذا كان هو أم لا. ستكون محاولة يتيمة ترضي فضولها لا أكثر.

في الصباح عندما استيقظوا جميعاً، تناولوا الطعام الذي أعدته لمياء لهم، وما أن فرغوا، فكروا في خطة يمكنهم اللجوء إليها. أدت أسيا دور القائد أخيراً، وقالت:

- سأزور عمر في مقر عمله.

- لكن اليوم هو يوم السبت، في عالمنا إنه السبت. - رد أوسكار.

أكدت لمياء:

- إنه السبت هنا أيضاً.

- ما العمل إذا؟ - سألت أليكس.

تفادت عيني أسيا وجوهم جميعاً، وبدأت تفكر في الأمر، لا يمكنها اقتحام المنزل فجأة والهجوم على تلك المرأة، لأنها لن تكسب ثقة أحد بتلك الطريقة. كيف يكمن لأربعة أشخاص الإطاحة بتلك المرأة، ولا يمكنها أن تنسى أمر والدها حتى، إنه دخيل هو الآخر، وقاتل.

- علينا أن نتوخى الحذر، هؤلاء الأشخاص مجرمون، ولن يمنعهم أي شيء من التسبب بالأذى لنا. قتل هذا الرجل أبي، وتلك المرأة لم يقلقها أن تسرق عالمي كله، ولا أعتقد أن موتي سيجعلها تتراجع.

طرح أوسكار سؤالاً مفاجئاً:

- لكن لماذا لم تقتلك منذ البداية؟

أثار السؤال خوف أسيا، لكنها لم تجد أي إجابة. لكن أليكس وجدت تفسيراً منطقياً لذلك:

- لن تتمكن من إخفاء الجسد في عالمها أو عالمنا حتى. جريمة قتل ستقود إلى تحقيقات كثيرة.

- لكن القاتل سيبقى مجهولا. - علقت لمياء.

أجاب أوسكار على تعليقها:

- لا يوجد جريمة كاملة، ستترك أثرا على الجثة، وسيقودنا هذا إلى هنا مهما طال الوقت.

انطلق الثلاثة برفقة لمياء إلى الضاحية الغربية حيث كان يقع منزل ايما في العالم الفعلي. لكن المقصد من زيارتهم إلى هناك، لم يكن رؤية ايما، بل لأنهم حصلوا على عنوان أوليفيا صديقة ايما، والتي طلبت منهم رؤيتها في هذا العالم لسبب لم يفهموه. لم تكن الفتاة ميتة كما حدث في عالم ايما، بل إنها لا تزال على قيد الحياة.

تعرف أسيا هذا المكان لأنهم اختبئوا في هذه المنطقة برفقة ايما، لكنهم تجاوزوا منزل ايما بشارع واحد، ليصلوا إلى منزل قديم آخر. طبع على البوابة الحديدية اسم عائلة كارتر بخط واضح. ترجلت أليكس من السيارة برفقة أوسكار، وطلبوا من أسيا البقاء مع لمياء بعيدا عن المنزل. لم تعترض أسيا لأن رؤية أوليفيا لن تخدمها وهي لن تعود إلى ذلك العالم لتخبر ايما عن ما رآته. إما أن تستعيد عائلتها، أو أن تموت هنا.

ضغطت أليكس على جرس البوابة الحديدية الكبيرة، فأجاب

حارس المنزل سائلا عن هوية الزائر. تحدث معه أوسكار وقال له:

- إنني هنا لرؤية السيدة كارتر.

أملى أوسكار طلبه على الرجل، وتلاقت عيناه بعين أليكس، التي أهدته إيماءة تدل على أنه يفعل الصواب. لكن الحارس كرر سؤاله عن هوية الرجل، ومن ثم سأله:

- هل تعني السيدة كارتر الكبيرة، لا يمكنها استقبال الزوار.

تدخلت أليكس قائلة:

- لا، إننا هنا لنرى أوليفيا.

- مهلا. - قال الحارس، وبعد عدة دقائق عاد ليقول - البوابة مفتوحة يمكنك الدخول.

كانت منازل الضاحية الغربية تقريبا متشابهة، ومعظمها مشيد من الحجارة، ويتكون من طابقين. سارت أليكس بجوار أوسكار متجاوزين المرج، وصولا إلى مدخل المنزل، وبعد أن صعدوا الشرفة الحجرية، وجدوا شابة تستقبلهم عند باب المنزل.

- مرحباً. هتفت الشابة.

سألها أوسكار:

- السيدة كارتر؟

- لم أستعد الكنية بعد، طلقت توأ، لكنني أعمل على إعادة كنيستي السابقة. لن يستغرق الأمر كثيراً.

دعتهم أوليفيا للدخول إلى غرفة المعيشة الكبيرة، والتي كانت في إحدى زواياها مدخنة يبدو أنها لم تعمل منذ وقت طويل. إنهم في الخريف، لكن الشتاء قادم في كل الأحوال.

- كيف أستطيع مساعدتكم؟

- في الواقع نحن أتينا لنسألك إن كنت تعرفين ايما..

قاطعتهم أوليفيا بذهول:

- ابنتي؟ إنها طفلة.

تلاقت نظرات أوسكار بنظرات أليكس مرة أخرى. لقد أطلقت على ابنتها اسم ايما، لكن تعابير الدهشة التي كانت تمحو جمال ملامح أوليفيا لا تزال مطبوعة على محياها على الآن.

- أعني ايما اندرسون. - قالت أليكس.

- لا، لا أعرف أي فتاة بهذا الاسم. لكن.. أعتقد بأنه كان لدي زميلة في المدرسة تدعى ايماء، لا أتذكرها جيداً في الواقع.

سألها اوسكار:

- هل هي سبب تسميتك للطفلة بهذا الاسم؟

- لا، لست متأكدة. قد يكون عقلي احتفظ بهذا الاسم، لكنني شعرت بأنني أريد أن أطلق على طفلي هذا الاسم، دون فهم السبب، لقد أحببته، هذا كل شيء. هل هناك أي خطب يمكنكم شرحه لي؟ بدأت أشعر بالقلق.

قاطعهم صوت نداء بعيد، أتى الصوت حاداً وعاجزاً.

- إنها والدتي، ليست على ما يرام. سأعود حالاً.

اختفت اوليفيا، وتركت اوسكار وأليكس في غرفة المعيشة وحدهم. نهضت أليكس وسارت نحو المدخنة التي احتوت قممها على عدد من صور عائلية مثبتة بقواعد خشبية. راقب اوسكار ما كانت تقوم به أليكس، ولم يدرك بأنها كانت تحاول سرقة صورة اوليفيا من فوق المدخنة. كانت صورة اعتيادية تنبض أمومة، فيها اوليفيا تحتضن ايماء الصغيرة.

عادت اوليفيا بعد أن أنجزت أليكس عملها، ولم تلاحظ اختفاء الصورة حتى. سألتهم إن كان هناك ما يمكن أن تساعد به، لكنهم اكتفوا بما حصلوا عليه من إجابات.

- شكرا لك، ونحن نعتذر إن تسببنا بالإزعاج لك أو لعائلتك.

- لم أفعل أي شيء.

ساروا مبتعدين عن مدخل المنزل، متجهين إلى سيارة لمياء، كانت الأفكار التي راودت اوسكار وأليكس متشابهة تماماً. لقد أطلقت على ابنتها اسم ايما، وهي لم تعرف الفتاة. هل يمكنها أن تشعر بالرابط الموجود بينهم في عالم آخر؟

- هل يمكن أن تكون روحهم واحدة، لكنها طبعت في عدة أجساد وفي عوالم مختلفة؟

- لا أعلم يا أليكس، لكن إطلاق الاسم ذاته على ابنته، لا أعتقد بأنها مصادفة، أعتقد بأنهن يمتلكن رابطا لم يكتشفنه، وقد يكون هذا ما يصنع الديجافو في عالمنا، أو يجعلنا نؤمن بأفكار لم نعشها من قبل. قد يكون الأمر تكرر في عالم آخر، لكن في حياتنا الفعلية نحن لم نخضع له. لكن ما لم أفهمه، لماذا سرقت تلك الصورة؟

تفادت أليكس شعورها بالعار لأنها سارقة:

- من أجل ايما.

- لا يمكنك القيام بهذا. - وصلوا إلى السيارة وقبل أن يدلفوا إليها أردف اوسكار - هذا سيكون جسماً منقولاً من عالم آخر، ولا أعتقد بأن الطائفة ستسمح بوجوده.

- لن يعلم أحد بذلك، لن تشي بي، أليس كذلك؟

فتحت أليكس الباب وجلست في مقعدها قبل أن يجيبها. شرحت فوراً لأسيا ما رآته في الداخل، وكيف أن مسألة الاسم كانت مثيرة للتساؤلات.

توقفوا أمام منزل ايما، لكنه لم يكن شبيهاً بالمكان الذي اختبئوا فيه، بل إن الأشجار نمت فيه بشكل مخيف، وغطت ملامح المنزل كله ولم يبق مكشوفاً منه سوى قمته. توقفت السيارة عن باب المنزل، وقررت أليكس أن تزور منزل عائلة ايما وحدها.

لم يكن دخول منازل الضاحية أمراً بالغ السهولة، وإن كانت اوليفيا قد تساهلت معهم، فإن عائلة ايما لم تسمح لها بالدخول، بل أصرّوا على معرفة سبب زيارتها، وعندما ماطلت، قالت لها المرأة التي تتحدث عبر جهاز الاتصال الموصول بالجرس:

- إن لم ترحلي، سأتصل بالشرطة.

- إنني أبحث عن إيما، هذا كل شيء. هل هي هنا. أنا صديقتها.

أتى الصمت مخيفاً، مما جعل صوت رياح الخريف وهي تعبر بين الأغصان تبدو موحشة وحزينة. حجبت الأغصان الطويلة ضوء شمس النهار. أتى صوت المرأة بعد الصمت:

- إن كنتِ صديقتها، لعلمت بالأمر حقاً.

- أي أمر؟ - سألتها أليكس.

- إيما انتحرت قبل ثلاث سنوات.

لقد انتحرت في الوقت الذي بدأت فيه العلاج في عالمها هي. لقد نجت في عالم أليكس، لكنها هنا استسلمت للموت كما فعل لوك في عالم أليكس. لن تخبر أحداً بذلك، ولا حتى إيما التي لا تزال على قيد الحياة في عالمها هي.

10:15 صباحا / الساحل الشرقي

- هل فهتم الخطة؟ - سألت أسيا

راقبت وجوه الثلاثة الجالسين في السيارة، بدت لمياء التي كانت تقبض على المقود بكلتا يديها متوترة، وغير مستعدة للأمر. لكنها ستفعل أي شيء من أجل الصداقة التي تربطها بأسيا. كان دورها في الخطة هو استدراج أسيا الأخرى خارج المنزل. ستطلب منها أن يلتقيا ليتحدثا عن الخلاف الأخير بينهما.

- الخطر الأكبر هو وجود أبي، ستحاول يا اوسكار أن تمنعه من الوصول إلينا. ستذهب إلى الوادي الغربي، إلى منزل أبي وستبقيه هناك، من دون أن تتسبب بالأذى لأمي، فهي لا تعرف من هو الرجل الموجود معها.

أما الدور الأساسي في الخطة فكان لأسيا وأليكس حيث إنهما ستحاولان الوصول إلى عمر في المنزل، وشرح الحقيقة له، وستحاولان الإطاحة بأسيا الأخرى، وإعادةها إلى عالمها.

اتصلت لمياء بأسيا، وطلبت منها أن يلتقيا على الغداء، وأن يتحدثا بشأن الخلاف الأخير، ولأنهم ما زالوا يملكون بعض الوقت الذي

يفصلهم عن مباشرة الخطة، قررت أن الوقت قد حان لزيارة لوك. قادت لمياء سيارتها إلى العنوان الذي احتفظت أسيا به، والذي حصلوا عليه من الانترنت. لم يكن العنوان يبعد عنهم سوى خمس عشرة دقيقة.

لم تتخيل أسيا المنزل الذي أدى إليه العنوان هو المكان الذي يعيش فيه لوك. لم يكن الأمر يشبه منزلهم السابق. بل كان مكانا أكثر بساطة. كان المنزل محاطا بحديقة واسعة جعلت المبنى الذي يعيش فيه صغيرا، أحاطت الشتلات المنزل الصغير من كل جانب. لم يكن هذا منزل شخص أعزب، لأن اللمسة الأنثوية واضحة، وهذا الاهتمام يشير إلى وجود أنثى في المنزل. عبرت لمياء أمام المنزل بسيارتها ببطء. توقفت بعد أن تجاوزت المنزل، فترجلت أليكس من السيارة وسارت باتجاه منزل لوك.

ظهر طفل بدا أن عمره تجاوز الخمسة أعوام، وسارت على الشرفة الخشبية، ثم توقف وكان مدخل المنزل لا يزال مفتوحا. وضع الطبق الذي في يده على الطاولة الخشبية، ولم يزح عينيه عن أليكس الواقفة عند السياج الخشبي المحيط بالمنزل.

ناداها الطفل:

- ماما. - تراجعت أليكس، وفكرت في أن تعود إلى السيارة، لكنها بدلا من ذلك سارت بمحاذاة السياج، حتى اختفت خلف المنزل. - أبي ماما رحلت.

خرجت لوك ليداعب الطفل، دون أن يفهم ما كان يرمي إليه. أطلت أليكس برأسها، ورأت لوك يحاول حمل الطفل ورأس الطفل يقترب من سقف الشرفة. خرجت امرأة شعرها ثلجي طويل يغطي رأسها. وقفت بجانب لوك والطفل، ثم قامت بسحب الكرسي الموضوع أمام الطاولة، وجلست. جلس لوك على الكرسي المجاور لها، وشبك ذراعه بذراعها.

نسي الطفل أمر المرأة الغربية التي هربت، بل راح يلهو في الحديقة ووالداه يراقبانه فوق الشرفة. لم تتمكن أليكس من سماع ما كانوا يقولانه، كل ما سمعته هو صراخ الطفل، والأصوات التي كان يصدرها وهو يحاول تقليد الطائرات.

أمعنت أليكس النظر، فرأت وجه المرأة الجالسة بجوار لوك.. إنها هي! أليكس.. أليكس التي تنتمي إلى هذا العالم، والتي تعيش حياة أبسط من حياتها الفعلية مع لوك ذاته. لم يجتمعا هناك، لكنهما الآن معاً، لقد حضت بالنهاية السعيدة هنا.

2:15 مساءً / العاصمة

استأجر لوك سيارة صغيرة من خلال ما تبقى لدى أليكس من مال. انطلق عبرها إلى الوادي الغربي، وهو يحاول أن لا ينسى تحذيرات

أسيا. أخبره أن عليه البدء من القبو، كما أنها أخبرته أن والدته عادة ما تترك الباب الخلفي مفتوحاً فهي لا تقفله

سيستغرق الأمر ساعة تقريباً حتى يصل إلى هناك، لكنه سيحاول أن يزامن الأحداث التي تجري في العاصمة.

أليكس وأسيا كانتا تراقبان المنزل، بعد أن تركتهما لمياء أمام المنزل الذي تعيش فيه أسيا سابقاً. انطلقت لكي تسبق صديقتها إلى المكان الذي واعدتها فيه، وتركت أسيا تراقب المكان حتى لحظة خروج أسيا الأخرى منها. راقبن المنزل لأكثر من خمس عشرة دقيقة، وعندما رأت أليكس أسيا الأخرى تنطلق، نبهت صديقتها إلى ذلك. رأتها أليكس بترقب متعب وهي تنطلق، وما أن ابتعدت حتى سارت هي وأليكس نحو المنزل.

كادت أسيا أن تضغط على الجرس، لكنها لم تفعل ذلك، بل حاولت فتح الباب فوجدت أنه مفتوح بالفعل. سمعت صوت جهاز الإنذار، فقامت فوراً بإدخال رمز الإيقاف، لكنه لم يعمل. هبط عمر بسرعة وما إن رآها سأل:

- هل نسيت المفتاح؟ - وقعت عينيه على أليكس، فرمى نظرة تساؤل لزوجته.

قام عمر بتعطيل جهاز الإنذار، وهو يذكرها بأنهم غيروا الرمز قبل عدة أيام كما طلبت هي. تساءلت أليكس عن السبب؟ هل كانت

تتوقع عودة أسيا لها؟ هل كانت تخطط لهذه اللحظة؟

نظرت أسيا إلى عمر بتمعن، إنه هو عمر الذي تعرفه، عمر الذي يختلف عن الآخر الحزين. شعرت بأن قدمها لم تعد تقوى على حملها، وأرادت أن تبكي لفرط شعورها بالطمأنينة.

- عمر إنني.. إنني أسيا.

- أعرف هذا، لكن.. هل هذه صديقتك؟

صاحت بأنها ستشرح له الأمر لاحقاً لكن أولاً عليها أن تتفقد شيئاً آخر. جرت إلى الطابق العلوي، وتفقّدت حجرات أبنائها. وجدت جميل يجلس مع زهرة، أما حبيبة فكانت في حجرة والديها تعبث بمساحيق التجميل المخصصة لأسيا.

رفعت حبيبة عينيها نحو أمها وسألتها:

- هل غيرت ثيابك؟

في تلك اللحظة أدرك عمر الاختلاف وسألها:

- متى غيرت ثيابك؟ لقد خرجتِ توأ وأنت ترتدين ثياباً سوداء.

تجاهلت أسيا كل الأسئلة وارتمت على ركبتها أمام حبيبة

واحتضنتها لتتأكد من أنها حقيقية. إحساس الحزن لم يتغير، ولا حتى رائحة الطفلة، أو رائحة حجرتها هنا. أن تتواجد هنا من جديد هذا يؤكد لها عودتها إلى الحياة التي تركتها رغماً عنها.

- عمر، إن تلك المرأة التي خرجت توأ، ليست أنا.

استدرجت أسيا عمر خارج الحجرة، لأنها لا تريد التحدث بهذا أمام الطفلة، وعندما هبطوا برفقة أليكس إلى الطابق السفلي، راحت أسيا تشرح الأمر له. جلسوا متجاورين على طاولة الطعام، وسردت أسيا كل ما تعرفه لأليكس.

لكن رد فعل عمر لم يكن متوقعا. قبض على ذراعي أسيا، وسألها إن كانت بخير، فصرخت أسيا وهي تدفع ذراعه:

- تلك المرأة يا عمر.. ليست أنا. - رفعت أسيا ذراعها لتريه السوار الذي اشتراه هو وحبيلة لها في عيد ميلادها - ألم تلاحظ أنها لا ترتدي هذا؟ ألم تتصرف تلك المرأة بغرابة؟

سمعت أليكس صوت باب المنزل يفتح فهمست:

- أحدهم هنا.

نهض الثلاثة من فوق كراسيهم. أليكس وأسيا حاولتا التخفي، بينما عمر خرج ليرى من الذي فتح الباب. عاد بسرعة ليخبرهم بأنه لا

يوجد أحد هنا.

نظرت أليكس عبر النافذة الجانبية، وصاحت فجأة:

- إنها هي، انظروا. كانت تعرف بأمر وجودنا يا أسيا.

- حبيبة معها. صرخ عمر وراح يجري نحو باب المنزل.

خرج عمر جرى بأقصى سرعته نحو سيارة أسيا، لكنها كانت قد انطلقت مع حبيبة قبل أن يصل إليهم، عاد إلى الداخل باحثاً عن مفتاح سيارته، وانطلق بجزع نحو زوجته التي أدرك بأنها ليست هي قبل أن تتمكن أسيا من إثبات الحقيقة له.

انطلق الثلاثة بسيارة عمر خلف أسيا، لكنها كانت قد اختفت ولم يتمكنوا من تحديد وجهتها التالية.

- إنه جهاز الإنذار، موصول بهاتفها. لا بد من أنها عادت وأدركت بأنكم هنا.

- إنها لا تريد أي شيء سوى حبيبة، لقد عادت من أجلها. لا بد من أنها تريد الهروب منها والعودة إلى عالمها معها.

حاولت أليكس ربط الأشياء ببعض، وقالت:

- إذا هي تريد العودة إلى عالمها برفقة حبيبة، هذا يعني أنها ستعود إلى منزل والدك.

3:40 مساء / الوادي الغربي

لم يعد أوسكار يحاول إنشاء مقارنة بين سرعته وسرعة الوقت، لأنه لا يريد أن يكتشف مدى تأخره. لكنه عندما وصل إلى الوادي الغربي، لم يجد أي أمر مثير للريبة. ترك سيارته في مكان غير مكشوف وراح يدور حول منزل والد أسيا ليتأكد من أن أحدا لن يكتشف وجوده. اقترب من المنزل وعبر إلى الداخل من خلال الباب الجانبي. كان هناك أصوات مختلفة، لكنها تشبه حركة الأمواج، تعود للحظات، ومن ثم يعم الهدوء فجأة. أخرج أوسكار سلاحه، وحاول أن يفتنم فرصة مناسبة للهجوم دون أن تدرك والد أسيا وجود أي خطر.

هبط والد أسيا عبر السلم، وكان أوسكار لا يزال يسمع صوت وقع خطوات في الطابق العلوي. لن يفصله عن وصولها سوى وقت قصير، عليه أن يفتنمه ويشن هجومه على الأب ويفقده وعيه. قفز أوسكار قفزة سريعة، وضرب الأب على مؤخرة رأسه بكعب السلاح، وعندما هوى الأب قبض أوسكار عليه، لكي لا يرتطم جسده في الأرض. جر أوسكار جسد الأب إلى جانب السلم حيث يقع الباب المؤدي للقبو. إنه يعرف المكان لأنه دخل المنزل المطابق له في عالمه. كان والد أسيا ثقيلا، لكن أوسكار يمتلك القدر الكافي من القوة لأن يجره قبل

وصول الأمن.

قام اوسكار بتكميم فم الأب، وربط يديه بسلك كهربائي وحده في القبو. حاول اوسكار النهوض بعد ذلك، لكنه تلقى ضربة قوية أفقدته توازنه، وجعلته يسقط على الأرض وهو يحاول أن يميز هوية من ضربه. لمح اوسكار جسدا قصيرا بحوار الظل الطويل الذي هاجمه.

إنها آسيا.

رأى عمر سيارة زوجته تقف عند مدخل المنزل الكبير في الوادي الغربي. ترك محرك سيارته يدور، وترجل منها دون أن يغلق الباب خلفه، وجرى نحو المنزل. شعرت آسيا بالقلق عندما رأت باب المنزل مفتوحا، والهدوء يعم المكان في الداخل.

- أمي، اوسكار.

ما من مجيب. شعرت آسيا بالخوف يتفاقم في داخلها.

طلبت من عمر أن يبحث في الأسفل، بينما ستنتقل هي وأليكس إلى الطابق العلوي للبحث. تركوا عمر وحيدا في الأسفل، وانطلقوا بسرعة للأعلى، لكنهم لم يجدوا أي شيء هناك.

- توقفي. - سمعت أسيا صوت زوجها يأتي من الطابق السفلي، فعادوا إليه قبل أن يكملوا بحثهم في كل الحجرات.

رأت أسيا صورة مطابقة لها، تقف أمام عمر وتشهر سكيناً أخذتها من المطبخ، أمام وجه زوجها. حذرته من الاقتراب منه، لأنه إن فعل ذلك فلن تتردد في قتله. اقتربت أسيا من زوجها وأليكس كانت تقف بجوار السلم دون أن تتحرك.

- لا تقتربوا مني، والدتكِ معي سأقتلها إن حاولتم التدخل. إن كانت حياة والدتك مهمة فعليكم أن تبقوا هنا حتى يفعل أبي تلك الآلة.

- لقد قتل والدكِ أبي.

- قتل نفسه الموجودة هنا.

قالت أليكس بغضب:

- ليست نفسه، ولا تنتمي إليه. إنه قاتل.

- أثبتني ذلك إذاً.

تراجعت أسيا إلى مدخل القبو وهي لا تزال ترفع السكين في وجههم. حذرته من التدخل، وإلا ستقتل أوسكار ووالدة أسيا.

عندما فتح اوسكار عينيه، وجد يديه مكبلتين، ومثبتتين بإحدى قواعد المنزل، وعلى الجانب الآخر كانت والدته آسيا تناضل لتحرير نفسها، لكنها عاجزة عن القيام بذلك. حاول اوسكار أن يجر العقدة التي تحيط بيديها ليحررها، لكن ما إن أدركت آسيا ما يقوم به، حتى غرست نصل السكين في كتفه. صرخ بسبب المفاجأة، وبعد ذلك حاول أن يكتم أنينه بسبب الألم.

كانت والدته آسيا تصرخ بسبب الرعب الذي ترى ابنتها تقدم عليه، وهي حتى الآن لم تفهم أن هذه ليست هي ابنتها الفعلية. دخلت حبيبة في حالة جمود بسبب الصدمة التي تلقتها لما تراه، لكن والدتها أخبرتها بأن هؤلاء لصوص، ويريدون اختطافها، وهي لن تسمح لهم بذلك.

لم تدرك آسيا أن الخيط الذي يقيد يدي والدتها قد ارتخى بالفعل قبل أن تطعن هي أوسكار. قامت الأم بدورها بتحرير اوسكار لأنها تشعر بالخطر من زوجها وابنتها. حاول الأب توصيل الجهاز بالكهرباء، وفي انتظار أن يشحن الناقل بالطاقة التفت نحو زوجته وقال:

- ستأتين معنا. يمكننا أن نعيش معاً في عالمي.

- عالمك؟ - سألته زوجته.

همس لها أوسكار:

- هذا ليس زوجك، إنه مجرم، وهم ينون اختطافكم أنت وحبيبة.

تقدمت أسيا وركلت أوسكار في كتفه المجروح، مما جعل الألم يزداد، وهذا تسبب له بالعجز مرة أخرى. استغلت والدة أسيا حالة الفوضى تلك، وجرت العقدة التي تقيد يد أوسكار. تدارك أوسكار الموقف، وتحرك بسرعة بعد أن أصبحت يده حرة، متجاهلاً الألم الفظيع.

أرادت أسيا أن تطعنه بالسكين التي كانت تحملها، لكن والدتها دفعتها مما أدى إلى سقوطها على الأرض، حاول الأب التدخل وتثبيت الأم، وجرها إلى الجهاز الناقل، لكنها حاولت أن تقاوم. دون أن تفهم سبب قيامه بهذا الأمر.

قبض أوسكار على يد أسيا التي تحمل بها السكين، وضربها بالأرض عدة مرات حتى أفلتت السكين من يدها، وحاولت أن تضربه بيدها الأخرى الحرة. لكن أوسكار كان قوي البنية، وتمكن من تثبيتها.

دفع عمر باب القبو وهبط هو وأسيا وأليكس إلى هناك. في تلك اللحظة كاد الأب أن يعبر من خلال الناقل، لولا أن أليكس تشبعت بذراع الأم وحاولت جرّها. لكن الأب وجه أليكس وحاول أن يبعدها، لكنها قاومت. بدأ أنف أليكس بالنزيف، وكادت أن تستسلم لأن الأب كان أشد منها قوة.

تدخل أوسكار وحاول إفلات الأم من قبضته. في تلك اللحظة رمت أليكس ثقلها كله على الأب وسقطا معاً فوق الناقل، وتلاشت أجسادهم. حمل أوسكار جسد أسيا الأخرى وسار بها باتجاه الناقل، استدار ليلقي نظرة أخيرة على أسيا التي كانت تقف مذعورة عند والدتها، وقال:

- دمرُوا هذا الشيء.

- أليكس. - لم يكن ذلك نداء، بل كان وصية أخيرة توجهها أسيا لأوسكار قبل أن يتلاشى هو وأسيا التي كانت تقاوم وتصرخ بذعر بين يديه.

لكنه تلاشى قبل أن تتأكد ما إذا كان قد فهم مقصدها أم لا. اختفى ولم يبق سوى الضوء المنبعث من النافذة الملتصق في الأرض. عطلت أسيا توصيل الكهرباء عن الجهاز فاختفى نوره.

ساعدت والدتها على النهوض والخروج من القبو وحمل عمر حبيبة بين يديه وسار بها إلى الخارج. لن ترى والدها بعد الآن، وعليها أن تشرح هذا الأمر لوالدتها. لن يكون مدفوناً هنا، ولا يمكنهم حتى زيارة قبره. كما أن عليهم تقبل هذا الحجم من الخسارة التي ستكون أكبر لولا تدخل أليكس.

لم تثق أسيا في الحقيقة التي فتحت عينيها عليها، بل كانت تثق

بأن حبيبة موجودة في مكان ما أثره موجود في ذاكرتها. المهم الآن هو عودتها إلى عالمها.. إلى عائلتها، لم ترغب أسيا في أن يكون الثمن هو حياة والدهم، لكن هذه هي أقل الخسائر التي انتهت بها حربها مع نفسها الأنانية المبعوثة من الجانب الآخر للحياة.

خاتمة

جلست أليكس على الكرسي الحديدي المقابل لكرسي ايما، فصلت بينهما الطاولة الفضية وعليها انعكس ضوء المصابيح البيضاء التي توزعت في سقف القاعة. عادت ايما إلى المركز التأهيلي بعد أن قبضت عليها الشرطة، وتم إحالة حالتها لأليكس هذه المرة، وكنت هذه رغبتهما معاً.

- لم أستسلم للشرطة، بل قدت سيارتك حتى صدمتني حاوية القمامة.

- حاوية القمامة هي التي صدمتك؟

هزت ايما رأسها عدة مرات بسخرية، ثم قالت:

- نعم. أعتقد بأنك بحاجة للبحث عن سيارة أخرى. لم أقصد القيام بهذا الأمر، أنت تعلمين أنني حاولت المساعدة فقط. لكنني فشلت في النهاية.

- بل ساعدتنا يا ايما.

تذكرت أليكس حقيقة ايما في ذلك العالم، وكيف استسلمت لفكرة الموت في النهاية، وأقسمت في نفسها، أن تبذل كل الوسائل لأن

تساعدها هنا. تذكرت أمر الصورة التي سرقتها. بحثت أليكس في حقيبتها وأخرجت الصورة المطوية وفردتها أمام ايما.

- هذه هدية جلبتها لك من هناك. انظري هنا، إنها صديقتك وهذه ابنتها. أطلقت على ابنتها اسم ايما، رغم أنها لا تعرفك في الواقع.

ثبتت ايما أطراف أصابعها على الصورة، وجرتها نحوها، ثم رفعتها لترى تفاصيلها بدقة أكبر. رأت كيف بدت أوليفيا مختلفة، لكنها تملك العين الزرقاء ذاتها. هكذا كانت ستبدو صديقتها لو أنها كبرت في هذا العالم؟ طلبت من أليكس أن تحتفظ بالصورة، لكن بشرط أن يبقى أمرها سراً.

- علينا أن ننهي علاجك هنا، وستعودين حرة بعد ذلك، لقد أفلتنا جميعاً من عقوبة الشرطة بأعجوبة.

- هل تعتقدين أن للطائفة يدا في محو كل ذلك. - سألتها ايما.

زمت أليكس شفيتها فهي لم تكن تعرف حقيقة الأمر بعد، لكنها تشعر بوجود اليد الغامضة التي رتبت كل شيء لتنتهي القصة بهذا الشكل الطبيعي.

في المساء التقت أليكس بأوسكار في مقهى تزوره للمرة الأولى،

واعتقدت أن اوسكار اختار هذا المكان بسبب قلة الزبائن فيه.
فالمكان كان بعيدا عن زحام الطريق الرئيسي، ولا يوجد فيه إلا عدد
قليل جداً من الأشخاص. عندما وصلت وجدته بانتظارها.

جلست من دون أن تحييه، وهي تشعر بأنها هنا لتلتقي به للمرة
الأخيرة، لكنها ليست متأكدة من ذلك بعد. عادت هالة الغموض
والصمت تحيط به، واردتا اوسكار وجه المطارِد المخيف الذي رآته
أليكس فيه للمرة الأولى.

- اختفت الكدمة تماماً.

- ذلك اللعين، كان من الصعب أن اشرح لشقيقتي سبب تلقي
تلك اللكمة. لقد ظنت أنني خضت جولة ملاكمة، أثناء هروبي من
الشرطة.

ظهر طيف ابتسامة على وجه اوسكار، ثم قال:

- يبدو هذا مقنعاً.

بدأ ضوء النهار في الخارج يتلاشى وعتمة المكان كانت تزداد، لكن
هذا لم يزيد من قلق أليكس، بل أعطاها شعوراً غريباً بالألفة. تذكرت
لوك فجأة، كانت أليكس تقضي أوقاتاً عديدة تتخيل شكل حياته
معها في ذلك الجانب.

- أتيت لأخبرك بأننا صادرنا الناقل، ونقلنا الأب إلى مقر بعيد، أعتقد بأنهم سيزيحون الأمر من ذاكرته.

ضاقت عيني أليكس، وقالت:

- هل هذا هو الحل الوحيد؟

- إن لم نقم بهذا، فنحن لا نضمن ما يمكنه القيام به من جديد. لا يمكننا زجه في السجن، فلا تهم موجودة عليه. يجب علينا أن نخفي هذا الأمر عنه هو أيضاً.

ما مدى نفوذ هذه الطائفة؟ فكرت أليكس في الأمر. ليس لهم الحق في تغيير أفكار أحد وإن كان بهذا السوء، فهو إنسان في النهاية يمكنهم معاقبته، لكن بطرق أخرى.

- صدقيني الأمر يخرج عن إرادتنا أنا وأنت. إنهم ينظرون للأمر ويحسبونه بمعايير أخرى.

إنهم، أشار اوسكار إليهم بطريقة غامضة توحى بكثرة عددهم. طردت أليكس تلك الأفكار من رأسها وأزاحت الخوف الذي ولد فجأة في ذاكرتها، وحاولت اغتنام الوقت الذي تقضيه برفقة اوسكار لتعبر له عن امتنانها لأنه حاول مساعدتهم على الأقل.

- أسيا، هل تتذكرين أين أنت؟

- مركز العاصمة التأهيلي. لكنكم مخطئون في تركي هنا. أنا لست مجنونة، علي أن أعيد ابنتي. إنها ابنتي أنا وليست ابنتهم.

زفرت أليكس، وأشاحت بنظرها عن المرأة، وهي تفكر في إصرار هذه المرأة على صنع الأفكار والإيمان بها. جمعت الأوراق البيضاء التي تشرح حالة أسيا، ورتبتها لتساوى في طولها. ثم نظرت إلى أسيا التي أحاط شعرها الأشعث رأسها من كل الجوانب، وأصبح زيها الأبيض مجعداً.

- هل تريدان حقاً الذهاب إلى عالم آخر، لإعادة ابنتك؟

هزت أسيا برأسها وهي تشك في أن أليكس ستصدقها، لكن ربما يساعد الضعف الذي تظهره بجذب تعاطف هذه المرأة معها. بدت أليكس أكثر مرونة. ارتخى كتفها ونظرت ببؤس إلى أسيا الجالسة أمامها.

- انت، ايما، حتى عمر، كلكم تمنعوني من الذهاب إلى حبيبة.

- لقد ماتت حبيبة في الربيع، مضت سبعة أشهر على موتها، وأنت لا تزالين تصنعين هذا الوقت. لا يوجد ما يمكنه نقلك إلى ابنتك. هذا هو عالمنا يا أسيا، لا يوجد جوانب أخرى ولا أبعاد يمكنك السفر إليها

وإحضار الموتى منها.

ظهر الغضب على وجه أسيا، أغلقت عينيها وراح جسدها يرتعش بينما كانت تحاول أن تتمالك غضبها.

- إن كنتِ تريدين العودة إلى المنزل، عليك إذا التخلّص من هذه الأكاذيب التي تصنعينا لنفسك. نحن لا نعيش في رواية خيالية. يجب عليك الإيمان بالحقيقة، والتخلي عن الأوهام إن أردت لهذا الألم أن ينتهي.

كورت أسيا قبضتها، وضربت سطح الطاولة الخشبية، ثم صرخت:

- أنت كاذبة، ومتآمرة معها. لقد أرسلتك من هناك لتبقيني حبيسة هذا المكان للأبد.

ضربت أسيا الطاولة مرات عدة بغضب. فقدت أليكس السيطرة عليها، فدعت الممرضين للتدخل. حاول اثنان من الممرضين إعادة أسيا إلى غرفتها فقاومتهم، وعندما طلبوا تدخل شخص ثالث استسلمت، وأشارت بيدها لهم بأن يبقوا بعيدين عنها.

- سأعود إلى هناك. أبعادوا أيديكم عني.

سارت أسيا بإرادتها إلى حجرتها وتبعها الممرضون العلات إلى هناك. أقفلوا الباب عليها ما إن دخلت إلى هناك. تجاوزت أسيا

سريـرها، وسارت إلى النافذة الزجاجية وراقبت حديقة المستشفى
خلف الشباك الحديدية المثبتة خلف الزجاج. ألصقت وجهها في
النافذة وراحت تفكر في حبيبة

- يريدونني أن أصدقهم. حسناً سأفعل، وسأعود إليك.